أوراق تحت المطر

الفصل الأول: ظلّ الطفلة

كانوا جميعًا يتساءلون، في دهشةٍ لا تخلو من عتابٍ خفيّ، عمّا يدفعني للاحتفاظ لها بتلك المكانة الرفيعة في قلبي، رغم أنّ ما جمعنا لا يتجاوز بضع كلماتٍ متناثرة عبر شاشةٍ باردة، لا تحمل دفء صوتٍ ولا ظلّ وجهٍ.

لم يسمع أحدنا نبرة الآخر، ولم تجمعنا عينٌ بعين، ومع ذلك، ظلّ حضورها فيّ أصدق من وجوهٍ كثيرةٍ عانقتني ثم عبرت دون أثر.

ربما لأنّي ما زلت أحتفظ بصورتها القديمة، حين كانت طفلةً صغيرةً تفيض حياةً وبريقًا.

صورة لم يجرؤ الزمن أن يلمسها، فبقيت في قلبي كما كانت: نقيةً، مدهوشةً، حالمةً، لم تجرّب بعدُ وجع العالم.

كبرت هي في الظاهر، لا شكّ، لكنّي كنت أرى ما وراء ملامحها الناضجة، الطفلة ذاتها التي لم تغادرها، الطفلة التي انهزمت أمام قسوة الواقع، لكنّها لم تفقد براءتها.

كانت رقيقةً أكثر مما يحتمل العالم، شفّافةً كأنّها من ضوءٍ لا من لحمٍ ودم، وكلّ ما حولها بدا غليظًا، خشنًا، لا يليق بتلك النعومة الخجولة ولا بتلك الروح التي تأبى أن تموت.

ربما لهذا السبب تركت نفسها حرةً في ملكوت الله، تسعى كروحٍ تائهةٍ تبحث عن مأمنٍ لم تجده، وطمأنينةٍ لم تعرف طريقها بعد.

وربما، في لحظةٍ لا أعلم كيف وُلدت، رأت فيّ ما لم تره في سواي، أو لعلي أنا الذي تعرّفت عليها قبل أن يتعرّف إليها غيري.

مهما يكن، فالأمر بدا قدرًا خالصًا، لا منطق فيه ولا تفسير، كأنّ الله أراد ذلك لحكمةٍ لا أعلمها، وأيقنت أن لا جدوى من مقاومة ما خُطّ في لوح الغيب.

حاولت الانفصال عنها مرارًا، اتخذت القرار ألف مرة، كتبت على نفسي العهود، ومضيت معتقدًا أنّي تجاوزتها، لكنّ المسافة لم تزدني إلا قربًا.

كانت تعود إليّ كلّما حاولت الفرار، لا بكلماتٍ ولا بلقاء، بل بصمتٍ يوقظني ليلًا، بصورةٍ تنبثق من العدم، أو بخاطرةٍ تمرّ في رأسي دون استئذان.

تأتي الفرص، وتلوح وجوهٌ أخرى في طريقي، لكنّها تمرّ عابرة، لا تثير فيّ شيئًا.

أحاول أن أكون كما كنت قبلها، فلا أجد في نفسي رغبةً ولا شغفًا، كأنّها سرقت الجزء الحيّ من قلبي وتركت الباقي يعيش بالعادة.

كلّ الأسباب التي يمكن أن تجمعنا مستحيلة، وكلّ يومٍ يمضي يجعل استحالتها أوضح، ومع ذلك، لا أملك سوى أن أبحث عنها بين الصمت والكلمات، أفتّش عن أثرٍ يدلّني أنّها بخير، أقرأ في سطورٍ لا تخصّني حرفًا صغيرًا يشبه اسمي.

هي الوحيدة التي لم تهن عليّ يومًا، والوحيدة التي أخشى عليها حتى من نفسي.

أشعر نحوها بشيءٍ يتجاوز الحبّ، شيءٍ يشبه الأبوة، أو الحماية الغامضة التي لا تحتاج إلى مقابل.

حين أكتب عنها، تنساب الكلمات وحدها، كأنّها تعرف طريقها دون جهدٍ أو تنميق.

كلّ ما يرتبط بها يجيء طريًّا، نقيًّا، منسجمًا مع الفطرة الأولى.

إنّها كريمةٌ كطبيعتها، جميلةٌ حتى في صمتها، سلسةٌ كالماء وإن عاندتها الأيام واشتدّت صلابتها.

وإن بدت في ظاهرها امرأةً نضجت على مهل، فإنّ في عمقها طفلةً ما تزال تحلم،

وفي أعماقي... رجلٌ لم يتوقف عن الحلم بها.

الفصل الثاني: بين اليقظة والغياب

أستيقظ كلّ صباحٍ على فراغٍ لا يُملأ.

لا يُنقذني من رتابة الصمت سوى صوت عقارب الساعة، تذكّرني بأنّ الوقت ما زال يمضي بي وإن كنتُ لا أتحرّك حقًا.

أجلس أمام فنجان قهوتي، أتأمّل بخارها الصاعد كأنّه أرواح أحلامٍ لم تكتمل، ثمّ أفتح الهاتف، لا بحثًا عن شيءٍ محدد، بل بحثًا عنها — عن أثرٍ خفيّ قد تركته سهواً في العدم.

كم مضى من الوقت منذ آخر تواصلٍ بيننا؟ لا أدري، فالزمن معها لم يعد يُقاس بالأيام، بل بالنبضات التي تمرّ دون صوتها.

أحيانًا أجد نفسي أكتب لها ما لا أرسله، أملأ الفراغ برسائل تبدأ ولا تنتهي، كأنّ الكتابة صارت شكلاً من أشكال الصلاة، أتقرّب بها من غيبٍ لا يجيب.

ثمّ أعود إلى عملي، إلى وجوهٍ لا أرى فيها ملامح الحياة، إلى أحاديثٍ تافهةٍ تُدار حول المال، والمكاسب، ومواسم السفر.

كلّها تبدو بعيدةً عنّي، وكأنّي أعيش بينهم ببدني فقط، فيما قلبي يقيم في مكانٍ آخر لا يعرفه سواها.

في بعض الليالي، أجد نفسي أعود إلى رسائلنا القديمة، أقرأها ببطءٍ كمن يتجوّل في بيتٍ مهجورٍ ما زال يحتفظ برائحة أصحابه.

كانت كلماتها بسيطة، لا تقول الكثير، لكنها تحمل صدقًا لا يُشبه أحدًا.

كانت تكتب كما تتنفس — دون تكلّف، دون سعيٍ للإبهار، فقط لتكون.

وربما لذلك علِقت بي، لأنّها لم تَسعَ لشيءٍ، فامتلكت كلّ شيء.

كثيرًا ما أسأل نفسي: أهو حبّ؟ أم حنينٌ لطفولةٍ ضاعت منها ومنّي؟

هل هي امرأةٌ من لحمٍ ودمٍ أم انعكاسٌ لجزءٍ مفقودٍ من ذاتي؟

لكنّي ما ألبث أن أترك السؤال يتبخّر، لأنّ الإجابة لا تهمّ.

كلّ ما أعلمه أنّ حضورها في قلبي لا يشبه أحدًا، وأنّ غيابها لا يُشبه أيّ غياب.

في المساء، حين يهدأ كلّ شيء، أفتح النافذة وأترك الهواء يعبث بأوراق مكتبي.

تتسلّل نسمةٌ باردة، فأغمض عينيّ، وأراها كما كانت: طفلةً بثوبٍ أبيض، تركض بين الحقول، تضحك، والشمس تلهو في شعرها.

أمدّ يدي إليها، فلا أصل، كأنّ بيني وبينها مسافةً من زمنٍ لا يُقاس.

ربما لم نكن يومًا لنتقابل كما ينبغي، وربما كُتب علينا أن نظلّ غريبين يلتقيان في الخيال، لكنّي أوقن بشيءٍ واحد:

أنّها لو لم تمرّ في حياتي، لما كنتُ أنا كما أنا الآن.

هي فصلٌ من عمري لم يُكتب له ختام،

وكلّما حاولت أن أُغلق صفحته،

وجدت نفسي أبدأ من جديد… من أول كلمةٍ فيها اسمها.

الفصل الثالث: حين كانت طفلة

ما زلت أذكر ذلك اليوم كما لو أنّه البارحة، رغم مرور السنين وتبدّل الوجوه والمواسم.

كان نهارًا صافيًا من أيّام الصيف الأولى، تسبح فيه الشمس على مهلٍ فوق أشجار الحديقة القديمة.

كنت هناك صدفةً، أزور أحد الأصدقاء، حين لمحْتها أول مرة تركض بين الممرّات الترابية، وثوبها الأبيض يتطاير خلفها كجناحٍ صغيرٍ لم يتعلّم بعد معنى السقوط.

لم تكن تعرفني، ولم أنتبه إليها إلا حين توقّفت فجأة، ونظرت نحوي بعينين واسعتين كأنّهما اكتشفتا العالم في تلك اللحظة.

كانت نظرتها مزيجًا من الفضول والدهشة، ثم ابتسامة خجولة سريعة، وكلمة عابرة لم أعد أذكرها — ربما كانت "عفوًا"، أو "مرحبًا" — لكنها ظلت تتردّد في ذاكرتي كلّما سمعت صوت الأطفال من بعيد.

في تلك اللحظة البسيطة، لم أكن أعلم أنّها ستصير ذات يومٍ علامةً فارقة في حياتي، ولا أنّ ابتسامتها العابرة ستتحوّل إلى مرساةٍ تربطني بأعماقٍ لا خلاص منها.

كانت طفلةً لا تدرك شيئًا من قوانين العالم، ولا من حساباته المعقّدة.

تحبّ أن تلمس الأشياء بيديها لتتأكد أنّها حقيقية، وتضحك إن خدعتها الألوان.

كانت تملأ المكان بخفّتها، كأنّها لا تنتمي إلى الأرض، بل إلى سماءٍ أرسلتها لحظةً لتذكّرنا بأنّ النقاء ممكن.

أتذكّر أنّها جلست قرب شجرةٍ عتيقة، تمسك بكتابٍ يفوق عمرها، تفتح صفحاته كمن يقرأ أسرارًا لا تخصّه، ثم تغلقه وتبتسم.

شيءٌ في هدوئها آنذاك جذبني إليها، هدوء لا يشبه صمت الأطفال، بل يشبه سكينة العارفين الذين مرّوا بالحياة قبل أوانهم.

لم نتحدث طويلًا، كان كلّ ما بيننا عباراتٍ عابرةً تركتها الأيام في ذاكرتي كأوراقٍ صغيرةٍ متناثرة، لا رابط بينها إلا حضورها.

لكنّ تلك الأوراق ظلّت حية، كلّما حاولت أن أنساها، نبتت من جديد.

حين كبرت، سمعت عنها من بعيد.

قالوا إنّها صارت فتاةً ناضجة، تحمل ملامح لا تشبه الطفلة التي كانتها إلا في عينيها.

لم أكن أبحث عنها، لكنّ اسمها كان يأتيني صدفةً في أحاديثٍ لا تعنيني، فأصمت كمن يسمع لحنًا مألوفًا لا يريد أن يشارك أحدًا فيه.

لم أكن أدرك أنّ قلبي احتفظ بها، لا كذكرى، بل كجزءٍ أصيلٍ من تكوينه.

لقد مضت طفلةً بين الحقول، وتركت في داخلي بذرةً لم تكفّ عن النمو،

بذرةً من الضوء والدهشة،

وكأنّ الله أراد أن يزرعها في قلبي لتبقى شاهدةً على أن شيئًا من الجمال يمكن أن ينجو من فساد الزمن.

الفصل الرابع: اللقاء الثاني

لم أكن أبحث عنها حقًّا، ولا كنت أتوقّع أن ألقاها بعد كلّ هذه الأعوام.

كنت قد أقنعت نفسي بأنّها جزءٌ من ماضٍ جميلٍ لا يعود، وأنّ ما تبقّى منها ليس سوى ظلّ ذكرى طيّبةٍ في زاويةٍ بعيدةٍ من القلب.

لكنّ القدر لا يسألنا إن كنّا مستعدّين، ولا يستأذن حين يفتح بابًا أغلقناه منذ زمنٍ ظننّاه نهائيًّا.

كان ذلك في أمسيةٍ خريفيةٍ ساكنة، من تلك الأمسيات التي تتهادى فيها الشمس نحو المغيب ببطءٍ رائقٍ كأنّها تستعدّ للرحيل بكرامةٍ وصمت.

كنت أحضر ندوةً أدبيةً في المدينة القديمة، أستمع إلى كلماتٍ تتحدّث عن الذاكرة والطفولة، حين انفتح الباب في آخر القاعة، ودخلت هي.

لم أحتج سوى لحظةٍ واحدةٍ لأعرفها، رغم أنّ ملامحها تغيّرت كثيرًا.

كانت أكثر نضجًا، أكثر هدوءًا، لكنّ عينيها... عينيها ظلّتا كما كانتا: صافيتين كسماءٍ بعد المطر، تنطقان بما لا يُقال.

ذلك الصفاء هو الذي أفزعني، لأنّه أزال عني كلّ سنوات الغياب دفعةً واحدة، كأنّ الزمن لم يمضِ بيننا.

جلست في الصفوف الخلفية، متردّدًا بين رغبة اللقاء وخوفه.

كنت أرقبها بصمتٍ يشبه التأمل العميق، أتابع حركاتها الصغيرة، كيف تزيح خصلةً من شعرها، كيف تمسك بالقلم، كيف تبتسم إذا أعجبها ما تسمع.

وكلّ تلك التفاصيل البسيطة كانت كافية لتعيدني إلى الحديقة القديمة، إلى الطفلة بثوبها الأبيض، تضحك وتعدو بلا خوفٍ من الغد.

انتهت الندوة، وبدأ الناس يتفرّقون.

نهضتُ دون وعيٍ، وسرت نحوها.

لم أنتبه إلى ما قلت أول الأمر، ولا إلى ما أجابت به، لكنّي أذكر أنّ صوتها كان يشبه ما كنت أسمعه في خيالي: هادئًا، عميقًا، يحمل شيئًا من الحزن وكثيرًا من الحكمة.

تحدّثنا قليلًا.

كلماتٌ عادية في ظاهرها، ثقيلةٌ في وقعها عليّ.

عن السنوات، وعن العمل، وعن الحياة التي جرّتنا في طرقٍ لم نخترها.

كانت تبتسم في مواضعٍ تستحقّ البكاء، وتُنزِل صمتًا في المواضع التي ينتظر فيها الناسُ ضحكةً عابرة.

ذلك الصمت هو ما أسرني، لأنّه كان يُخفي ما لا تستطيع الكلمات حمله.

حين افترقنا في آخر اللقاء، قالت ببساطةٍ:

"سُررت بلقائك بعد كلّ هذا الغياب، كأنّ الزمن دار دورةً كاملة ليعيدنا إلى نقطة البداية."

ثم ابتسمت تلك الابتسامة القديمة نفسها — الصغيرة، الخجولة، التي لا تُشبه ابتسامات النساء بل براءة الأطفال.

مشيت بعدها في الشوارع الطويلة دون أن أرى شيئًا.

كنت أشعر أنّني خرجت من زمنٍ إلى زمن، وأنّ شيئًا ما استيقظ في داخلي بعد سباتٍ طويل.

لم تكن مجرّد امرأةٍ قابلتها صدفة، كانت مرآةً رأيت فيها نفسي الأولى، نفسي التي فقدتها بين الانشغالات والخيبات.

تلك الليلة لم أنم.

بقيتُ أستعيد ملامحها كما يستعيد المرء لحنًا قديمًا يعرف أنّه لم يكتمل بعد.

كنت أعلم أنّ اللقاء لم يكن آخر الحكاية، بل بدايتها الحقيقية.

الفصل الخامس: بين الحنين واليقين

منذ ذلك اللقاء، لم يعد العالم كما كان.

كأنّ حضورها أعاد ترتيب فوضاي الداخلية، فصار الليل أقلَّ سوادًا، والصمت أقلَّ قسوة.

كنت أستيقظ على يقينٍ غامضٍ بأنّها بخير، وأغفو على صوتٍ داخليٍّ يهمس باسمها كما لو كان طقسًا قديمًا لاستحضار الطمأنينة.

بدأنا نتحدّث، على استحياءٍ أول الأمر، ثمّ بتدرّجٍ يشبه انفتاح الزهر على ضوء الصباح.

كلماتٌ قصيرة، متقطّعة، لكنها كانت تنفذ إلى مواضع لم تصلها ضوضاء العالم من قبل.

كانت تعرف كيف تُنصت، لا لتُجيب، بل لتفهم، وأنا كنت أكتب لا لأُقنعها بشيء، بل لأتخلّص من فائض شعورٍ لم يجد ملاذًا سواها.

في كلّ حديثٍ معها كنت أشعر أنّ شيئًا في داخلي يشفى دون أن أعرف ما هو.

لم تكن تُسأل عن التفاصيل، لكنها كانت تعرفها على نحوٍ مدهش، كأنّ بيننا لغةً لم نبتكرها نحن، بل خُلقت معنا منذ البدء.

ولم يكن حضورها مبهجًا بالمعنى السطحي، بل مطمئنًا، يسكب في الروح سكينةً عميقة، ويذكّرني بأنّ بعض القلوب لا تأتي لتُربكنا بل لتُعيد ترتيبنا من جديد.

غير أنّي كنت أخاف من هذا الارتباط الصامت الذي يتغذّى على البُعد.

كنت أعلم أنّ الخط الفاصل بين الحنين والوهم رفيع، وأنّ قلبي لم يعد يحتمل خيبةً أخرى.

كلّ الأسباب التي قد تجمعنا كانت تبتعد يومًا بعد يوم، وكلّ الطرق التي تؤدّي إليها كانت تزداد وعورة.

ومع ذلك، لم أستطع أن أقطعها من داخلي.

كأنّها جذورٌ نمت في أعماقي دون إذني، فامتدت في صمتٍ لا يُرى.

في لحظاتٍ كثيرة كنت أحاول أن أقسو على نفسي، أن أُقنعها بأنّ هذه العلاقة لا تملك ملامح الواقع، لكنّ الرسائل كانت تصل دائمًا في اللحظة التي تضعف فيها حجّتي.

كأنّها تعرف متى أتراجع لتشدّني، ومتى أقترب لتُعيدني خطوةً إلى الوراء، حفاظًا على المسافة التي تحمي كِلينا من الغرق.

كنت أقرأ كلماتها كما يُقرأ نَفَسُ الحياة، أُصغي إلى ما بين السطور أكثر ممّا أُصغي إلى معناها.

أحيانًا أجد نفسي أبحث عن اسمي مختبئًا بين حروفٍ عاديةٍ، وأحيانًا أسمع في نبرتها خوفًا مكتومًا من شيءٍ لم يُسمَّ بعد.

وفي كلّ مرةٍ أحاول الابتعاد، يحدث شيءٌ يعيدها إليّ:

صورةٌ قديمة، أغنيةٌ من زمنٍ بعيد، أو حتى صدفةُ رقمٍ يشبه تاريخًا جمعنا.

كأنّ الكون بأكمله يتواطأ على بقائها في مساري، يذكّرني أنّ الفراق قرارٌ لا يملكه من تعلّم أن يرى بعينيها.

ورغم كلّ ما في الأمر من استحالة، لم أندم.

بل كنت أشكر الله على أنّه ترك لي نافذةً كهذه أطلّ منها على ما تبقّى من نقاء قلبي.

كانت بالنسبة لي المعنى المتروك في آخر السطر، الجزء الذي لا يُقال لأنه أصدق من أن يُختصر بالكلام.

الفصل السادس: بين الطفلة والمرأة

لم أكن أتوقّع أن أراه من جديد.

بل لم أكن أظنّ أنّ شيئًا من ماضيّ يمكن أن يعود بعد أن دفنته بيديّ خوفًا لا نسيانًا.

لكنّ القدر له طريقته الغامضة في استحضار الوجوه القديمة، تمامًا كما تستعيد الريح رائحة المطر الأولى حين تمرّ على أرضٍ عطشى.

حين رأيته في الندوة، لم أعرف أأفرح أم أهرب.

كلّ ما تذكّرته في تلك اللحظة هو الطفلة التي كنتها، تقف أمامه بعينين تملؤهما الدهشة والثقة.

كان الزمن آنذاك بسيطًا، والقلوب أنقى من أن تعرف الخذلان.

أما الآن، فكلّ شيء تغيّر... إلا النظرة.

نظرةٌ واحدة منه كانت كافية لتعيدني إلى تلك السنوات البعيدة، إلى نفسي قبل أن تعرف الخيبة.

في غيابه، عرفت وجهًا آخر للحياة.

كنت أظنّ أنّني كبرت حين دخلت الجامعة، وأنّ التجارب ستمنحني نضجًا وحرية، لكنّي لم أكن أعلم أنّ الحرية حين لا يصحبها وعي، تصبح طريقًا نحو الضياع.

هناك، التقيت بشابٍ ظننتُه مختلفًا.

كان يعرف كيف يتحدّث، وكيف يزرع حضوره في المسافات الفارغة من يومي.

قاومت طويلاً، ثم استسلمت، ظنًّا منّي أنّ الاستسلام للحبّ ضعفٌ جميل، لا كسرٌ مبطّن بالخذلان.

أحببتُه بصدقٍ لم يعرف هو كيف يقدّره، وكنت أراه كما يرى العطشانُ الماء، حتى حين بدأ الماء يتبخّر من بين يديّ.

وحين رحل، لم يأخذ منّي شيئًا سوى قلبي، وترك وراءه خوفًا يسكنني حتى الآن.

منذ تلك اللحظة، صرت أخشى أن أفتح بابًا جديدًا للحبّ، لأنّي أعرف أنّ بعض الأبواب لا تُغلق بعد فتحها.

ثم عاد هو...

عاد بهدوءٍ يشبه البداية القديمة، كأنّ الزمن لم يُصبنا بخدوشه.

لكنّني لست تلك الطفلة التي كانت تضحك بلا خوف، أنا امرأةٌ تعلمت أن تقرأ النوايا، أن تخاف من الطمأنينة الزائدة، أن تتفحّص الكلمات قبل أن تصدّقها.

ورغم ذلك، كنت أرتبك كلّما تحدّث إليّ.

في صوته دفءٌ مألوف، وفي حضوره سكينةٌ لم أعرفها منذ أعوام.

كأنّ شيئًا في داخلي يريد أن يصدّق أنّ الطفلة يمكن أن تعود، وأنّ الجرح يمكن أن يُشفى بصوتٍ قديمٍ نسيته الذاكرة وتذكّرته الروح.

لكنّ قلبي منقسم بين امرأتين:

إحداهما تخاف، والأخرى تشتاق.

إحداهما تؤمن بالعقل، والأخرى تتذكّر الحلم.

وكلّ ليلةٍ، أسمع بينهما حوارًا صامتًا لا ينتهي.

أحيانًا أقول لنفسي إنّ عودته مجرّد مصادفةٍ عابرة، وأنّ الماضي لا يعود إلا في الخيال، ثمّ أفاجأ بأنّ وجوده يربكني أكثر ممّا يطمئنني.

أخاف أن أقترب، فأفقد نفسي مرةً أخرى.

وأخاف أن أبتعد، فأندم لأنّي لم أجرّب الشفاء على يده.

لا أدري أهو امتحانٌ جديدٌ من الله، أم فرصةٌ مؤجّلة للنجاة؟

كلّ ما أعلمه أنّ حضوره يفتح نافذةً صغيرةً في صدري يدخل منها الضوء، وإن كان الضوء مؤلمًا أحيانًا لمن اعتاد العتمة.

الفصل السابع: رسائل بين الحذر والحنين

لم يمضِ يومان منذ لقائنا، ومع ذلك شعرت بأنّ المسافة بيننا قد تقلّصت أكثر مما تتصور أي ساعة أو أي لقاء عابر.

قررتُ أن أرسل لها رسالة، صغيرة، بسيطة، لا تحمل أكثر من تحية، لكنّ قلبي ارتجف وأنا أضغط على زر الإرسال، كأنّي أخاطب الزمن نفسه، لا هاتفًا.

وصلت الرسالة سريعًا، وكان ردّها على غير المتوقع:

"لم أتوقّع منك هذه الرسالة... لكنها جاءت كنسمة صيفٍ لم أعرف أنّني أفتقدها."

ابتسمتُ أمام الشاشة، رغم أنّ قلبي ما زال متحفّظًا.

في كل كلمةٍ، شعرت ببوادر حذرها، لكنها لم تُخفي حرارةً دقيقةً تتسلّل من بين السطور، كأنّها طفلة ما زالت تعرف كيف تفرح رغم الألم.

كتبنا لبعضنا بضعة أسطرٍ هنا وهناك، كل واحدة منهما تشبه خطوةً على جسرٍ رقيقٍ بين خوفها وخوفي.

كنتُ أحرص على ألا أستعجل، على ألا أضغط على قلبها، لكنها، بطريقةٍ ما، كانت تعرف أنّي أعلم ما يختبئ بين كلماتها.

وفي كل مرةٍ أردّ عليها، كنت أشعر أنّي أقرأ شيئًا أكثر من الحروف، شيئًا مسكوتًا، روحها التي لم تمت بعد رغم الجروح.

حين أخبرتني عن الشاب الذي جرّحها، شعرت بثقلٍ في صدري.

لكنّني لم أتفاجأ، فقد كنت أعلم منذ البداية أنّ جزءًا من هذه المرأة يحمل خوفًا من الحبّ، وأنّ صمتها عن بعض الأشياء ليس برغبة منها في الإخفاء، بل دفاعٌ عن نفسها.

"لم أعد أؤمن بسهولة بالحبّ..." كتبت لي،

"كلّ محاولة كانت تحمل وعدًا، وكل وعدٍ انتهى بخيبة، حتى صرت أخشاه قبل أن أستشعره."

قرأت كلماتها مرارًا، ووجدت نفسي أكتب في جوابي بهدوءٍ أقرب إلى اعترافٍ:

"أعلم أنّك جُرحتِ... وأعلم أنّي لستُ سببًا في جراحك السابقة، لكنّي أعدك بأنّي لن أكون سببًا جديدًا، إن شئت أن تمنحيني فرصة."

كان هناك صمتٌ بعد رسالتي، لكنّه لم يكن صمتًا عدائيًا، بل صمت تفكيرٍ، صمت عقلٍ يحاول أن يوازن بين خوف وحنين.

بعد ساعات قليلة، جاءت رسالتها:

"لا أستطيع أن أعدك بأي شيء... لكنّ وجودك يذكرني بأنّ الطفلة في داخلي لم تمت بعد. وربما هذا كل ما أحتاجه الآن."

ابتسمتُ، وأحسست أنّ قلبها فتح نافذة صغيرة، رغم كل الجروح.

لم يكن وعدًا بالحبّ، ولم يكن نهاية لأي خوف، لكنه كان بدايةً.

بداية حوارٍ بين من عرف الحبّ مرةً وخشيه، وبين من لم يعرف سوى الانتظار والوفاء الصامت، بين قلبين يجمعهما الماضي والطفولة والجرح.

في تلك الرسائل، بدأت أرى الطريق الحقيقي لنا: ليس طريقًا سهلًا، لكنه طريق يستحقّ المشي، خطوةً بعد خطوة، حرفًا بعد حرف.

الفصل الثامن: اللقاء الحقيقي

جلستُ أمام المقهى القديم، أراقب الزقاق الضيق الممتد بين الأشجار، وأعدّ نفسي لكل شيء: للدهشة، للحذر، وحتى للخيبة المحتملة.

كانت الساعة بعد الظهر، والضوء يصنع أشكالًا متحركة على الطاولة أمامي، كأنّه يحاول أن يخفف من توتري.

ثم دخلت.

لم أستطع أن أصف شعوري، فهي لم تتغير في الجوهر، رغم أنّ الزمن رسم خطوطًا ناعمة على وجهها، وزاد من نضج عينيها عمقًا.

كان المشهد أقوى من كل الرسائل، من كل الذكريات.

وقفنا متقابلين لبرهة، بلا كلمة، كأنّ العالم توقّف لحظة واحدة، ينتظر أن نخطو نحن.

كانت ابتسامتها صغيرة، حذرة، تختبئ خلف عينيها الحذرتين، كما لو أنّها تحاول أن تزن كل خطوة قبل أن تقدمها.

قلت لها السلام، وكان صوتي يبدو غريبًا في أذني، لكنه على ما يبدو عاد طبيعيًا حين ابتسمت ابتسامةً خجولةً، تذكرني بالطفلة التي كانت تجرّب العالم بعينين صافية.

جلسنا، وحاولنا البدء بكلمات بسيطة، عن اليوم، عن المكان، عن الحياة اليومية.

لكنّ كل عبارة كانت ثقيلة على النفس، مليئة بالمعاني المخفية، بالتجارب السابقة، بالجرح الذي لم يلتئم بعد.

قالت، بعد صمتٍ طويل:

"كنت أخشى أن أرى فيك شيئًا غير الذي أعرفه… لكنك لم تتغير… أو ربما أنا لم أتغير كما كنت أظن."

ضحكتُ قليلًا، رغم أنّ قلبي كان يخفق بعنف.

"ربما كلانا تغير، وربما كلانا بقي كما كان… في أعماقه."

تحدثنا عن الماضي، عن رسائلنا، عن كل لحظة صمت بين الكلمات، وعن جراحها التي لم تكن تعرف كيف تشاركني إياها في البداية.

أخبرتني عن الشاب الذي جرحها، عن الخيبة التي علّمتها أن تخاف الحب قبل أن تفتحه، عن حذرها الذي أصبح جزءًا من كل قرار تتخذه الآن.

استمعت إليها بصمت، أحاول أن أقرأ ما بين السطور، أن أفهم خوفها قبل أن أتقدم خطوة واحدة نحو قلبها.

وكانت كل مرة تنظر إليّ فيها، أرى مزيجًا من الطفلة والمرأة: طفلة تريد الأمان، وامرأة تعرف أن الحذر هو الحصن الوحيد ضد الخذلان.

لم نكن نعرف ماذا نفعل من أنفسنا، لكننا كنا نعلم أنّ مجرد الجلوس معًا، والتبادل الصامت للنظرات، وإعادة اكتشاف وجود الآخر، كان أكثر من كافٍ.

وفي نهاية اللقاء، وهي تنهض لتغادر، قالت بصوتٍ منخفض، لكنه صادق:

"لا أعلم ماذا سيأتي بعد... لكنّ اللقاء اليوم أعاد شيئًا إلى قلبي... شيئًا كنت أعتقد أنّه مات."

ابتسمتُ، وشعرت أنّ الطريق قد بدأ يفتح أمامنا، خطوةً بعد خطوة، حرفًا بعد حرف، لقاءً بعد لقاء.

لم يكن الحب بعد حاضرًا، ولم يكن الألم غائبًا، لكنه كان مسارًا حيًا يمكن أن نمشيه معًا، ببطء، بحذر، وبحنين.

الفصل التاسع: قلب مضطرب

بعد اللقاء، صرتُ أسمع صدى حضوره في نفسي، حتى حين لم يكن موجودًا، كأنّ هناك رنينًا خفيًا يذكّرني بأنّ شيئًا قد تغيّر.

جلست في غرفتي، أنظر إلى النافذة، أراقب الغيوم تمرّ ببطء، وأحاول أن أفهم ما أشعر به، وما يطرأ فجأة على قلبي من اضطرابٍ لم أعرفه منذ زمن.

كنت أخاف.

أخاف من أن أصدق أنّ الحنين يمكن أن يتحوّل إلى شيء أكثر، وأخاف من أن أسمح لقلبٍ لم يشفى بعد أن يفتح بابًا جديدًا للألم.

كلّ جرحٍ سابق بقي ساكنًا في زاويةٍ من روحي، وكلّ تجربة مؤلمة علّمتني أن لا أثق بسهولة، أن أحتفظ بعواطفي لنفسي، أن أراقب وأن أقيس قبل أن أقدّم أي خطوة.

لكن شيئًا بدا يتحرك بداخلي، شيء لم أستطع تفسيره بالكلمات أو التحكّم فيه بالعقل.

حين أقرأ رسالته أو أتذكّر صوته، أشعر بدفءٍ لم أعد أعتقد أنّه ممكن، وأحيانًا يتسلّل خوفٌ غامض: هل سأُصاب مرة أخرى؟ هل سأجد نفسي أمام خيبة جديدة؟

كنت أحاول أن أفصل بين الطفلة التي ما زالت بداخلي والمرأة التي صارت أقوى وأكثر حذرًا.

الطفلة تريد أن تضحك، أن تثق، أن تجرّب الشعور الذي فقدته،

والمرأة تقول: توقفِ، تذكّري كل شيء، احمي قلبك، لا تسمحي لأي أحد أن يجرحه مجددًا.

وفي هذه اللحظات، شعرت لأول مرة أنّ الاثنين يمكن أن يلتقيا:

الطفلة تعود لتعرف أنّ هناك شيئًا صالحًا في هذا العالم،

والمرأة تتعلّم أنّ الحذر لا يعني أن تمنعي نفسك من الشعور.

كنت أكتب لنفسي في دفترٍ صغير:

"لماذا أشعر بهذه الدفعة الغريبة؟ لماذا يزعجني قلبي ويطمئنني في الوقت نفسه؟"

كلّ يوم، كنت أكتشف شيئًا جديدًا: ضحكةً، صمتًا، كلمةً بسيطة، حضورًا لم يجرّحني بعد.

وكانت تلك الاكتشافات تشبه فتح نافذة في غرفة مظلمة: ضوء ضعيف يدخل، لكنه يكفي ليبيّن الطريق، وليذكّرني بأنّ هناك ما يستحق المخاطرة مرة أخرى.

أدركت أنّ الطريق أمامي ليس سهلاً، وأنّ الخوف لن يختفي بين ليلةٍ وضحاها.

لكنّي شعرت أنّ شيئًا في داخلي بدأ يتحرّك، شيئًا يريد أن يفهم، يريد أن يجرّب، يريد أن يثق ولو خطوةً صغيرة.

وأنّي، رغم كل التحفظات، لم أعد أريد أن أختبئ عن هذا الشعور، عن هذا الرجاء البسيط الذي يطرق باب قلبي.

الفصل العاشر: صديق، مفاجأة، وبيت على الطريق

خرجت من المقهى الصغيرة في شارع هادئ على أطراف المدينة، لا أعلم لماذا اخترت هذا المكان بالتحديد، ربما لأنني كنت بحاجة إلى صمتٍ بعيد عن الزحام، أو لأنني أردت أن أضع نفسي في موقف أقرب إلى الواقعية بعد كل رسائل الحنين والخوف.

انتظرت صديقي المقرب عند مدخل المقهى، رجلٌ أعرفه منذ سنوات، صديق الطفولة تقريبًا، الذي كان يعرف عني أكثر مما كنت أعلمه عن نفسي أحيانًا.

كان موعدنا غير رسمي، مجرد حديثٍ عن أي شيء، لكن في داخلي شعورٌ بأنني سأفتح له سرًّا لم أجرؤ على مشاركته مع أحد منذ سنوات.

جلسنا على الطاولة، طلبنا القهوة، وبدأت أحكي له، عن اللقاء، عن الرسائل، عن كل شيء لم أستطع أن أقوله بصوتٍ عالٍ لأي أحد آخر.

استمع إليّ صديقي بصمتٍ، بعينين تنبضان بالفضول والحذر معًا، وكأنّه يزن كل كلمة قبل أن يتدخل.

ثم قال بابتسامة هادئة:

"يبدو أنّك أمام اختبارٍ حقيقي... وأمام قلبٍ لم يذق الطمأنينة منذ زمن."

ضحكتُ قليلًا، لكن في صدري موجة من التوتر، وكأنّ الحديث معه جعل كل شيء أكثر واقعية، أكثر قربًا من القلب.

قررنا أن نمشي قليلًا بعد القهوة، إلى استراحة صغيرة على الطريق. كانت استراحة خشبية قديمة، دائمًا ما يذهب إليها صديقي، مكانه المفضل للكتابة أو لمجرد الصمت.

وبينما نسير، انحرفت بنا خطواتنا قليلًا، حتى وجدنا أنفسنا أمام منزل كبير يطل مباشرة على الطريق.

توقفت للحظة، ورفعت نظري، شعور غريب اجتاحني.

كان البيت مألوفًا... جدًا.

عرفه صديقي أيضًا، لكنه لم يتذكّره إلا حين توقّفنا أمامه.

صمتنا دقيقة، كلّانا ينظر إلى ذلك المنزل، وكنت أعرف في أعماق قلبي أنّه بيتها.

قال صديقي وهو يبتسم بابتسامة خفيفة:

"أنت تعرف هذا المكان جيدًا... أليس كذلك؟"

أومأت برأسٍ ضعيف، لا أستطيع نطق شيء.

كان البيت أمامي، المنزل الذي لم أره إلا مرة واحدة، لكنه محفور في ذاكرتي منذ طفولتها.

الواقعية صدمتني، فالمكان الذي اعتقدت أنّه بعيد، موجود هنا، أمامي مباشرة.

كنت أعلم أنّ هذا الاكتشاف سيغير شيئًا ما في داخلي، وأنّه سيجعل فكرة الاقتراب منها أكثر وضوحًا، وأكثر صعوبةً في الوقت ذاته.

جلسنا على مقعد الاستراحة، صديقي يتحدث عن أمور عادية، لكنّ عينيّ كانت لا تفارق البيت.

حركة خفيفة في إحدى النوافذ، شكل ظلّ، أي تفصيل صغير كان يملأ قلبي باضطرابٍ لا أستطيع تفسيره.

صديقي لاحظ توتري، قال:

"يبدو أنّك على بعد خطوة من مواجهة كل شيء... ألا تخاف؟"

ابتسمتُ بخفة، وقلت:

"أخاف... لكن شيئًا داخلي يقول إنّ الوقت قد حان لأعرف، لأرى، لأتأكد مما لم أفهمه منذ الطفولة."

وبينما كنا نغادر الاستراحة، شعرت أنّ كل خطوة تقربني من قرارٍ ربما سيغيّر كل شيء: قرار مواجهة الماضي، مواجهة الحنين، وربما مواجهة الحب، مع كل الخوف الذي يحمله.

الفصل الحادي عشر: مفاجأة أمام البيت

أنهينا جلستنا مع صديقي، وسرنا في طريق العودة إلى السيارة، لا يزال التوتر يملأ صدري.

لم أستطع أن أغلق عيني عن البيت الذي وقفنا أمامه، كل نافذة، كل ظل، كل تفاصيله كانت تعيدني إلى طفولتها، إلى الطفلة التي لم تغادر قلبي أبدًا.

ثم حدثت المفاجأة.

توقفت سيارة أجرة صغيرة أمام المنزل، ونزلت فتاة في العشرين تقريبًا، ترتدي حقيبة على كتفها، وتحمل في عينيها هدوءًا خفيفًا يشبه ما أعرفه عنها.

تحركت نحو الباب الرئيسي للبيت، صعدت السلم، ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير:

"ربما هي... صديقتها المقربة... ربما هي حقًا."

صديقي لاحظ تعجبي، وقال بصوت منخفض:

"هل تعرفها؟"

أومأت برأسٍ خفيف، بينما قلبي يدقّ بعنف.

قررنا الانتظار قليلاً، نحاول أن نفهم دون أن نزعج، دون أن نكشف عن حضورنا.

جلست على مقعد الاستراحة الخشبية، وأخرجت قلمي ودفتر ملاحظاتي، محاولةً أن أهدئ نفسي، لكن كل حركة لها كانت تشعل داخلي شعورًا لم أعرفه منذ زمن طويل.

كانت تتحدث، تضحك قليلاً، ثم تتوقف، وكأنّ كل كلمة تحتاج وزنها قبل أن تخرج.

رأيتها تدخل المنزل، برفقتها الفتاة التي عرفتها من قبل، صديقتها المقربة.

ابتسمت الأخيرة، وكأنها تعرف السرّ الذي يختبئ بين قلبينا منذ الطفولة، ثم بدأت تتحدث:

"كنت خائفة... خائفة جدًا من أن أفتح قلبي مرة أخرى... من أن أستسلم لمشاعرٍ قد تؤذيني... لكن وجوده... وجوده أمامي يربكني أكثر مما توقعت."

أغمضت عينيها للحظة، تنفسّت ببطء، ثم تابعت:

"أحيانًا أشعر أنّ الطفلة التي كنتها ما زالت بداخلي، تريد أن تثق، تريد أن تحب... لكن المرأة التي صارت، تعلم أن كل خطوة خاطئة قد تعيد الجرح القديم."

صديقتها أمسكت يدها برفق، وقالت:

"لا أحد يستطيع الحكم عليك، كل ما تشعرين به طبيعي... لكنك تعرفين أنّ هناك من يستحق أن يسمعك، أن يعرفك كما أنتِ الآن."

ابتسمت الطفلة المختبئة في داخلها، بينما المرأة كانت تراقب كل كلمة، كل حركة، بحذرٍ وحرصٍ شديد.

كان لحظتها شيءٌ ما يتحرك في أعماقها، شيء يقول لها:

"ربما يمكن أن تثقي مرة أخرى... ربما يمكن أن تجرّبي."

وهي تعبر عن خوفها، شعرت أن داخليتها بدأت تنفتح شيئًا فشيئًا، كما لو أنّ مفاتيح قديمة كانت محمية بعناية بدأت تُفتح واحدة تلو الأخرى.

عند حافة اللقاء

كانت لحظةً خاطفة، تلك التي جمعت بين نظرتين لم تلتقيا بعد.

هو يجلس في الاستراحة المواجهة للبيت، عيناه شاردتان نحو الطريق الممتدّ لا نحو النوافذ، كأنّ القدر أراد أن يختبر صبرها لا حنينه.

أما هي، فقد توقفت عند باب المنزل تحمل بيدها بضع أوراقٍ وملامحَ متوترة. رفعت رأسها مصادفة، فرأته. لم تكن متأكدة أهو هو فعلاً أم أن الذاكرة تعبث بها، غير أنّ قلبها سبقه في الإجابة قبل أن تتمّ السؤال.

ارتبكت، وخطت خطواتٍ متعثّرة نحو الباب، أخرجت المفاتيح بارتجافٍ خفيف، وفتحت الباب كمن يهرب من انكشافٍ مباغت. دخلت مسرعة، تسند ظهرها إلى الحائط الداخلي وتتنفس باضطرابٍ واضح.

لم تمضِ لحظات حتى لحقت بها صديقتها المقربة، وقد قرأت في وجهها كل الحكاية دون أن تنطق كلمة. قالت بصوتٍ هادئ:

"هل رأيته؟"

أومأت برأسها في صمتٍ حائر، فقالت صديقتها وهي تمسك بيديها:

"اسمعي... لا تتركي الخوف يقودك. اخرجي وانظري إليه مرةً أخرى، فإن رآك وطلب لقاءك فانزلي، وإن لم يرك، فانتظري قليلاً حتى يهدأ قلبك ثم عودي."

ترددت لحظات، ثم تمتمت بصوتٍ خافت:

"لا أدري إن كنت أستطيع... لم أعد كما كنت، شيءٌ ما فيّ انكسر."

ابتسمت صديقتها وقالت بحنوٍ يشبه حكمة الأمهات:

"وكلّ ما ينكسر، يمكن أن يُرمَّم حين يحين أوانه. اخرجي، ولا تفكّري في شيء."

جمعت ما تبقى من شجاعتها، واتجهت إلى النافذة بخطى مترددة.
ألقت نظرةً خفيفة... لكنه كان قد نهض بالفعل، ودخل سيارته، وانطلقت عجلاتها نحو الطريق البعيد.
وقفت تتابع غيابه بعينين دامعتين لا تعرفان هل تبكيان الفقد أم ترتاحان للنجاة من المواجهة.

في الجهة الأخرى، كان صديقه ينظر إليه من المقعد المجاور، يتأمله طويلاً قبل أن يقول:

"ما بك؟ وجهك شاحب كأنك رأيت شبحًا من الماضي."

لم يجبه أول الأمر، بل اكتفى بنظرةٍ ضائعة في المدى، ثم قال ببطء:

"ربما... أو شيئًا يشبهه كثيرًا."

انطلقت السيارة في طريق العودة، وصوت المحرك يغطي على الصمت الذي سكنهما.
وبعد مسافةٍ قصيرة، قال صديقه فجأة بنبرةٍ غير متوقعة:

"هل ما زلت تفكر بتلك الزميلة في العمل؟ تلك التي كنت تتحدث عنها قبل عامٍ تقريبًا؟"

التفت إليه ببطء، وكأن السؤال أعاده إلى زمنٍ آخر لم يُغلق بابه بعد.

ابتسم ابتسامةً باهتة، وقال:

"تظن أنني أفكر بها؟ ربما كنتُ أظن ذلك أيضًا، حتى اليوم..."

تبادل الاثنان نظراتٍ صامتة، قبل أن يُكمل صديقه الحديث بنبرةٍ فيها دهشة واستفهام معًا، فيما كانت المدينة من حولهما تبتعد شيئًا فشيئًا، كما لو كانت تحاول أن تُبعد عنهما الحقيقة التي بدأت تتكشف ببطء.

الفصل الثاني عشر: صدى الماضي

كانت الطريق تمتد أمامهما كخيطٍ رمادي طويل، يلتفّ حول الهضاب ويغيب بين الأشجار.

الضوء الخافت من مصابيح السيارة يلامس وجهه المتعب، فيما يراقب صديقه ملامحه في صمتٍ حتى نطق أخيرًا:

"هل ما زلت تراها في أحلامك؟ تلك الزميلة التي شغلتك يومًا؟"

ابتسم بفتورٍ كأنّ الذكرى فقدت قدرتها على الإيلام، وقال:

"لم تعد تزورني لا في الحلم ولا في الذاكرة. كل ما كان بيننا انتهى بهدوءٍ يشبه صمت المكاتب بعد انتهاء الدوام... بلا صراخ، بلا أثر."

سكت قليلًا، ثم أضاف بصوتٍ أكثر عمقًا:

"كانت علاقة منطقية... تشبه المعادلات التي تُحلّ على الورق، فيها توافق، واحترام، وحتى إعجاب، لكنها خالية من ذلك التيار الخفي الذي يجعل الحياة تنبض. كنت أظن أن هذا كافٍ، أن الحب يمكن أن يولد بالاعتياد، لكنّي اكتشفت أنه إن لم يُولد من دهشة، فلن يولد أبدًا."

تأمل صديقه الطريق أمامهما، وقال متسائلًا:

"وهل تلك التي رأيتها اليوم هي الدهشة؟"

أدار وجهه نحو النافذة، وأجاب وكأنه يخاطب نفسه:

"هي الدهشة، والسكينة، والقلق معًا. لا أعرف كيف أصفها، لكنها تشبه الجزء المنسيّ من روحي... ذاك الذي ظننت أنّه مات منذ زمن."

ثم صمت، وأكمل بعد لحظات:

"ربما كنتُ أبحث عنها دون أن أدري. في كل امرأة مرّت في حياتي كنت أبحث عن ظلّها، عن شيءٍ يشبه ضحكتها، أو طريقة التفافها حول الأشياء الصغيرة. لكن لا أحد يشبهها... حتى عندما كبرت، ظلّت في ذاكرتي بنفس ملامح الطفلة، كأن الزمن دار حولها ولم يقترب منها."

ابتسم صديقه وقال:

"تبدو وكأنك لا تريد أن تتجاوزها، وكأنك متمسك بصورةٍ خيالية منها، لا بالواقع الذي صارت إليه."

أجابه بهدوءٍ يشبه الاعتراف:

"ربما... لكن ألا تعتقد أن في بعض الخيالات حياةً أكثر من الواقع؟ إنّ صورتها تلك لم تكن حلمًا، كانت وعدًا مؤجّلًا بيني وبين نفسي، وعدًا بالبراءة الأولى قبل أن تفسدنا التجارب."

ساد الصمت مجددًا، ولم يبقَ في السيارة سوى صوت المحرك، وهمسات الطريق.

ثم قال صديقه بنبرةٍ جادة:

"وماذا لو التقَيتم فعلاً؟ أكنت ستقترب؟ أكنت تجرؤ أن تفتح هذا الباب بعد كل ما مررت به؟"

تنهّد طويلًا، ثم أجاب:

"لا أدري... ربما كنت سأهرب كما فعلت اليوم. أحيانًا نخاف من الأشياء التي تمنّيناها طويلًا، لأننا ندرك أنها قادرة على تغيير كل شيء."

كان كلامه يطفو بينهما كاعترافٍ متأخر، وكأن السيارة لم تعد تسير على طريقٍ عادي، بل على حافة ذاكرةٍ ممتدة بين ماضٍ لم يُغلق ومستقبلٍ لم يُكتب بعد.

وفي الطرف الآخر من المدينة، كانت هي تجلس أمام النافذة ذاتها، تحدّق في الطريق الخالي، تحاول أن تُقنع نفسها بأنّها لم تَرَه، وأنّ ارتباكها كان محض وهم، لكنّ قلبها كان له رأيٌ آخر.

الفصل الثالث عشر: ارتباك عند النافذة

كانت تقف أمام النافذة كمن يبحث في المدى عن شيءٍ ضاع منه منذ زمنٍ بعيد.

لم تعد السيارة في مكانها، ولم يبقَ سوى أثر ضوءٍ باهتٍ تركه مصباحها الأخير قبل أن تختفي في انحناءة الطريق.

تحسست قلبها كأنها تحاول تهدئته، لكن نبضه كان ما يزال يصرّ على ارتباكه، يطرق جدران صدرها بسؤالٍ واحد لم تجد له جوابًا:

"أكان هو حقًا؟"

اقتربت صديقتها بخطواتٍ بطيئة، وضعت يدها على كتفها برفقٍ وقالت:

"لقد رحل... لكنك لم ترحلي عنه بعد، أليس كذلك؟"

لم تجب، كانت عيناها ما تزالان معلقتين في الفراغ. ثم قالت بصوتٍ خافت:

"لم أتخيله أن يعود في لحظة كهذه. كنت أظن أني تجاوزت كل شيء، أني شفيت من الحنين... لكنه اليوم أعاد كل الأصوات القديمة في رأسي. حتى جرح الماضي استيقظ."

جلست صديقتها على المقعد المقابل، وقالت بهدوءٍ متزن:

"هو لم يأتِ ليعيدك إلى الوراء، بل ليذكّركِ أنك ما زلتِ حيّة. الخوف الذي تشعرين به ليس ضعفًا، بل نداء القلب عندما يرى ما يقدر أن يهزّه من جديد."

أطرقت برأسها، تتفادى نظراتها، ثم قالت بنبرةٍ يختلط فيها الألم بالحنين:

"لكنني لا أريد أن أُجرح مرة أخرى. لم أعد تلك الفتاة التي كانت تثق بسهولة. هناك شيء فيّ كُسر ولم يُصلح بعد. كلّما اقترب أحد، أسمع داخلي صوتًا يهمس: انتبهي، هذا الطريق ليس لك."

ابتسمت صديقتها وقالت:

"وإن كان الطريق هذه المرّة مختلفًا؟ وإن لم يأتِ ليأخذكِ، بل ليعيدك إلى نفسك؟"

ترددت لحظة، ثم أجابت بصوتٍ مبحوح:

"هو مختلف، نعم... أشعر بذلك. هناك شيءٌ فيه يشبه الطفلة التي كنتها، تلك التي كانت تضحك بلا سبب وتؤمن بالأحلام الصغيرة. لكنه يخيفني أيضًا، لأنني أخشى أن أضعف، أن أسمح له بأن يقترب، فيستيقظ وجعي من جديد."

رفعت صديقتها رأسها ونظرت إليها طويلاً، ثم قالت بنبرةٍ حانية:

"الذين أحبّوا بصدقٍ مرة، لا يُنقذهم النسيان، بل لقاءٌ يعيد ترتيب الفوضى داخلهم. ربما هذا اللقاء ليس صدفة، وربما أنتِ لا تحتاجين سوى إلى أن تواجهي ما تهربين منه."

صمتت طويلاً، تنظر إلى يدها كأنها تحاول أن تمسك شيئًا من الهواء. ثم قالت:

"ربما كنت أهرب من نفسي أكثر مما أهرب منه. حين رأيته اليوم، شعرت أن شيئًا فيّ يتحرك... كأن روحًا غافية بدأت تستيقظ."

اقتربت منها صديقتها، وقالت بصوتٍ دافئٍ كهمس المساء:

"استيقاظ الروح ليس خطرًا يا صديقتي، الخطر أن تظلي نائمة وهي تناديك."

رفعت رأسها نحو السماء، كان الغروب ينسدل على المدينة في ألوانٍ دافئة، والريح تمرّ على ستائر النافذة في خفةٍ تشبه اللمسة الأولى بعد فراقٍ طويل.

ابتسمت ابتسامةً خجولة، وهمست:

ما أشعر به... لا أعلم إلى أين سيقودني، لكنّ الهروب لم يعد ينقذني."RT"ربما عليّ أن أتوقف عن مقاومة

الفصل الرابع عشر: على حافة الورق

لم أستطع أن أنام تلك الليلة.

كلّ شيءٍ بدا لي ساكنًا إلا رأسي، كان يعجّ بضجيجٍ خافت، يشبه ارتداد الخطوات في ممرٍّ مغلق.

جلست إلى مكتبي الصغير، أطفأت الأضواء جميعها إلا مصباحًا واهنًا يمدّ ظله على الورق. أمامي دفترٌ قديم، كنت قد هجرت الكتابة فيه منذ أشهرٍ طويلة، لكن شيئًا في هذه الليلة أرغمني على فتحه.

كتبت في أعلاه التاريخ، ثم توقفت.

السطور البيضاء تراقبني، وكأنها تنتظر اعترافًا مؤجلًا منذ زمن.

"رأيتها اليوم.

أو ربما رأيت الطفلة التي لم تغادرني قطّ.

كانت أمامي، لكن المسافة بيننا بدت أبعد من كلّ المدن التي عبرتها.

لم تلتقِ أعيننا، ومع ذلك شعرت أنها شعرت بي."

رفعت رأسي للحظة، أغمضت عينيّ، واستعدت المشهد كما لو كان شريطًا يعاد في الذاكرة مرارًا.

صوت سيارتها حين توقفت، ارتباكها عند الباب، ذلك الارتجاف الصغير الذي لاح في كتفيها... كلها تفاصيل لا يمكن لذاكرةٍ باردة أن تحتفظ بها، بل قلبٌ مشتعل لم يعرف النسيان.

عدت إلى الورق، وكتبت:

"كم هو غريب أن يحمل حضورها كل هذا الهدوء وكل هذا الاضطراب معًا.

كأنّ الله أراد أن يذكّرني بأنّ بعض الوجوه خُلقت لا لتُنسى، بل لتُختبر فينا فكرة القدر نفسها."

وقفت عند هذه الجملة طويلاً.

هل أؤمن حقًّا بالقدر، أم أنني أبحث فيه عن مبرّرٍ لعجزي؟

هل العودة إلى ماضٍ لم يكتمل، ضعفٌ أم شجاعة؟

أم أنّ القلب حين يختار طريقه، لا يعترف بتلك الحسابات العقلية التي تلوّث النقاء الأول للأشياء؟

مددت يدي إلى القلم من جديد، وكتبت:

"لا أدري إن كنت أريد اللقاء بها، أم الهروب منها. كلّ ما أعلمه أنني منذ رأيتها، لم يعد في قلبي موضعٌ لشيءٍ سواها.

حتى الكتابة — التي كانت مهربي الدائم — صارت تشبهها.

كلماتها تأتي خجولة في البداية، ثم تفيض حتى تملأ الصفحة، كأنها تكتبني لا أكتبها."

أغلقت الدفتر ببطء، ووضعت يدي عليه كما يضع المريض يده على جرحٍ قديمٍ يخشى أن ينزف.

ثم نظرت من النافذة إلى ظلمة الليل، فبدت المدينة نائمةً إلا بيتًا واحدًا يطلّ على الطريق البعيد.

تخيّلت الضوء الخافت فيه، وتخيّلتها جالسةً مثلي، تحاول أن تفهم ما حدث، أن تفسّر تلك الرجفة المفاجئة التي تسكن القلب حين يقترب القدر خطوةً أخرى.

همست لنفسي:

"ربما لم يحن الوقت بعد... أو ربما تأخر كثيرًا.

لكنني أعلم أن شيئًا بدأ يتحرك، وأنّ الهروب لم يعد مجديًا."

أطفأت المصباح، وبقي الضوء العالق في الذاكرة يلمع — كأنه يقول لي إن الصدفة لم تكن صدفة، وإن الغياب هذه المرة ليس نهايةً بل بدايةٌ مؤجلة تنتظر لحظتها.

الفصل الخامس عشر: ما بين الحلم واليقظة

استيقظت على ضوءٍ خافت يتسلل من النافذة، كأنّ الصباح نفسه يتحاشى إيقاظها فجأة.

لم تكن نائمةً بحق، بل عالقةً في تلك المنطقة الغامضة بين الحلم واليقظة، حيث تختلط الوجوه بالصوت، والذكرى بالحقيقة.

مدّت يدها إلى الوسادة المجاورة، لم تجد شيئًا سوى أثر حلمٍ لم يكتمل.

جلست في الفراش، تسند ظهرها إلى الجدار، تتأمل السقف الذي بدا ساكنًا أكثر من اللازم.

أخذت نفسًا طويلًا، وقالت في سرّها:

"كم مرةٍ حاولت أن أبدأ من جديد؟

كم مرة أقنعت نفسي أن القلب صفحةٌ يمكن أن تُمحى وتُكتب من جديد؟"

لكنّها هذه المرّة لم تشعر بأنها على وشك النسيان، بل على وشك الفهم.

كانت صورة الأمس لا تزال واضحة في ذهنها — السيارة التي توقفت، ملامحه التي لم ترها مباشرة لكنها عرفتها، ذلك الارتباك الغامض الذي اجتاحها، والارتجاف في يديها حين حاولت أن تفتح الباب.

دخلت صديقتها إلى الغرفة وهي تحمل كوبين من القهوة. وضعت أحدهما بجانبها وقالت مبتسمة:

"ما زلتِ شاردة؟"

أجابت دون أن ترفع عينيها:

"كأنّ الأمس لم ينتهِ بعد. كل شيءٍ بدا لي حلمًا، ثم كلما حاولت أن أنساه، عاد أوضح."

جلست صديقتها قربها وقالت:

"أحيانًا تأتي الذكريات لتذكّرنا أننا لم ننتهِ من شيءٍ بعد. ربما ما حدث لم يكن صدفة."

أطرقت برأسها قليلًا، ثم قالت بصوتٍ مبحوح:

"لكن ما الذي يمكن أن يحدث الآن؟ بيننا حياة كاملة، صمتٌ طويل، وأشياء كثيرة تغيّرت."

صديقتها ابتسمت ابتسامةً خفيفة وقالت:

"ربما تغيّر كل شيءٍ حولكما، لكن شيئًا فيكما لم يتغير، وإلا ما كنتِ بهذا الارتباك."

أمسكت الكوب بكلتا يديها، تتأمل بخاره المتصاعد، كأنها تبحث فيه عن إجابة.
ثم قالت ببطء:

"لا أدري إن كنتُ أريده أن يعود، أم أني فقط أفتقد نفسي التي كنتها حين كان حولي."

ردّت صديقتها:

"ربما الاثنان معًا.
هناك أشخاصٌ لا يعودون ليكملوا القصة، بل ليعيدوا تعريفها."

سكتتا طويلًا، لا صوت في الغرفة سوى أنفاسهما وهدير المدينة البعيد.

ثم رفعت رأسها فجأة، بعينين أكثر صفاءً من ذي قبل، وقالت:

"لن أهرب هذه المرة.

إن كان القدر قرر أن يعيده إلى طريقي، فسأنتظر لأفهم... لا لأتعلق، بل لأعرف ما الذي يريد الله أن يخبرني به من خلاله."

كانت الكلمات تخرج منها بثباتٍ غريب، كأنها تعلن صلحًا مع ذاتها قبل أن تصالحه.

ابتسمت صديقتها وقالت برقة:

"هكذا فقط تكونين أقوى. ليس في الهروب، بل في الوقوف بثباتٍ أمام ما تخافينه."

نظرت إلى النافذة، كان النهار قد اكتمل إشراقه، والسماء صافية على غير عادتها.

شعرت لأول مرة منذ زمنٍ بعيد أن شيئًا في داخلها بدأ يتنفس من جديد.

لم يكن قرارًا نهائيًا بعد، لكنه كان الخطوة الأولى في طريقٍ طويل، طريقٍ يبدأ دائمًا من لحظة الصدق مع النفس.

الفصل السادس عشر: وجه الطفلة وجسد الأنثى

كان الصباح يمضي ببطءٍ في مكتبه، الأوراق مكدّسة، والهاتف لا يتوقف، لكنه لم يكن حاضرًا تمامًا في أيٍّ من ذلك.

هناك شيءٌ خفي ظل يطارده منذ الأمس، كظلٍّ لا يعرف إن كان يسبقه أم يتبعه.

جلس أمام شاشة الحاسوب، يراجع بريد العمل، حتى توقّف بصره فجأة عند منشورٍ عابر ظهر أمامه على صفحةٍ مشتركة.

كانت هي.

صورةٌ لم يظن يومًا أن تراها عيناه بهذا الشكل.

كانت تقف في مكانٍ لا يميّزه، خلفية ضبابية تترك الضوء يداعب ملامحها برفق، ترتدي فستانًا بسيطًا بلونٍ يقترب من لون البحر عند الغروب،

لكن ما أثار في داخله العاصفة لم يكن الصورة فحسب، بل ذلك الوجه...

وجه الطفلة القديمة، المخبأ في ملامح أنثى استثنائية، جسدها نضجت فيه تفاصيل الحياة، لكن عينيها ظلتا كما هما — عينا دهشةٍ قديمة لم تخفت، وابتسامة صغيرة تشبه أول مرة ناداها فيها باسمها.

لم يكن يدري أهو الحنين أم الارتباك أم الذنب الذي جعله يغلق الصورة ثم يعاود فتحها كمن يبحث عن معنىٍ ضائع تركه القدر عمدًا في طريقه.

همس في نفسه:

"كيف جمعت كل هذا؟ وجه الماضي وجسد الحاضر، الطفلة والمرأة في كيانٍ واحد... كيف يمكن أن أهرب منها الآن؟"

دخل صديقه الغرفة دون أن يطرق الباب، فارتبك سريعًا وأغلق الشاشة كأنه يخفي سراً.

ابتسم صديقه وقال وهو يقترب:

"أتعرف؟ لا شيء يفضح الرجل مثل النظرة التي يهرب بها من الصورة."

ردّ بخفوت:

"إنها... مجرد صدفة."

ضحك صديقه وقال:

"الصدف لا تترك هذا الأثر في العيون."

جلس إلى جواره، ثم قال وهو ينظر إلى فنجان القهوة أمامه:

"رأيتها صدفة بالأمس، واليوم صورتها أمامي. كأن العالم كله يحاول أن يدفعني نحوها، وأنا لا أعرف هل هذا طريق يجب أن أمشيه أم هاوية يجب أن أتجنبها."

صديقه تمهّل في رشف قهوته، ثم قال:

"ربما ليست صدفة. ربما عليك أن تعرف فقط ما الذي لم يُغلق بعد بداخلك."

تأمل الجملة طويلاً، ثم عاد بنظره إلى الشاشة، أعاد فتح الصورة بهدوء، كمن ينظر في مرآةٍ قديمة يرى فيها نفسه كما كان، لا كما أصبح.

ابتسم بخفوتٍ لا يخلو من وجع، وقال:

"ما زالت هي... حتى وإن تغيّر كل شيء."

صديقه نظر إليه طويلاً ثم قال:

"وما زلتَ أنت، بدليل أنك تراها بعين الطفل نفسه الذي أحبّها أول مرة."

كانت تلك الجملة كإضاءةٍ مفاجئة في عتمة ذهنه — لقد أدرك للتو أنه لا يراها كما هي، بل كما كانت.

وبين "ما كانت" و"ما أصبحت" يقف الآن حائرًا، لا يعرف أيّ الوجهين أقرب إلى قلبه.

الفصل السابع عشر: صدى الصورة

لم تكن تنوي أن تبدأ صباحها على هذا النحو.

استيقظت على ضوءٍ خافتٍ يتسلّل من بين ستائر غرفتها، والمدينة لم تزل نصف نائمة.

كانت تشعر بخفّة غريبة، وكأن شيئًا داخليًا يتهيّأ لحدثٍ لا تعرفه بعد.

جلست إلى مكتبها الصغير، تناولت هاتفها، فتحت صفحتها كمن يتهيّأ لطقسٍ مألوفٍ لا ينتظر منه مفاجأة.

لكن المفاجأة كانت هناك.

عددٌ كبير من الإعجابات والتعليقات على صورتها الأخيرة.

صورة لم تنشرها عبثًا، ولم تلتقطها صدفة.

كانت تعرف تمامًا ما تفعل حين اختارت الضوء والزاوية والابتسامة التي تحمل شيئًا من الطفلة وشيئًا من المرأة التي صارتها.

كانت تريد أن يراها.

هو تحديدًا.

ذلك الذي لم يعد بينهما شيء، سوى خيطٍ رفيع من ذاكرةٍ قديمة لا تموت.

وبينما كانت تتنقّل بعينيها بين التعليقات العابرة، تجمّدت فجأة عند الاسم الذي ظلّت تخشاه وتتمنّاه في الوقت ذاته.

لم يترك تعليقًا، لكنه رأى.

علمت ذلك من تلك العلامة الصغيرة التي تُخبرك أن أحدهم مرّ بصورتك.

مجرد مرورٍ صامت، لكنه اخترقها كما لو كان حديثًا طويلاً لم يُقال بعد.

توقفت أنفاسها للحظة.

تردّدت بين رغبةٍ في الفرح وارتباكٍ يوشك أن يفضحها أمام نفسها.

همست في داخلها:

"رآها إذن... يا لغبائي، ألم أضعها لهذا السبب؟"

ورغم اعترافها لنفسها، شعرت بخجلٍ خفيّ، وكأنها ارتكبت خيانةً صامتة لصلابتها التي حاولت أن تحافظ عليها منذ زمن.

أغلقت الهاتف، ونهضت ببطءٍ، واتجهت نحو المرآة.

تأملت وجهها طويلاً.

كان فيها شيء لم تره من قبل — مزيج من الحنين والحذر، ومن امرأةٍ تحاول أن تبدو متماسكة بينما تتكشف من داخلها كصفحةٍ طريّة أمام الريح.

لم يكن ما تشعر به حبًّا بعد، لكنها كانت تدرك أن شيئًا يتحرك في أعماقها، شيئًا كان نائمًا منذ زمن طويل.

ذلك الاضطراب الخفيف الذي يسبق العاصفة، أو ربما يسبق الصفح.

هل ما زالت تحبه؟

أم أنها فقط تفتقد ذلك الجزء من نفسها الذي لم يعشه أحدٌ سواه؟

جلست إلى طرف السرير، ضمّت قدميها إلى صدرها كما كانت تفعل في طفولتها حين يثقلها الخوف،

وقالت في سرّها كمن تعترف لربها لا لنفسها:

"نعم... نشرتها من أجله. أردتُ أن يراها. أردتُ أن يتذكّر."

لكنها لم تتوقع أن يربكها نظره حتى وهي لا تراه.

كل ما فعلته أنه نظر — نظرة لم تشهدها بعينيها، لكنها شعرت بها كما يُحسّ القلب بظلّ من يحبّه وهو يعبر المسافة نحوه.

الفصل الثامن عشر: حوار على حافة القلب

كانت السماء تميل إلى الغروب حين وصلت صديقتها، تحمل معها عطر المساء وكيسًا صغيرًا من الحلوى كما اعتادت في زياراتها.

استقبلتها بابتسامةٍ متعبة، تلك التي تُخفي أكثر مما تُظهر.

لم تكد تجلس حتى التقطت صديقتها ملامح وجهها المتوترة، فحدّقت فيها بعينٍ خبيرة تعرف ما وراء الصمت.

قالت برقةٍ لا تخلو من القلق:

"ما بكِ؟ وجهكِ لا يخطئه الحزن. من أزعجكِ هذه المرة؟"

ترددت قليلًا، كأنها تختبر نفسها قبل أن تختبرها، ثم قالت وهي تعبث بغطاء فنجان القهوة:

"رأيته."

رفعت الصديقة حاجبيها بدهشةٍ خفيفة:

"رأيته؟ وأين؟"

تنهدت ببطءٍ وقالت:

"لم أره فعلاً... لكنه رأى صورتي. شعرت بذلك، بل كنت أنتظره أن يراها."

ابتسمت صديقتها، مزيج من الحنان والدهشة، ثم قالت:

"إذن الصورة لم تكن عبثًا كما ادّعيتِ."

أطرقت برأسها، وكأنها أُمسكت متلبّسة بعاطفتها.

"نعم... نشرتها لأجله. لا أدري لماذا، لكنني كنت أحتاج أن أرى إن كان ما زال هناك. شيءٌ بداخلي كان يهمس أنه سيرى، وسيرتبك مثلي."

ردت صديقتها برفق:

"وهل ارتبكتِ؟"

ضحكت بخفوتٍ يشبه البكاء:

"كأنني ارتكبت خطيئة صغيرة. كل ما فعله أنه مرّ مرورًا صامتًا، ومع ذلك شعرت وكأن العالم كلّه توقف في تلك اللحظة."

صمتت الصديقة قليلاً، ثم قالت بصوتٍ حازمٍ لكنه لا يخلو من دفء:

"أتعلمين؟ ليس عيبًا أن تتحرك مشاعركِ من جديد، لكن احذري أن تكوني أسيرة لما مضى. الماضي جميل حين نتذكره، لكنه مؤلم حين نحاول أن نعيده كما كان."

قالت وهي تنظر إلى الأفق خلف النافذة:

"أنا لا أريد إعادته، فقط... أريد أن أفهم ما الذي جعلني أعود إليه. لم أكن أفتقده، بل افتقدت نفسي معه. تلك الطفلة التي كانت ترى في الأشياء نقاءها قبل أن تتعلم القسوة."

اقتربت منها صديقتها، وضعت يدها على كتفها وقالت بهدوءٍ عميق:

"ربما لا تبحثين عنه، بل عنكِ. وربما ظهوره الآن ليس لتعودي إليه، بل لتعودي إلى نفسك."

سكتت لحظة، ثم أضافت بنبرةٍ متفهمة:

"لكن إن شعرتِ أن قلبكِ ما زال حيًا حين تذكرينه، فدعيه يشعر. لا تقمعيه بحجة النسيان، فالقلب لا ينسى بالمنطق."

ابتسمت وهي تغالب دمعة تسللت من زاوية عينها.

"أخاف أن أقترب، فيعيدني الوجع إلى حيث كنت."

ردت صديقتها مبتسمة:

"وأخاف أن تبتعدي، فيُفلت منك ما قدّر لكِ أن تريه من جديد."

نظرت إليها طويلًا، ثم همست كأنها تحدّث نفسها:

"لا أعلم أيّ الطريقين أصدق... القرب أم الهرب؟"

ردت صديقتها وهي تنهض متجهة نحو النافذة:

"ربما ليس الطريق من يصدق، بل اللحظة التي تختارين فيها أن تمشيه."

وفي تلك اللحظة، انعكس ضوء الغروب على زجاج النافذة، فبدت السماء كأنها صفحة قديمة يعيد المساء كتابتها من جديد.

ربما كانت تلك علامة — أو مجرد صدفة — لكنها شعرت بشيءٍ يتحرك بهدوءٍ في داخلها، كنبضةٍ أولى بعد غيابٍ طويل.

الفصل التاسع عشر: برد الشرفة وصوتٌ يشبهها

كانت الليلة باردة على نحوٍ غريب، كأن الريح عادت لتذكّره أن بعض الفصول لا تنتهي مهما تعاقبت السنوات.

جلس في شرفته الصغيرة، يضع كوب القهوة أمامه، تتصاعد منه خيوط البخار كأنها أنفاس حائرة تبحث عن معنى في هذا السكون الممتد.

الموسيقى الكلاسيكية تملأ المكان بخفوت، قطعة قديمة يعرفها جيدًا، تلك التي كان يسمعها حين يكتب ملاحظاته الصغيرة في دفتره البني.

تسللت النغمات إلى داخله كما تفعل الذكريات حين تتسلل بلا إذن، فشعر أن شيئًا ما يتحرك في صدره ببطء... لا ألم، ولا حنين كامل، بل ارتجافة خافتة تشبه ما يحدث قبل أن ينطق القلب.

أشعل سيجارة، وأخذ يحدّق في البعيد، في الأضواء التي تلمع وتخبو كأنها نبض مدينة تتنفس ببطء.

لم يكن يعرف تحديدًا ما الذي يعصف بداخله، لكنه أدرك أنه لم يكن هادئًا كما اعتقد.

هناك اضطراب ناعم، يشبه خفقة تأتي من جهةٍ يعرفها ولا يريد الاعتراف بها.

مدّ يده إلى هاتفه، ثم تراجع.

فتح أحد التطبيقات بلا هدف، ثم أغلقه.

مرّت الصورة أمامه مصادفة — أو هكذا أقنع نفسه — تلك التي لم يتوقف عندها في العلن، لكنه توقف عندها في داخله طويلاً.

ابتسم بخفوتٍ متردد، كمن يكتشف أن قلبه لم يمت، فقط كان في سُباتٍ اختياري.

قال لنفسه بصوتٍ بالكاد يُسمع:

"وجه طفلٍ في ملامح امرأة... كيف يمكن للزمن أن يكون بهذا اللطف وهذا القسوة معًا؟"

عاد إلى مقعده، وترك الموسيقى تكمل حديثها نيابة عنه.

كان الليل صامتًا إلا من أنفاس الريح وصوت فنجان القهوة حين يلامس الطاولة.

تأمل البخار المتصاعد من الكوب، فشبهه بخيط من الحنين يصعد إلى السماء، لا يُرى إلا لمن يشعر به.

تساءل بينه وبين نفسه:

"هل شعرت هي أيضًا؟ أم أن ما بيننا لم يعد سوى صدى قديم لشيءٍ كان يشبه الحياة؟"

ثم ابتسم وهو يتذكر كيف كان يهرب من هذه الأسئلة في الماضي، ويجد نفسه يعود إليها الآن كمن يعود إلى كتابٍ يعرف نهايته، لكنه يفتحه مرة أخرى لأن اللغة فيه ما زالت جميلة.

أغلق الموسيقى للحظة، فعمّ الصمت.

لكن حتى في الصمت، ظل يسمع شيئًا يشبه صوتها، كأنه همسٌ يتردد بين الريح وكوب القهوة.
همسٌ يقول:

"لم ننتهِ بعد، فقط هدأنا قليلاً."

رفع رأسه نحو السماء التي اكتست بلونٍ رماديٍّ ناعم، وقال كمن يعترف بعد عنادٍ طويل:

"ربما لم يكن الأمر عن الماضي... ربما كنت أفتقد الجزء الذي كنتُه معها."

وبينما همّ بالدخول إلى الداخل، هبّت ريح خفيفة بعثرت بعض الأوراق على الطاولة.
أمسك إحداها، فإذا بها صفحة قديمة كتب عليها قبل أعوام:
"الأشياء التي نغادرها لا تغادرنا... بل تنتظر اللحظة التي نتعب فيها من النسيان."

نظر إلى الجملة طويلاً، ثم طوى الورقة بعناية ووضعها في جيب معطفه، وعاد إلى الداخل.
لكن الموسيقى ظلّت تعزف وحدها في الشرفة، كأنها تحفظ سرًّا لا يُقال.

الفصل العشرون: صدى الذكرى

كانت الشقة تغرق في سكونٍ ثقيل بعد أن غادرت صديقتها.
توقّف صدى الضحكات القصيرة التي كانتا تحاولان بها التخفّف من ثقل الحديث، وبقيت وحدها في مواجهة المساء الطويل، لا تُسمع سوى أنفاس الريح وهي تداعب الستائر، وصوت ساعةٍ يتباطأ كأن الزمن نفسه أنهكه الانتظار.

أطفأت أنوار الصالة، وجلست أمام النافذة تُطل على الطريق، المكان ذاته الذي كان يختبئ خلفه شيء يشبه الصدفة... أو القدر.

لم تكن قادرة على النوم، فمدّت يدها إلى هاتفها تبحث عن شيء يُسكِت صخب الأفكار، فوقعت على تسجيلٍ قديم لصوته — حلقة إذاعية كان قد قدّمها منذ سنوات.

ضغطت زر التشغيل، وعمّ المكان صوتُه، هادئًا، عميقًا، يحمل تلك النبرة التي تعرفها جيدًا، النبرة التي كانت دومًا قادرة على لمس أكثر النقاط خفاءً في روحها.

كان يتحدث عن الذكريات... عن تلك التي تلتصق بنا رغم مرور الزمن، وتُبقي في القلب أثرًا لا يُمحى.

"أقسى الذكريات — كما قال في تلك الحلقة — ليست المؤلمة، بل الجميلة التي عبرت دون أن تعود، وتركت خلفها أثرًا غريبًا، مزيجًا من الحنين والألم، لا يُشفى منه الزمن، بل يعلّمه الصمت."

تجمّدت الكلمات في الهواء، وشعرت كأنها تخاطبها هي تحديدًا.

ارتعشت أصابعها وهي ترفع الصوت قليلًا، فاختلط همسه بأنفاسها المتلاحقة.

كانت تعرف تلك المرحلة من صوته، تعرف أنه سجّلها في زمنٍ كانا كلاهما فيه على أعتاب الغياب.

شعرت أن كل ما حاولت دفنه طوال السنوات الماضية ينهض من ركامه ببطء، كأن الصوت يحمل مفاتيح لأبوابٍ مغلقة داخلها.

أغلقت عينيها، فمرّت المشاهد القديمة أمامها — ضحكته، كلماته الأولى، دهشتها الطفولية وهي تكتشف كم كان يفهمها بلا شرح.

وضعت يدها على قلبها كأنها تخشى أن يفضح اضطرابه، ثم همست لنفسها:

"كيف يعود كل هذا بصوتٍ؟ بصوتٍ فقط!"

تسللت دمعةٌ حارة إلى وجنتها، لم تدرِ أكانت دمعة حنين أم ندم، لكنها شعرت بعدها براحة غريبة، كأن القلب تنفّس أخيرًا بعد طول احتباس.

في لحظةٍ غافلة، فتحت هاتفها من جديد، أعادت النظر إلى الصورة التي نشرتها صباحًا.
تأملتها بعينٍ أخرى، بعينٍ تعرف الآن كم كانت تخدَع نفسها حين قالت إنها مجرد صورة عادية.

ابتسمت بخجلٍ خافت، ثم همست بصوتٍ مرتجف:

"كنتُ أريد أن يراها... فقط أن يراها."

تذكّرت ارتباكها حين نشرتها، وتلك اللحظة التي شعرت فيها بشيءٍ يتحرك في قلبها فجأة، كما لو أن روحها كانت تعرف أنه سيراها حقًا.
ذلك الإحساس العجيب الذي يشبه استيقاظ الذاكرة في الجسد.

أغلقت الهاتف، وعادت إلى النافذة، تنظر إلى الطريق المظلم.
لم يكن هناك أحد، سوى أضواء السيارات العابرة، وصوت الريح وهي تهمس كأنها تنقل حديثًا من بعيد.
حدّقت طويلًا، ثم قالت لنفسها:

"ربما كان يستمع إلى الحلقة الآن أيضًا... من يدري؟"

واستسلمت بعد ذلك لصمتٍ طويلٍ دافئ، كأنها تخشى أن تُغلق عينيها فينتهي الصوت.
لكن الصدى بقي، يدور في رأسها كصلاةٍ لا تنتهي:
"الذكريات الجميلة لا ترحل... بل تختبئ فينا، تنتظر اللحظة التي نضعف فيها، لتذكّرنا أننا ما زلنا أحياء."

الفصل الحادي والعشرون: صمت الانتظار

استيقظ على صوت المطر الخفيف يتساقط على الزجاج، ومع ذلك كان الهواء في شرفته باردًا وجافًا بطريقة غير متوقعة.

جلس في مكانه المعتاد، فنجان القهوة على الطاولة، الموسيقى الكلاسيكية تنساب في أرجاء الغرفة، لكنه لم يكن يسمعها.

كان ذهنه مشتّتًا بين صورةٍ قديمة وصوتٍ له في حلقة إذاعية — صوتها الذي لم يسمع منذ سنوات، لكنه بدا وكأنه يهمس له من خلف حائط الزمن.

تذكر الطريقة التي رفع بها الهاتف، كيف شعر بخفةٍ عابرة، ثم ارتعش قلبه حين اكتشف أن شيئًا ما في داخله بدأ يتحرك دون أن يعرف من أين جاء.

تمدد على الكرسي، وأغمض عينيه للحظة، محاولًا أن يختبر نفسه:

"هل هذه مجرد ذكرى؟ أم أن شيئًا حيًا بداخلي يستيقظ بعد طول سبات؟"

لم يستطع أن يجد الإجابة.

كل ما استطاع فعله هو أن يشاهد المطر يتساقط، وأن يستمع إلى صوت موسيقى الأوبرا التي تبدو كأنها تحاكي قلبه — متأرجح بين الصمت والحركة، بين الانتظار والخوف من الاقتراب.

رفع الهاتف ليتفقده، لكنه لم يجد أي إشعار جديد.

ابتلع الصمت بأكمله، وفكر في ما فعلته — الصورة التي نشرتها، الارتباك الذي شعرت به، تلك اللحظة العابرة التي شعر فيها أنها أرادت أن يُرى ما لم يُسمع.

ابتسم بخفوتٍ، لكنه لم يشعر بالارتياح.

"هل أنا أبحث عن شيء لم يعد موجودًا؟ أم أنني أخاف فقط من الاقتراب من ما قد يكون موجودًا بالفعل؟"

جلس هكذا، يسحب الهواء ببطء، يراقب حركة المطر، وأحيانًا يتخيل كيف كانت تتصرف هي في اللحظة نفسها: هل تنظر إلى الطريق، أم تستسلم للصوت الذي أحدثه ترددها؟

تساءل:

"هل تشعر بما أشعر به؟ أم أنني وحدي في هذا الصمت الطويل؟"

لم تكن الإجابات موجودة، ولم يكن هناك موعد للقاء.

كل شيء كان عبارة عن لحظات صغيرة من الشوق والحنين، مختلطة بالخوف، كأنهما رقصة دقيقة بين الماضي والحاضر، بين الحنين والحذر.

في الداخل، شعر بشيءٍ حارٍ وغريب يضغط على صدره: إحساس بأنه لا يستطيع الهروب، ولا يعرف إذا ما كان يريد ذلك حقًا.

ورغم كل شيء، ظل ينتظر... كمن يراقب نجمًا بعيدًا، لا يعرف إن كان سينير له الطريق، أم سيبقى بعيدًا إلى الأبد.

الفصل الثاني والعشرون: صدى الصمت

جلست على أريكتها الصغيرة، ضوء النهار يتسلل بخجل عبر ستائر الغرفة، لكنها بالكاد لاحظته.

في يدها فنجان قهوة بارد، ويديها ترتجفان قليلًا وهي تمسح شاشة الهاتف دون أن تضغط أي شيء.

لم يكن هناك أي إشعار جديد، لكنه في قلبها كان حاضرًا كما لو كان يجلس أمامها.

أعادّت النظر إلى الصورة التي نشرتها صباحًا، تلك التي أرادت منه أن يراها.

ابتسمت خجلاً، ثم شعر قلبها بارتباكٍ غريب:

"لماذا يربكني هذا كل هذا الوقت؟ لقد وضعته ليرى، لكنه... هو رأى."

شعرت وكأن هناك قوة خفية تمسح حدود الزمن، تجعل كل ثانية تمرّ ببطء، وتبقي قلبها على أطراف الهاوية.

استرجعت صوتها الداخلي: كل ما كان يهمها منذ أيام الطفولة كان أن يكون هناك من يفهمها، ومن يرى ما لا يرى الآخرون.

واليوم، بعد سنوات، عاد ذلك الشعور بقوة أكبر، لكنه معقد ومختلط بالخوف:

"هل ما أشعر به حنين؟ أم بداية لشيء أعلم أنني لا أستطيع السيطرة عليه؟"

تنهدت، وأغلقت عينيها للحظة.

تخيلت أنه ربما يفكر بها الآن، ربما يشعر بما تشعر به، وربما لم يفعل شيئًا من ذلك.

كل هذه الاحتمالات جعلتها تعيش حالة من التردد الطويل، شعور بالانتظار بلا موعد، كمن ينتظر إشراقة شمس قد لا تأتي.

أعادت الهاتف إلى الطاولة، لكنها لم تستطع الابتعاد عن تفكيرها: كل تفصيل، كل حركة، كل ذكريات صغيرة كانت تعود في رأسها.

كانت الذكريات الحلوة التي غابت منذ زمن طويلة، لم تعد تأتي إلا في هذه اللحظات، لتترك في نفسها أثرًا غريبًا، مزيجًا بين الحنين والألم.

تمددت على الأريكة، وأمسكت بالوسادة، كأنها تود أن تحتضن نفسها وتحمي قلبها من تلك المشاعر المتضاربة.

همست في سرّها:

"لم أعد أعرف إن كان يجب أن أفرح لأنه رأى الصورة... أم أخاف لأن قلبي بدأ يتحرك من جديد."

سكتت للحظة، وأمعنت النظر في النافذة، حيث تسقط أشعة الشمس المتناثرة على الطريق البعيد.

كانت تعرف أن كل شيء سيستمر هكذا، لحظات صغيرة من الحنين، تردد، وصمت، حتى يحين وقت القرار — حتى تتخذ لحظة الجرأة الأولى، أو تستسلم للتردد مرة أخرى.

الفصل الثالث والعشرون: قرب بعيد

جلس في شرفته مرة أخرى، فنجان القهوة بين يديه، والبرد يتسلل عبر الستائر المفتوحة قليلًا.

الموسيقى الكلاسيكية ما زالت تعزف، لكن قلبه بالكاد يسمعها، فكان مشغولًا بصدى شيءٍ لم يفهمه بعد.

صورة الأمس، الصوت القديم في الحلقة الإذاعية، كل التفاصيل تراكمت داخله كطبقات من صمتٍ مشترك بينه وبينها.

تساءل بصوتٍ هادئ:

"هل تشعر بما أشعر به؟ أم أن هذا كل شيء بالنسبة لها مجرد لحظة عابرة، بينما أنا أعيشها كاملة؟"

كانت الأفكار تتقافز، كمن يحاول الإمساك بماءٍ يهرب من بين أصابعه.

فكر بالوقت الذي مضى، بالمسافات التي افترقتهما، وبكل التفاصيل الصغيرة التي كانت تُعيد نفسها في ذهنه بلا توقف.

شعر بشيء من الفرح الغامض، ممزوج بالرهبة:

"رآها... هذه هي اللحظة التي كنتُ أنتظرها بلا وعي."

في الجانب الآخر من المدينة، جلست هي في غرفتها، الوسادة بين ذراعيها، والنوافذ تتلألأ بضوء الشمس الخافت.

ما زال الهاتف أمامها، والفنجان نصف فارغ، لكنها لم تلمس شيئًا منذ أن أعادت النظر في الصورة.

تذكرت صوته في الحلقة الإذاعية، وكيف أن الكلمات التي نطق بها عادت لتغرس في قلبها شعورًا غريبًا بين الحنين والخوف.

همست لنفسها:

"أشعر أنه قريب... رغم كل المسافة. أشعر أنه يفكر بي، رغم أنني لا أعرف كيف."

استدارت لتحدق في الطريق، كما لو كانت تنتظر شيئًا أو شخصًا، لكنها أدركت أن الانتظار ليس فقط لحظة اللقاء، بل حالة قلبية تتحرك بلا صوت.

ثم تذكرت ارتباكها حين نشرت الصورة، حين شعرت أن شيئًا داخلها بدأ يتحرك.

ابتسمت بخفوت:

"لقد نجح... لقد رأى."

عاد هو للجلوس على كرسيه، يغرق في صمت الشرفة، يستمع للموسيقى والرياح المتسللة، ويشعر بشيء ما يتغير بداخله.

كان هناك هذا الارتباك الجميل، هذا الانتظار الذي يملأه شعور مبهم لكنه ممتع،

وكأن المسافة بينهما تخلق مساحة داخلية جديدة، تجعل كل لحظة لاحقة أكثر حدة، أكثر وضوحًا، وأكثر انتظارًا.

غادر اليوم ببطء، لكنها لم تشعر بالفراغ الذي يتركه مرور الوقت، بل بفراغٍ مشترك، يشبه صمتًا طويلًا بين قلبين يعرف كل منهما أن الآخر موجود، لكنه بعيد، وأن اللحظة القادمة ستكون أكثر قوة وتأثيرًا.

الفصل الرابع والعشرون: صدى الكلمات

كانت الشمس تتسلل بخجل عبر الستائر، ترسم خيوطها على الأرضية الباردة، بينما جلست على أريكتها، ممسكة بفنجان قهوة لم تعد تشرب منه سوى لمسات قليلة.

الهواء في الغرفة هادئ، لكنه يحمل صوت المدينة البعيد: خرير سيارات تتعثر على الطريق، صفير رياح تتسلل من الفتحات الصغيرة، وزقزقة طيور بدأت تستيقظ في الحدائق القريبة.

فتحت الهاتف بلا قصد، وكأنها تبحث عن شيء لم تعرفه بعد.

توقفت عينها فجأة على الحساب الذي لم تتابعه طويلاً، وكأن اليد نفسها أرادت التوقف عند هذا المكان.

وها هي الجملة، كما لو كانت تصطدم بها مباشرة:

"ابتسامة تتسلل بين الظلال... وعينان تحملان ما لا يقوله الكلام."

"صمت يقرأك بلا كلمة، ويترك القلب على حافة الانتظار."

ارتجف قلبها للحظة، شعور غريب اجتاح صدرها، دفقة دفء ممزوجة بالدهشة والرهبة.

أغمضت عينيها للحظة، أحست بتنفسها يتباطأ قليلاً، ثم عاد ليقفز سريعًا.

كان شيء في الكلمات يصطدم معها، يربكها، يتركها معلقة بين الصمت والدهشة، بين الشك واليقين.

فتحت عينيها ببطء، حدقت بالشاشة، قلبها ينبض كأن كل كلمة فيها كانت إبرة صغيرة تدق على أوتار روحها.

"هل يقصدني؟" همست لنفسها، بالكاد يسمعها صوتها الداخلي.

ثم شعرت، فجأة، بيقين لا يقبل الشك:

"نعم... هو يقصدني."

ابتسمت ابتسامة خجولة، وارتعش شعور غريب في صدرها، كأن الكلمات فتحت بابًا مغلقًا منذ سنوات.

جلست دقائق، تحدق في الشاشة، تعيد قراءة الجمل ببطء، كل مرة تكتشف فيها إحساسًا جديدًا، تنفسًا جديدًا، معنى لم تلاحظه من قبل.

كانت الكلمات ترتد في رأسها، تتكرر بصوت داخلي خافت، كل حرف منها يخلق موجة صغيرة من الدهشة، الحنين، والخوف المختلط بالإثارة.

أخذت تتخيل كيف كتبها، بأي شعور، بأي نبرة، وكيف أنها تصل إليها وحدها، دون أن يعلم أحد آخر بما تحس به.

الوقت مرّ ببطء، لكنها لم تشعر بالملل.

كانت تقرأ، تعيد القراءة، تفكر، تحلل كل كلمة، كل فاصلة، كل معنى، وكأنها تحاول أن تفتح صندوق أسراره.

كل حركة في قلبها، كل خفقة، كل شعور متناقض، كان جزءًا من حوار صامت بينها وبين الكلمات، بينها وبين نفسه، وبين مشاعرها القديمة والحديثة في آن واحد.

خارج النافذة، الريح تلاعبت بالستائر، والأشجار تحركت برفق، والمدينة كانت تتنفس بصوتها البعيد.

كانت كل هذه التفاصيل كأنها صدى لمشاعرها، تعكس ارتباكها، دهشتها، وحنينها، وتجعل اللحظة أكثر واقعية، أكثر تأثيرًا، أكثر وجعًا وفرحًا في الوقت ذاته.

لم تكتب أي رد، لم ترسل أي إشارة، بل اختارت أن تعيش التجربة كاملة داخل نفسها.

كل كلمة، كل إحساس، كان رسالة مخفية، مراسلة صامتة بين قلبين، فهمها وحدهما، لغة لا يفهمها أحد سواهما، مليئة بالرهبة والانتظار.

جلست هناك لساعات، بين النظر إلى الهاتف، وإعادة قراءة الجمل، وبين مراقبة الضوء والظلال، الأصوات من الخارج، والحركة البطيئة للغرفة حولها.

وفي الداخل، شعرت بإثارة مختلطة بالخوف والحنين، كأن شيئًا ما بدأ يستيقظ بعد سبات طويل، ويهمس في قلبها:

"هذا مجرد البداية، وما زال الطريق أمامنا طويلاً، لكنه حي... ينبض."

الفصل الخامس والعشرون: نبض الرسائل الصامتة

جلس في شرفته مساءً، الضوء الخافت للمصابيح ينعكس على حافة الطاولة الخشبية، وفنجان القهوة شبه فارغ أمامه.

الموسيقى الكلاسيكية ما زالت تتسلل في الغرفة، لكن قلبه بالكاد يسمعها، فكان مشغولًا بصدى شيء بدأ يختلج بداخله منذ يومين، منذ أن كتب الجملة الشعرية على حسابه.

فتح الهاتف مرة أخرى، لا يبحث عن إشعار، بل يبحث عن شعور، عن ارتجاف داخلي يشعر به فقط حين يقرأ التعليقات أو يراقب الحسابات المحيطة.

كان يعلم أن الكلمات التي كتبها قد التقطتها، وأنها فهمت ما أراد قوله.

في الجانب الآخر من المدينة، جلست هي في غرفتها، مرة أخرى بين الوسادة والهاتف، تعيد قراءة الجملة مرات ومرات، كل مرة تكتشف فيها معنى جديدًا، شعورًا لم تحسه من قبل.

كل حرف كان ينبض في قلبها، كل فاصلة كانت تفتح بابًا صغيرًا للتخيل، للمقاربة، للارتباك، للإثارة.

شعرت وكأن قلبها يتحرك مع كل كلمة، وأن صمتها يجيب على صمته بطريقة لا يفهمها أحد سوى نفسها.

مرت دقائق وساعات، وكل لحظة كانت تضيف طبقة جديدة من الترقب:

"هل يفكر فيّ الآن؟ هل يشعر بما أشعر به؟ أم أنني أقرأ أكثر من اللازم بين السطور؟"

في الداخل، كانت كل حركة، كل نبضة، وكل تنفس تشبه مراسلة صامتة، حوارًا بين قلبين بعيدين، لكنهما قريبان بشكل غريب.

أحست بمتعة خفية، مزيج من الرهبة والحنين والفضول.

كل كلمة كتبها، كل شعور حلّ في قلبها، كان يترك أثرًا عميقًا، يجعل كل ثانية تمرّ مشحونة بالإحساس.

هو من جانبه، جلس ينظر للشاشة مرات ومرات، وكأن مجرد التحديق في الهاتف يجعله يشعر بأن شيئًا ما يتحرك داخل قلبه، شيئًا لم يجرؤ على الاعتراف به من قبل.

أعاد قراءة الجملة التي كتبها، يتذكر كل شعور، كل إحساس مرّ به أثناء كتابتها، وكيف أنه كان يحاول إرسال رسالة صامتة لها، رسالة تصل فقط إلى قلبها.

ابتسم بخفوت، وهو يدرك أن صمتها، وأن شعورها الداخلي الذي يتكشف أمامه دون كلمات، هو أجمل رد يمكن أن يحصل عليه.

في هذه اللحظة، أدرك كلاهما شيئًا مهمًا:

أن كل لحظة صمت، كل كلمة مشفرة، كل شعور داخلي متبادل، تقربهما أكثر من أي لقاء مباشر.

أن الحب قد يبدأ من الصمت، من الترقب، من التحليل الدقيق، قبل أن يرى أحدهما الآخر، قبل أن ينطق بأي كلمة.

مرت الليلة ببطء، كل منهما في مكانه، لكنهما كانا يشعران بالقرب النفسي العميق،

كما لو أن المسافة بينهما كانت مجرد وهم، وأن صمتهما المشترك أصبح لغة جديدة، لغة يفهمها قلباه وحدهما.

الفصل السادس والعشرون: إشارات بين السطور

جلس في شرفته مساءً، الأضواء الدافئة تنعكس على الحائط الخشبي، بينما الريح الباردة تداعب الستائر بخفة.

في فنجان القهوة نصفه فارغ، تذكر تلك الجملة التي كتبها قبل يومين، وكيف أنها وصلت إليها، وكيف أن صمتها بعد رؤيتها كان أشبه بردٍّ صامت، لكنه أعمق من أي كلام.

أخذ يكتب مرة أخرى، كلمات قصيرة، شعرية، مشحونة بعاطفة هادئة لكنها قوية:

"هناك ضوء يلمع في الظلال، يعرف الطريق حتى حين نضيع نحن."

"كل نبضة صمت تصنع جسرًا بين قلوبنا، ولو كان بعيدًا."

لم يرسلها مباشرة، بل اكتفى بنشرها، كأنه يتركها تطفو في الفضاء، لتصل إليه إذا أرادت، ولتظل سرًّا بين قلبه وقلوب من يعرفها وحدها.

في غرفتها، جلست هي قرب النافذة، الهاتف في يدها، ولكنها لم تلمس أي شيء.

كانت تعيد قراءة الجملة مرارًا، تصغي لكل كلمة، وتحاول أن تفهم ما وراء السطور: هل هذه دعوة؟ اختبار؟ أو مجرد شعور يمتصه هو ويتركه؟

كل نبضة قلبها كانت ترد على كلماته بصمت داخلي: شعور مختلط بين الرهبة، الإثارة، الحنين، والخوف من الاقتراب.

ثم لاحظت نفسها تبتسم بخفوت، شعور لم تختبره منذ زمن طويل:

"إنه يرسل إشاراته... وهذا فقط كافٍ ليشعل شيء بداخلي."

خرجت من الغرفة للحظة، لتشعر بالهواء البارد على وجهها، تنظر إلى المدينة من الأعلى، إلى الضوء البعيد، إلى حركة الناس.

كل شيء كان يشبه الحياة الطبيعية، لكنها شعرت أن العالم كله يتوقف عند الكلمات التي كتبها، وأن هذه اللحظة كلها ملكها وحدها، ملك مشاعرها الخاصة التي لم يفهمها أحد سواها.

هو، في الوقت نفسه، كان يدرك أن كل جملة ينشرها تحمل صدى داخليًا في قلبها، وأن صمتها وارتباكها الذي يراه من خلال إشاراتها غير المباشرة يجعل كل كلمة أكثر تأثيرًا.

ابتسم وهو يشعر بأن هناك شيئًا ما بدأ يتحرك بينهما، شيء حيّ، لم يظهر بعد على الواقع، لكنه محسوس، محسوس بشدة في الصمت المشترك، في قراءة النوايا، في متابعة كل خفقة قلب.

في الداخل، كانت الإثارة والارتباك والحنين تزداد، كل منهما يشعر بالآخر بطرق لم يستطيعا التعبير عنها.

كانت المسافة بينهما مجرد وهم، لأن كل نبضة صامتة، كل إشارة مشفرة، كل شعور مختبئ في الجملة، جعلتهما قريبين جدًا، أكثر مما كانا يتوقعان.

جلست هي مرة أخرى قرب النافذة، تتأمل، تحلل، وتعيد قراءة الجملة مرة أخيرة قبل أن تضع الهاتف جانبًا.

أحست بأن هذه اللحظة، هذه التجربة الداخلية، قد بدأت تفتح أبوابًا جديدة: رغبة خفية في الاقتراب، في أن يروا بعضهم، في أن يعرف كل منهما الآخر بطريقة مباشرة، لكنها كانت رغبة مخفية، تنتظر اللحظة الصحيحة لتُفصح عنها.

وبينما الليل يسدل ستائره، كان كل منهما يعيش حالة من الترقب المكثف، الصمت المشترك، والإشارات المشفرة، كأن العالم كله توقف عن الحركة ليترك لهما مساحة خاصة، مساحة من الحنين والإثارة، دون أي لقاء بعد، لكن مع شعور واضح بأن اللحظة لن تتأخر كثيرًا.

الفصل السابع والعشرون: رسائل المطر

مر صديقه عليه بعد منتصف النهار، ومعه ضحكته المعتادة، وأخذ يقوده إلى الاستراحة الصغيرة المجاورة لبيتها.

كانت مجرد خطوات قليلة، لكنها كافية لتفتح أمامه عالمًا هادئًا، بعيدًا عن ضجيج المدينة، حيث يمكنهما الجلوس بلا ما يشغل بالهما سوى الحديث عن الذكريات والأيام التي مضت.

دخلوا الاستراحة، وابتسامة عريضة تعلو وجهيهما.

المطر بدأ يتساقط برفق خارج النوافذ، قطراته الخفيفة تضرب الزجاج برقة، ومع كل قطرة كان الهواء يتغير، يحمل رائحة الأرض المبللة، ويختلط بعطر القهوة التي تعبق في المكان.

جلسا جنبًا إلى جنب، يمسكان الفنجان بكل ارتياح، والضحكات تتطاير بلا أي هدف سوى الاستمتاع بلحظة بسيطة من الصفاء، من الانفتاح على الماضي والذكريات التي كانوا يحملونها معًا.

تحدثا عن أيام الطفولة، عن المدرسة، عن الأصدقاء، عن الحكايات التي مضت ولم تعد تأتي ثانية، وضحكاته تتناغم مع صوت المطر الخارج، كأن كل شيء منسجم في تلك اللحظة: الماضي والحاضر، الدفء البسيط في الاستراحة، المطر، والضحك الذي يعيد ذكريات قديمة دون أن يثقلها الزمن.

وفي الوقت نفسه، كانت هي في غرفتها، على بعد خطوات قليلة، تشعر بشيء غريب لا يمكن تفسيره.

جلست على الأريكة، كتاب في يدها، وفنجان شاي يتصاعد منه دخان رقيق، يتراقص أمام عينيها مع كل نفس، وكأن كل نفَس يربطها بما يحدث هناك، بقربه بطريقة لم تعرف كيف تصل إليها.

كل ضحكة، كل حركة، كل كلمة تصل إليها بطريقة غير مباشرة، وكأن الجدران لا يمكن أن تمنع شعورًا حيًا ينتقل عبر الهواء، عبر المطر، عبر كل ما يحيط بها.

لم تستطع التركيز على الكتاب، لكن عينيها لم تغادر نافذتها.

رأت قطرات المطر تتلألأ على الزجاج، تسمع صوت المطر الخفيف على الأسطح، وتحس بدفء غريب في صدرها، شعور بأنه أقرب إليها من أي وقت مضى، رغم أنه بعيد عنها مجرد خطوات قليلة.

الدخان من فنجان الشاي كان يراقص أنفاسها، وتابعت كل حركة له في ذهنها، كل ضحكة، كل كلمة، وكأنها تحاول أن تحفظ كل لحظة لتبقى في قلبها وحده.

بعد وقت من التأمل والصمت، ارتدت معطف المطر، أمسكت بالمظلة، وخرجت.

خطواتها كانت ثقيلة لكنها متسارعة، قلبها يخفق بلا توقف، شعور داخلي يدفعها لملاقاة هذه اللحظة، لمراقبته، لتقرأ رسائل المطر التي يحملها كل فصل من المطر الذي يتساقط برفق.

وجدته جالسًا هناك، ظهره مواجهًا لها، ضحكاته تتناغم مع صديقه، يحرّك فنجانه برفق، يشارك الذكريات بصوت خافت.

تجلست خلف نافذة، متخشبة بعض الوقت، غير قادرة على الاقتراب.

لكن عيناها كانت تتجول بين حركاته، كلماته، ضحكاته، كل تفصيل صغير.

أحست بموجة غريبة من الدفء والحنين، شعور مختلط بالخوف والرغبة في المشاهدة بلا أن يلاحظ وجودها.

تمنت أن يظل غير مدرك لها، أن يبقى ظهره فقط لها، لتستطيع أن تطيل النظر، أن تحفظ كل لحظة، أن تعيشها كما لم تعش أي لحظة قبل ذلك.

المطر يهمس برفق على الزجاج، وخيوط الضوء تتلألأ على قطرات المياه، والدخان من الشاي لا يزال يرقص مع أنفاسها.

كل شيء حولها كان يعكس ما يختلج في داخلها: الإثارة، الرهبة، الحنين، والشعور الغامض بأن شيئًا ما بدأ يتحرك، شيء حيّ لم يظهر بعد لكنه محسوس بعمق.

كانت اللحظة صامتة لكنها كاملة، مليئة بكل ما لم يُقَل، بكل ما لم يُسمع، بكل إحساس بدأ يتكشف ببطء، خطوة خطوة، كأنها رسالة سرية بين قلبين لم يلتقيا بعد، لكنهما يعيشانها بكل حواسّهما.

جلست خلف الزجاج، شعورها متخشب، لكن عينيها لم تفارق كل حركة صغيرة له.

كل ضحكة منه كانت كنبضة في قلبها، كل كلمة يرددها مع صديقه كانت تُشعل فضولها، وتثير إحساسًا مختلطًا بالحنين والخوف والإثارة.

شعرت فجأة بأن قلبها يسبق خطواتها، بأن أنفاسها تتسارع مع كل حركة من حركاته، وكأن المطر نفسه يتناغم مع دقات قلبها.

الدخان المتصاعد من فنجان الشاي الذي تركته في غرفتها يرقص أمام عينيها، كأن الهواء نفسه ينقل لها شيئًا من وجوده، كأن كل ثانية تمر تجعل المسافة بينهما أقصر بطريقة غريبة لا تفسير لها.

حاولت أن تهدأ، أغلقت الكتاب، حاولت التركيز على صوت المطر، لكن كل ما كان في ذهنها هو هو، حضوره، ضحكاته، طريقة تحركه، نظراته حين يتحدث مع صديقه، حتى ظهره الذي لم يكن ينظر إليها كان يكفي لتحريك كل شعور دفين.

تساءلت في نفسها:

"لماذا أشعر أنه أقرب إليّ هكذا؟ وكيف للمسافة أن تكون قصيرة جدًا رغم كل شيء؟"

بعد لحظات من التأمل المكثف، أحست برغبة غريبة في الانتقال خطوة للأمام، أن تقترب قليلًا، أن ترى تفاصيل وجهه، أن تسمع صوته بطريقة أكثر وضوحًا.

لكن خوفها كان أكبر، الرغبة في أن يبقى غير مدرك لها، ليتيح لها فرصة التطلع إليه كما تشاء، دون أن تتوقف اللحظة، دون أن ينكسر سحرها.

المطر يهمس بهدوء، قطراته على الزجاج تتناغم مع صوت قلبها، كل خفقة تبدو كإيقاع موسيقي خفي، ينساب في الأجواء.

الضوء الخافت من المصابيح الخارجية يلمع على قطرات المطر، كل شيء حولها أصبح انعكاسًا لشعورها الداخلي: مزيج من الرهبة، الإثارة، الحنين، والشعور بأن شيئًا ما بدأ يتحرك، شيء حيّ، لم يظهر بعد لكنه محسوس بكل وضوح.

استمرت في المراقبة، كل ثانية تمر كانت كرسالة صامتة، كحوار داخلي بين قلبين لم يلتقيا بعد، لكنها تعيشها بكل حواسها، بكل إحساسها، وكأن هذه اللحظة وحدها تكفيها لتشعر بأن شيئًا جديدًا بدأ يكتب نفسه في حياتها، شيئًا يقترب، شيئًا لا يمكن تجاهله.

جلست لحظة تتأمل، قلبها يخفق بسرعة، وكانت كل خفقة تصنع صدى داخليًا يربطها بما يحدث في الاستراحة المجاورة.

المطر يتساقط برفق، صوت قطراته على الزجاج يضيف بعدًا صامتًا لكل إحساس يختلج بداخلها.

الدخان المتصاعد من فنجان الشاي في غرفتها لا يزال يراقص أنفاسها، وكأن كل خيط دخان يربطها بحضوره، بحركاته، بابتسامته.

بعد دقائق من التأمل، أحست بحاجة إلى أن تتحرك خطوة صغيرة، أن تقترب قليلًا، أن تشاهد بشكل أوضح، أن تلتقط تفاصيله بدقة أكبر.

ارتدت معطف المطر، أمسكت بالمظلة، وخرجت من شرفتها، تتنفس الهواء البارد، وتشعر بقطرات المطر الخفيفة على وجهها، وكأن كل قطرة تفتح جزءًا جديدًا من شعورها.

اقتربت من نافذة الاستراحة، لكنها لم تدخل، جلست خلفها، متخشبة بعض الوقت، تنتظر، تتأمل ظهره.

كل حركة منه كانت تُسجل في ذهنها: الطريقة التي يميل بها على فنجانه، ضحكاته الخفيفة، الكيفية التي يرد بها على صديقه، كل كلمة، كل نبرة، كل تفصيل صغير كان كافياً ليشعل شعورًا جديدًا في قلبها.

أحست بمزيج من الرهبة والإثارة والحنين، شعور غريب يجعل قلبها يرفرف، بينما عقلها يكرر:

"لماذا أشعر أنه أقرب مني هكذا؟ ولماذا كل شيء حوله يبدو كأنه يخصني وحدي؟"

ظلّت متوقفة، ترقب كل حركة، تتمنى أن يظل ظهره لها، حتى تستطيع أن تطيل النظر إليه بلا أن يراها، بلا أن يكسر سحر اللحظة.

المطر، الضوء الخافت، رائحة القهوة والدخان، كل هذه التفاصيل جعلت شعورها داخليًا أكثر قوة، كأن كل ثانية تمر تقربها منه بطريقة لا يمكن تفسيرها.

وأخيرًا، بعد فترة من الصمت والانتظار، بدأت تشعر أنها تستطيع أن تلتقط الرسائل الخفية، الإشارات الصغيرة التي يرسلها المطر، ضحكاته، وحتى صمته أحيانًا، كل شيء أصبح جزءًا من لغة جديدة تفهمها وحدها.

كانت اللحظة صامتة لكنها مكتملة، مليئة بكل شعور لم يُقل، بكل رغبة لم تُفصح، وكل إحساس بدأ يتكشف ببطء، خطوة خطوة، كرسالة سرية بين قلبين لم يلتقيا بعد، لكنهما يعيشانها بكل حواسّهما، وكل شعور داخلي أصبح أكثر وضوحًا، أكثر قوة، وأكثر قربًا.

كان الصباح هادئًا على نحوٍ غير معتاد، ضوءٌ رماديّ خافت يتسلل بخجلٍ من خلف الغيوم، وقطرات المطر العالقة على زجاج النافذة ترسم خطوطًا متكسّرة كأنها تحاول أن تكتب شيئًا لم تكتمل حروفه بعد.

في ذلك الصباح بالتحديد، شعرت بحاجةٍ غريبة لأن تلتقط صورة... لا لتحتفظ بها، بل لتبوح من خلالها بما لا تستطيع قوله.

فتحت الستائر قليلًا، ووضعت كوب القهوة قربها، وارتدت وشاحًا خمريّ اللون طالما أحبّته — ذاك اللون الذي كانت تشعر أنه يمنحها شيئًا من الدفء حين يتسلل البرد إلى داخلها أكثر مما يحتمل القلب.

ألقت نظرة طويلة في المرآة قبل أن تلتقط الصورة، وكأنها كانت تراجع ملامحها لا لتتأكد من حسنها، بل لتتأكد من قدرتها على البوح الصامت.

لم تضع كلماتٍ أسفل الصورة حين نشرتها، تركتها عارية من التعليق تمامًا، فالصمت — كما تعلم — أحيانًا هو اللغة الوحيدة التي لا تخونك حين تتكلم الحروف أكثر مما ينبغي.

لم تنتظر شيئًا محددًا، لكنها كانت تعرف أن هناك من سيراها ويقرأ ما بين الألوان والنظرات.

هو وحده من يعرف كيف يقرأها دون أن تكتب حرفًا واحدًا.

مرّ اليوم بطيئًا، كأن الوقت تواطأ مع الانتظار ليختبر صبرها.

كانت تعود كل بضع ساعات لتتأمل الصورة، لا لتقرأ التعليقات، بل لتعيد النظر في عينيها داخلها، وكأنها تحاول أن تفهم نفسها من جديد.

ثم في المساء، بينما كان المطر يعود خفيفًا على زجاج النافذة، ظهر منشورٌ جديد على حسابه.

لم يذكر اسمًا، ولم يشر إلى شيءٍ محدد، لكنّها حين قرأته شعرت بأن الكلمات خرجت من أعماقها لا منه:

"ثمّة ألوان لا تُرى بالعين، بل تُلمَس بالقلب.

لونٌ خمريٌّ يوقظ في الذاكرة رائحة المساء الأول،

وخصلات ضوءٍ ذهبيّة تنام على الكتفين كذكرى قديمة،

وابتسامة رمادية تحمل في ظلّها وعدًا بالمطر.

كم من أنوثةٍ يمكن أن تختبئ في سكون الصورة، وكم من ضجيجٍ يمكن أن تتركه في القلب!"

تجمّدت للحظة وهي تقرأ.

رفعت رأسها عن الهاتف، نظرت إلى المرآة التي كانت لا تزال تعكس وشاحها الملقى على المقعد.

لم يكن في قلبها شكّ، هو كتب عنها، هو رآها، بل رآها أكثر مما كانت تريد أن تُرى.

أعادت قراءة كلماته مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة كانت تشعر أن المعنى يزداد عمقًا، وكأن كل جملة تحمل بين طيّاتها شيئًا من نفسه القديمة التي لم تمت بعد.

كانت تريد أن تكتب شيئًا، أن تردّ، لكنّها لم تفعل.

آثرت الصمت، لكنها تلك الليلة لم تستطع النوم.

بقيت ساهرة، تحت ضوءٍ خافتٍ من المصباح المجاور للسرير، تحدّق في الشاشة، تقرأ كلماته وتغلق الهاتف، ثم تعود إليه، وتغلقه من جديد.

وعندما غلبها النعاس أخيرًا، كانت ابتسامة صغيرة لا إرادية تلامس شفتيها، كأنها تستسلم لوعدٍ لم يُقل بعد، لكنها تشعر به يتكوّن في مكانٍ ما، بهدوءٍ يشبه المطر.

الفصل السادس والعشرون

بوحٌ لا يُسمّى

استيقظت متأخرة في ذلك الصباح، وكأن الليل أبى أن يغادر عينيها تمامًا.

كانت الغرفة تسبح في ضوءٍ ناعمٍ رماديّ، والمطر يواصل طرقه الخفيف على زجاج النافذة كما لو أنه يذكّرها بأن شيئًا ما حدث في الليلة الماضية.

مدّت يدها إلى الهاتف بتثاقل، لم تكن تريد أن تفتحه، لكنها فعلت — لا لتقرأ الأخبار أو الرسائل، بل لتطمئن أن كلماته ما زالت هناك، في مكانها، لم تختفِ مع زوال الليل.

قرأتها مجددًا، بنفس البطء الأول، بنفس الخفقة الخفيفة التي تسري في صدرها كلما وصلت إلى كلمة الأنوثة التي كتبها.

لم تكن تلك الكلمة عادية، بل كأنها نُطقت بنبرةٍ تخصها وحدها.

جلست في صمتٍ طويل، تضع الهاتف على ركبتيها، وتفكر:

هل أراد أن يقول شيئًا آخر؟ أم أنها هي التي أفرطت في التأويل؟

لكنّ شيئًا في داخلها كان يهمس بيقينٍ غامض: لا، هو يقصدني.

نهضت ببطء، أعدّت فنجانًا من القهوة، وجلست أمام النافذة.

كانت السماء قد بدأت تتفتح قليلاً، لكن غيمة رمادية ما زالت تحوم فوق المدينة كظلٍّ من الحنين.

فتحت مفكرتها، قلّبت بعض الصفحات، ثم بدأت تكتب شيئًا لا تدري له وجهة:

"بعض الألوان لا تُرسم، بل تُحسّ حين يمرّ القلب على ظلّها.

هناك من يعرف كيف يرى ما لم يُقل،

ومن يوقظ فينا الذاكرة التي حاولنا طيَّها مرارًا..."

لم تكن تخطط لنشرها، لكنها حين أعادت قراءتها، شعرت أن فيها شيئًا من التلميح، من الردّ الهادئ دون مباشرة، من البوح المتخفّي في ظلال الكلام.

فتحت حسابها، وكتبت تلك الأسطر تحت صورةٍ قديمةٍ التقطتها منذ أشهر، صورة لسماءٍ تبتسم بعد مطر، فيها تدرجات زرقاء شاحبة كأنها تُكمل لوحة الأمس.

ثم أغلقت الهاتف دون أن تنتظر شيئًا.

في الجهة الأخرى، كان هو جالسًا في مكتبه، يراجع بعض الأوراق دون تركيز.

كانت كلماته التي كتبها بالأمس قد لاقت تفاعلاً عاديًا، لكنه كان يعرف أن تفاعلًا واحدًا فقط يعنيه — ذلك الذي لم يظهر، لكنه حدث بالفعل.

فتح هاتفه بتلقائية، مرّ على حسابها، وفوجئ بتلك الصورة الجديدة.

قرأ كلماتها ببطء، ثم توقف عند الجملة الأخيرة، وابتسم تلك الابتسامة التي لا تراها إلا من يعرفه جيدًا.

هي فهمت. بل وأكثر من ذلك... أجابت.

رفع رأسه، ألقى نظرة على المطر الذي بدأ مجددًا خلف الزجاج، وقال في نفسه:

"ليست مصادفة... لم تكن يومًا مصادفة."

ثم كتب منشورًا جديدًا بعد ساعة:

"أحيانًا يكون الردّ بصمتٍ يحمل كل الكلمات.

من يعرف الألوان... يعرف صاحبها."

لم يذكر اسمها، لكنها حين قرأت تلك الجملة بعد الظهر، شعرت بقلبها يخفق بعنفٍ غير مبرر.

كأن الكلمات كانت تلامسها بالفعل، تقترب، ثم تعود لتترك أثرها.

لم تكتب شيئًا، لم تردّ، لكنها في تلك الليلة لم تستطع القراءة ولا النوم.

بقيت تتأمل الشاشة، تتابع المطر في الخارج، وتشعر أن لعبة الضوء والكلمات قد بدأت — لعبة لا أحد يعرف إلى أين ستأخذهما، لكنها تعرف أنها لا تريدها أن تنتهي.

الفصل السابع والعشرون

ظلّ الكلمات

لم يكن المساء مختلفًا عن سابقيه في ظاهره، لكن شيئًا في داخله كان يعرف أن الليلة لن تمضي عادية.

جلس في شرفته القديمة، المكان الذي صار له طقسه الخاص منذ سنوات — فنجان القهوة الأسود، الموسيقى الكلاسيكية التي تتكرر كل ليلة، وضوء خافت ينسكب على الطاولة الصغيرة كصفحة من ذاكرة لم تكتمل.

الهواء بارد، والسماء محمّلة بغيومٍ رمادية ثقيلة، كأنها تشاركه حاله، تتردّد بين البوح والانفجار.

أشعل سيجارة بهدوء، وأطلق أول أنفاسها في الهواء.

كانت رائحة المطر مختلطة بدخانها تصنع شيئًا يشبه الطمأنينة، وإن كانت طمأنينة مشوبة بالحذر.

تأمّل المدينة التي تنام على ضوء المصابيح الصفراء في الشوارع البعيدة، ثم تناول هاتفه وفتحه ببطءٍ كما يفعل من يخشى أن يواجه نفسه.

مرّت أصابعه على شاشته حتى وصلت إلى صفحتها.

كانت الصورة لا تزال كما هي، وتحتها كلماتها القليلة التي حفظها عن ظهر قلب منذ قرأها أول مرة.

قرأها مجددًا، لا ليكتشف معناها — فقد عرفه منذ اللحظة الأولى — بل ليعيد استحضار تلك النبضة التي شعر بها حين قرأها لأول مرة.

كانت نبضة مختلفة، تشبه تذكّر شيءٍ لم يمت تمامًا.

ارتشف رشفة من قهوته الباردة الآن، وهمس لنفسه كأنه يحاور صدى بعيدًا:

"كيف يمكن لكلمةٍ واحدةٍ أن تفتح كل هذه الأبواب المغلقة في الذاكرة؟ كيف تفعل هي ذلك دون أن تحاول؟"

كان يعرف أن العودة إليها خطر.

يعرف أن كل الطرق المؤدية إليها مفروشة بالذكريات، وكل ذاكرة فيها شوكة.

لكنه لم يستطع التراجع، كان الشعور أقوى من إرادته، والحنين يسحبه من أطراف وعيه كما تسحب الموجة الغافلة من يقف على الشاطئ دون انتباه.

أدار الموسيقى من جديد، اختار مقطوعة قديمة لتشايكوفسكي، تلك التي كانت ترافقه في ليالي الكتابة الأولى، حين كان يظن أنه تجاوزها.

لكنها الآن عادت لتكون خلفية المشهد نفسه، وكأن الزمن لم يتحرك خطوة واحدة.

جلس يتأمل كلماته التي كتبها عصرًا — تلك الجملة التي ردّ بها عليها — وبدأ يسأل نفسه:

هل بالغ في وضوحها؟ هل كان ينبغي أن يكتب شيئًا أبسط، أو أن يصمت تمامًا؟

ثم ابتسم، تلك الابتسامة التي لا تحمل فرحًا ولا ندمًا، بل يقين العارف بأنه في الطريق الذي لا يمكن العودة منه.

أمسك قلمه، وبجانب فنجانه المهجور فتح دفتره الذي لم يكتب فيه منذ أشهر، وبدأ يخطّ على الصفحة البيضاء:

"الحنين ليس إلى الأشخاص فحسب، بل إلى ما كنا عليه ونحن معهم.

كأننا نشتاق إلى ذواتنا القديمة التي ماتت حين غابوا...

وها أنا الآن أفتش بين الكلمات عنّي، وعنها، وعن ذلك الطفل الذي كنتُه يوم التقيتُها أول مرة."

توقف قليلاً، نظر إلى الجملة الأخيرة، وشعر بشيءٍ يشبه الرجفة.

لم يكن يكتب عنها فقط، بل عن نفسه كما يراه فيها — وكأنها مرآته القديمة التي استعادت وضوحها فجأة.

رفع رأسه نحو السماء المبللة، وأغمض عينيه.

تخيلها هناك، في الجهة الأخرى من المدينة، تجلس في هدوء، ربما تقرأ الآن شيئًا له، أو ربما تنظر إلى المطر كما يفعل هو.

لم يكن متأكدًا، لكنه كان يشعر بها بقربٍ لا يمكن تفسيره.

همس لنفسه:

"ربما لا أحتاج لأن أراها بعد الآن.

يكفيني أن أعرف أنها ما زالت هناك، وأن الكلمات بيننا عادت تتنفس من جديد."

ثم أطفأ الموسيقى، وترك الليل يتمدد حوله كوشاحٍ من صمتٍ دافئ،

ليدرك في النهاية أن ما عاد إليه لم يكن حنينًا فقط، بل رغبة في الحياة كما كان يعرفها يوم كانت هي في قلبها.

الفصل الثامن والعشرون

ارتباك الضوء

لم تنم تلك الليلة كما ينام الناس، كانت ما بين يقظةٍ وشرودٍ طويل، بين تفكيرٍ يحاول أن يُطفئ نفسه فلا يفلح، وقلبٍ يستيقظ كلما خفّ ضوء الغرفة.

تقلّبت فوق الفراش كمن يلاحق صدى لا يسمعه إلا هو.

أغمضت عينيها مراتٍ كثيرة، لكنّ الكلمات التي كتبها لم تتركها.

كانت تمرّ على جملته الأخيرة في ذهنها مرارًا، كما لو كانت تلمسها بيديها، وتعيد قراءتها دون هاتفٍ أو شاشة.

"من يعرف الألوان... يعرف صاحبها."

جملة بسيطة، لكنها كانت تعرف تمامًا ما تعنيه.

كانت كأنها سُمٍّ جميل — يوقظ ويُربك، يُعيد للحواس دفئها، لكنه لا يمنح الطمأنينة.

قامت في آخر الليل، جلست إلى النافذة، ورفعت الستارة قليلًا.

السماء ما زالت تمطر بخفةٍ شديدة، والمصابيح البعيدة ترسم دوائر ذهبية على الرصيف المبلل.

وضعت رأسها على الزجاج البارد، وتنفّست بعمقٍ كأنها تبحث في المطر عن صوتٍ تعرفه.

كم اشتاقت لذلك الشعور الذي لم تعرف له اسمًا يومًا — ذلك المزيج من الارتباك والسكينة، من الخوف والرغبة في البقاء.

كانت تعرف أن ما يحدث الآن ليس صدفة.

ثمة شيءٌ تحرّك بداخلهما معًا، وكأن الغياب الطويل كان نَفَسًا بين سطرين في قصة لم تُكتب بعد.

لكنها أيضًا تعرف أن الزمن الذي يقف بينهما ليس حائطًا سهلاً، بل جدارًا من تجاربٍ وندوبٍ وأخطاءٍ نضجت بمرور الوقت حتى صارت حذرًا متجسدًا في هيئة امرأة.

جلست إلى طاولتها، أعدّت كوبًا من الشاي بالنعناع، تراقب بخاره يتسلل ببطءٍ نحو وجهها، تمامًا كما كانت تفعل في الأيام الصعبة بعد تلك الصدمة القديمة.

لم تنسَ بعد كيف خذلها الآخر، وكيف خرجت من حبٍّ كان يعدها بالسماء تاركًا في روحها فراغًا يشبه الغرق.

ومنذ ذلك اليوم، كانت كل محاولةٍ للحب تشبه السير في طريقٍ مبللٍ بالخوف.

أما الآن، فكل ما فيها يرتجف بين نداءٍ قديم وصوتٍ داخليٍّ يحذرها: إياكِ أن تعودي إلى نفس الجرح بوجهٍ آخر.

لكنها لم تستطع أن تغلق الباب تمامًا.

ففي أعماقها، ثمة نافذة صغيرة ما زالت مفتوحة على نوره القديم.

الدفء الذي تعرفه جيدًا، ذلك الذي لا يحتاج إلى كلامٍ ولا شرح، فقط يكفي أن يمرّ في الذاكرة حتى يرتجف القلب.

تسللت إلى هاتفها دون وعيٍ منها، فتحت حسابه، وقرأت منشوره الأخير مرة أخرى.

ثم انتقلت إلى صفحته القديمة، تتنقّل بين كلماته، صوره، بوحه الذي كتب بعضه قبل سنواتٍ ربما كانت فيها هي موضوعه دون أن تدري.

وكلّما قرأت أكثر، شعرت أن المسافة بينهما تتقلص — لا بالزمن، بل بالحنين.

وضعت الهاتف على الطاولة، وأسندت رأسها إلى المقعد، تنظر إلى السقف كما لو كانت تستنطق الفراغ:

"هل يمكن للقدر أن يعيد ترتيب الفوضى القديمة؟

هل يعود من كان يومًا خلاصنا ليكون اختبارنا من جديد؟"

ابتسمت ابتسامةً باهتة، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ كمن يعترف لذاته:

– “ربما كتبت له الألوان ليقرأني، ولم أكن أريد أن أعترف حتى لنفسي.”

وحين أغلقت عينيها، لم ترَ وجهه كما كان، بل كما تراه الآن — رجلًا نضج الحنين في عينيه، وصار صوته أكثر عمقًا، وهدوءه أكثر وجعًا.

ذلك الهدوء الذي تخافه النساء لأن وراءه دومًا عاصفة.

نامت أخيرًا قرب الفجر،

وفي يدها الهاتف،

وكأنها تخاف أن تفوتها رسالة،

أو أن يفوتها أن تحلم به.

الفصل التاسع والعشرون

الجرأة الأولى

كان الصباح هذه المرة مختلفًا، فيه ضوء لا يشبه ما اعتاده في أيامه السابقة، ضوءٌ يحمل شيئًا من الحياة القديمة التي نسي كيف يشمّها.

فتح النوافذ على اتساعها، فدخل الهواء محمّلًا برائحة المطر وبصوت المدينة التي تستيقظ ببطءٍ.

وقف هناك قليلًا، ينظر إلى الشارع الهادئ، إلى الأشجار التي ما زالت تلمع من أثر البلل، وتسلّل إلى نفسه شعورٌ غريب، مزيجٌ بين الرغبة والقرار.

جلس إلى مكتبه، وأمام فنجانه الذي بدأ يتصاعد منه بخارٌ خفيف، فتح صفحة جديدة على جهازه.

مرّر أصابعه على لوحة المفاتيح، ثم توقف.

كأن الكلمة الأولى كانت ترفض أن تأتي، أو ربما كانت تنتظر أن يُنصت جيدًا لصوتها.

كان يعرف أنه سيكتب عنها — لا عنها كاسمٍ أو ماضٍ، بل عنها كحضورٍ أصبح يملأ أي فراغٍ بينه وبين المعنى.

أغمض عينيه، واستدعى صورتها الأخيرة — تلك الألوان التي اختارتها، الوشاح الخمريّ، الضوء الذهبيّ، النظرة التي تميل إلى الغياب أكثر من الحضور.

ثم بدأ يكتب، لا ككاتبٍ يحسب أثر كلماته، بل كمن ينزفها:

"هي امرأة لا تُعرَّف، لأن التعريف يُنقصها.

فيها من الخمر لونٌ لا يُسكر، بل يُفيق.

في صوتها صدى المدن القديمة، وفي صمتها نداء البحر عند الغروب.

تمشي كما تمشي الفكرة في ذهن شاعرٍ لا يملك سبيلاً إلى النوم.

في ابتسامتها وعدٌ مؤجل، وفي عينيها سؤالٌ لا إجابة له.

لا أذكر متى بدأت تشبه الحلم، لكني منذ رأيتها لم أعد أستيقظ."

قرأ النص أكثر من مرة، ثم تركه بلا تعديل، كما خرج أول مرة، صادقًا وعاريًا من التكلّف.

تردد للحظة — أيكتبه؟ أيتحمّل ما سيأتي بعده؟

ثم قال في نفسه وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

"ما جدوى الصمت بعد كل هذا؟ الكلمات خُلقت لتُقال."

نشره، ثم أغلق الهاتف ووضعه على الطاولة.

لم يمر وقت طويل حتى بدأ الهاتف يهتزّ بإشعاراتٍ لا تنتهي — تعليقات، إعجابات، رسائل، وجمل متقاطعة من متابعين يحاولون فكّ الرموز.

كان بعضهم يكتب: من تكون؟

وآخرون يسألون: هل هي عادت؟

لكنه لم يرد، ترك الجميع في غموضهم، لأن أحدًا منهم لا يعرف أن المعنى الحقيقي ليس لهم.

وفي مكانٍ ليس ببعيد، كانت هي في مكتبها، تحاول التركيز في عملها حين لفت نظرها منشورٌ مشترك من صديقةٍ قديمة كتبت:

"كلماتك اليوم تشبه المطر يا فلان... من تكون هي؟"

كأن العالم كله تآمر على كشف السرّ.

فتحت الصفحة، وقرأته ببطء.

كل جملة فيه كانت تمسّها كما لو كانت تُقال في أذنها مباشرة.

ارتجفت أصابعها، حاولت أن تتجاهل، لكن عينيها خانتاها فعادتا إلى النص مرة أخرى.

كل شيء فيه يصرخ باسمها وإن لم يُذكر.

شعرت بدفءٍ يصعد إلى وجهها، وبخوفٍ يهبط إلى قلبها في آنٍ واحد.

هل يقصدها فعلاً؟ أم أراد فقط أن يكتب؟

لكنها كانت تعرف الجواب، تعرفه جيدًا.

تذكّرت كلماته القديمة عن الألوان، تذكّرت صمته الطويل الذي تلاه، ثم هذه الجرأة التي تشبه اندفاع من اشتاق حدّ الوجع.

لم تكتب تعليقًا، لم تجرؤ، اكتفت بأن تغلق الهاتف، لكنها ظلت تحمل صوته في رأسها طوال اليوم، كأنه يُعيد قراءة النص بصوته المبحوح الذي ما زالت تذكره.

ولأول مرة منذ زمن، نظرت إلى وجهها في المرآة وابتسمت بخجلٍ خفيفٍ لم تعرف سببه تمامًا، لكنها أدركت أن شيئًا قد كُسر في جدارها — ربما الخوف، أو ربما المسافة.

في تلك الليلة، كتبت في مفكرتها جملة واحدة فقط:

“حين يكتب عنك أحدهم بهذا الصدق، لا تعودي كما كنتِ أبدًا.”

ثم أغلقت دفترها، وأطفأت الضوء،

لكن النوم لم يأتِ — لأن كلماته ظلت تضيء العتمة كنجمةٍ لا تنطفئ.

الفصل الثلاثون

ارتباك الضوء

لم تكن تنوي أن تستيقظ باكرًا، لكن شيئًا ما أيقظها قبل الموعد بساعة.

شعرت بالهواء ساكنًا على غير عادته، كأن الصباح نفسه يتريّث في حضوره.

نهضت ببطءٍ، وسارت نحو النافذة، فتسلّل الضوء الرماديّ من خلف الستائر، يلمس وجهها كتحيةٍ خجولة.

كل شيء بدا مألوفًا، إلا إحساسها الداخليّ الذي لم تعرف له اسمًا بعد.

كانت تفكر في النص الذي قرأته بالأمس — تقرأه في ذهنها حرفًا حرفًا كأنها لم تحفظه عن ظهر قلب.

كل جملة منه كانت تُعيد ترتيب ذاكرتها، توقظ فيها حنينًا ظلّ نائمًا في الزوايا البعيدة.

حتى عباراته التي لم تشر إليها صراحة، كانت تشبهها حدّ الخوف.

هي تعرف لغته جيدًا، تعرف طريقته في إخفاء المعنى داخل الصور، تعرف متى يتعمّد الغموض ومتى يستسلم له.

ولهذا، كانت متأكدة أنه كتب عنها.

لكن اليقين نفسه كان ثقيلًا، كأنه مسؤوليةٌ لا تريد أن تحملها.

أعدّت فنجان شايها كعادتها، وجلست في مكانها المفضل قرب النافذة.

كانت تمسك بالكتاب نفسه الذي قرأته البارحة، لكنها لم تستطع تجاوز السطر الأول.

كأن الحروف الأخرى ترفض أن تزاحم كلماته في رأسها.

نظرت إلى البخار الصاعد من الفنجان، تراقصه الخفيف في الهواء، وتذكّرت كيف كتب عنها "اللون الذي لا يُسكر بل يُفيق" — فابتسمت، ثم استدركت ابتسامتها بخجلٍ طفوليّ.

فتحت هاتفها — مرة أخرى.

دخلت إلى صفحته، ثم خرجت، ثم عادت بعد لحظة.

تكررت الحركة كأنها عادة جديدة تتشكل بلا وعي.

كل التعليقات التي انهالت على منشوره بدت لها ضوضاء بلا معنى، كانت تبحث فقط عن الإشارات الصغيرة التي تخصّها وحدها.

عن حرفٍ مألوفٍ في تعليق، أو كلمةٍ تشبه حوارهما القديم.

لكن لا شيء من ذلك كان هناك.

هو كتب، ثم صمت — كعادته.

في عملها، لاحظت زميلتها الشرود الذي لا يُخفى.

قالت ممازحة:

– يبدو أنكِ غارقة في الحب هذه الأيام.

ارتبكت، ثم ضحكت ضحكة قصيرة حاولت أن تبدو عادية، لكن صوتها خانها قليلًا.

– لا، فقط لم أنم جيدًا البارحة.

تركتها زميلتها، لكن الكلمة ظلت عالقة في ذهنها: الحب.

هل هو حب؟ أم حنينٌ متأخر؟ أم مجرد صدى لشيءٍ لم يحدث أصلًا؟

عند المساء، وبينما كانت تغلق الحاسوب وتستعد للعودة، خطر في بالها أن تمرّ من الطريق الذي يمرّ بجوار تلك الاستراحة المجاورة لبيتها — كأنها تريد أن تطمئن أن المكان ما زال هناك.

لم يكن هناك سببٌ ظاهر، فقط رغبة غامضة في أن ترى المشهد من بعيد.

سارت بخطواتٍ بطيئة، المطر الخفيف بدأ يطرق الأرض كأنما يهمس بحروفٍ تعرفها.

حين وصلت، توقفت أمام الزاوية التي يطلّ منها مقعده القديم.

لم يكن أحدٌ هناك، فقط بقايا ضحكةٍ علقت على الجدار، أو هكذا خُيّل لها.

استندت إلى السور الحجريّ للحظات، وشعرت أن شيئًا في داخلها يُشفى، وشيئًا آخر يُكسر في الوقت نفسه.
ثم عادت أدراجها، تحمل في ذهنها تلك الجملة التي لم تفارقها منذ قرأت كلماته:

"في عينيها سؤال لا إجابة له..."

همست لنفسها بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه أحد:
– ربما لا يريد الإجابة... وربما ينتظر أن أسأل أنا.

لكنها لم تفعل.
كل ما فعلته أنها، تلك الليلة، فتحت دفاترها القديمة، وكتبت سطرًا وحيدًا بلونٍ خمريّ داكن:

"كل الكلمات التي تكتب عني، تُعيدني إليّ."

ثم أغلقت الدفتر، وأطفأت النور،
لكن قلبها ظلّ مضاءً، كما لو أن نصّه الأخير كان شمعة لم تنطفئ بعد.

الفصل الحادي والثلاثون

اعترافات مؤجلة

في صباحٍ رماديٍّ بارد، جلس أمام نافذته كعادته، الفنجان بين يديه يبرد قبل أن يلمس شفتيه.
لم يكن الصباح مختلفًا في شكله، لكنه بدا له غريبًا في صمته، كأن شيئًا ما في الهواء يراقبه هو الآخر.

كانت الموسيقى الكلاسيكية تدور بخفوت في الخلفية — مقطوعة لتشايكوفسكي طالما أحبّها في لحظات الكتابة الأولى، لكنها اليوم لم تُلهمه شيئًا، بل زادت اتساع الفراغ في داخله.

حاول أن يكتب عن موضوعٍ آخر، أيّ موضوع، كي يهرب من التفكير فيها.

لكن الكلمات كانت تدور حولها ككواكب صغيرة لا تعرف إلا مدارها القديم.

كتب جملة ثم مسحها، كتب ثانية، ثم توقف طويلًا.

رفع رأسه، نظر إلى نافذته، وإلى الشارع المبتلّ بالمطر الخفيف، وتذكر تلك الاستراحة القريبة من بيتها — الاستراحة التي جلس فيها قبل أيام، ضاحكًا مع صديقه وهو لا يدري أنه على مقربةٍ منها.

كان المطر يومها يشبه ما يراه الآن تمامًا، كأن السماء تُعيد المشهد لتذكّره بما لم يقل.

دخل عليه صديقه دون موعدٍ مسبق، حاملاً قهوته من المقهى المجاور.

نظر إليه طويلًا ثم قال:

– منذ متى بدأت تصمت هكذا كثيرًا؟

ابتسم بخفوت:

– ربما منذ بدأت أستمع أكثر مما أتكلم.

ضحك صديقه وهو يجلس:

– بل منذ بدأت تفكر بمنشورٍ وتراجع نفسك ألف مرة قبل أن تكتبه.

لم يردّ، فقط أشاح بوجهه إلى النافذة.

كان صديقه يعرفه جيدًا، يعرف متى يكتب ليهرب، ومتى يكتب لأنه لم يعد يحتمل الهروب.

قال له وهو يرشّ بعض السكر في فنجانه:

– هل هي هي؟ تلك التي كتبت عنها آخر مرة؟

أجابه بصوتٍ منخفضٍ لكنه حاسم:

– لا أكتب عنها... أكتب منها.

رفع صديقه حاجبيه بدهشةٍ صامتة، ثم تركه في حاله، كمن يخشى أن يوقظ جرحًا مازال ينزف.

بعد أن غادر صديقه، عاد هو إلى الورقة البيضاء أمامه.

هذه المرة لم يتردّد كثيرًا.

ترك ليده أن تكتب، دون تفكير.

كانت الكلمات تأتي عارية، حارة، بلا أقنعة ولا استعارات.

كتب:

"هي تشبه الضوء حين يتسلل من بين الغيوم، لا يقصد أن يُرى لكنه يفضح كل ما يلمسه.

فيها من المطر ما يكفي لغسل هذا القلب، ومن النار ما يكفي لإشعاله.

حين تمرّ صورتها في خاطري، يختلط الحنين بالدهشة، كأن القدر أراد أن يختبر قدرتي على التماسك.

لا أعرف إن كنت أكتبها أم أكتبني فيها، كلّ ما أعرفه أن حضورها يشبه العودة إلى بيتٍ لم أعد أملكه، لكنه مازال يحمل اسمي عند الباب."

قرأ ما كتبه مرارًا، ثم وضع يده على صدره كمن يهدّئ اضطرابًا داخليًا.

لم ينشره بعد، فقط تركه في المسوّدة، كمن يخشى أن يفتح بابًا لا سبيل لإغلاقه.

عند المساء، خرج يتمشى وحيدًا في شوارع المدينة الهادئة.

المطر الخفيف كان يتبع خطاه، والمصابيح تلمع بلونٍ ذهبيٍّ حزين.

توقف عند الجسر المطل على النهر، وأسند ذراعيه إلى السور الحديديّ.

هناك، شعر أنه أقرب إليها من أي وقت مضى، وكأن الهواء المشبع بالمطر يحمل رائحتها في طريقه إليه.

ابتسم بمرارةٍ خفيفة، وقال في نفسه:

– إن كانت تقرأ ما أكتب، فلتعرف أني ما عدت أستطيع التوقف.

ثم عاد إلى بيته، وفتح المسوّدة، وأضف السطر الأخير دون تردد:

"إلى التي علمتني أن الحنين لا يُشفى منه، بل يُتَعايش معه."

ثم ضغط على "نشر".

لم يكتب اسمًا، ولم يضع إشارة، لكنه كان يعرف أن من يجب أن تفهم، ستفهم.

وأنها، الآن، ربما تقرأ.

الفصل الثاني والثلاثون

ارتباك الضوء

كانت تقرأ في هدوءٍ متصنع، تحاول أن تغرق في سطور رواية لم تعد تراها أصلًا، حين اهتز هاتفها بإشعارٍ جديد.

نظرت إليه بلا اهتمام أولاً، ثم تجمّدت ملامحها حين رأت اسمه يعلو المنشور.

كان هو.

لم تجرؤ على فتحه في البداية، كمن يخشى أن يواجه مرآة روحه بعد غياب طويل، لكن الفضول – أو ربما النداء الخفي في صدرها – دفعها في النهاية إلى ذلك.

قرأت الجمل ببطءٍ، كلمةً كلمة، كما لو كانت تخشى أن تفلت منها إحداها قبل أن تفهم معناها:

"هي تشبه الضوء حين يتسلل من بين الغيوم..."

"حين تمرّ صورتها في خاطري، يختلط الحنين بالدهشة..."

“إلى التي علمتني أن الحنين لا يُشفى منه...”

كأن الكلمات خرجت من بين ضلوعها لا من قلمه.

شعرت بحرارةٍ خفيفة تملأ وجهها، وارتجفت أصابعها فوق الشاشة.

لم يكن فيها ما يصرّح، لكنها تعرف...

كانت تعرف أن الألوان التي ذكرها في منشوره السابق لم تكن صدفة، وأن “الضوء” الذي تحدّث عنه هو الضوء ذاته الذي انساب على كتفها في الصورة الأخيرة، وأن “الحنين” هذا ليس مجرد ذكرى عابرة.

أعادت قراءة المنشور ثلاث مرات، وفي كل مرة كانت تجد فيه نغمة جديدة، كأن حروفه تتبدّل تحت تأثير نظراتها.

ثم أغلقت الهاتف فجأة، ودفنته في الوسادة كمن يخشى أن يُرى شعوره.

تنفست بعمق، محاولةً أن تستعيد اتزانها، لكن أنفاسها كانت ترتجف كنبضٍ فقد انتظامه.

رنّ جرس الباب، كانت صديقتها المقربة قد جاءت على غير موعد.

فتحت لها الباب بوجهٍ مرتبكٍ وابتسامةٍ باهتة.

لاحظت صديقتها الارتباك فورًا، فقالت وهي تخلع معطفها:

– ما بالكِ؟ وجهك محمرّ كأنك كنتِ في سباق.

ضحكت بخفوت:

– لا شيء... فقط البرد.

– برد في منتصف الغرفة؟

ثم التفتت نحو الطاولة، حيث كان الهاتف ملقى كأنه يخفي سرًّا.

رفعت حاجبيها وقالت:

– هو كتب شيئًا جديدًا، أليس كذلك؟

ترددت لحظة، ثم جلست على الأريكة وقالت بصوتٍ خافت:

– نعم.

– وماذا كتب؟

– لا أدري كيف أشرح... وكأنّه يعيد إليّ شيئًا لم أكن أريد عودته.

صمتت صديقتها برهةً، ثم اقتربت منها وقالت برفق:

– لم أركِ بهذا الاضطراب منذ زمن.

هل ما زال يعني لكِ كل هذا؟

نظرت إليها بعينين زجاجيتين وقالت:

– لا أدري... لكني خفت حين قرأته، خفت من نفسي.

أمسكت صديقتها يدها، وقالت:

– لا تكرّري ما حدث في الماضي، لا تتركي قلبكِ يصدّق إلا ما يُقال وجهًا لوجه.

أومأت برأسها، لكن كلماتها لم تُطمئنها.

فحين عادت صديقتها إلى حديثٍ آخر عن أمورٍ عابرة، كانت هي شاردةً في مكانٍ بعيد.

رفعت هاتفها من جديد، وفتحت المنشور للمرة الرابعة.

توقفت عند السطر الأخير: "إلى التي علمتني أن الحنين لا يُشفى منه، بل يُتعايش معه."

ابتسمت بخفوتٍ غريب، وقالت في سرّها:

– يبدو أنك بدأت تتعايش، أما أنا، فما زلتُ أحاول النسيان ولم أنجح بعد.

ثم أغلقت الهاتف، وأطفأت المصباح، تاركةً الغرفة في ظلامٍ لطيفٍ يتسلل إليه ضوء المطر من خلف الستائر.

في الظلام، سمعت نبضها بوضوح، وأحسّت أن الضوء الذي وصفه لم يكن في عينيها فقط، بل صار يسكنها كلها.

الفصل الثالث والثلاثون

ترددات القلب

لم تكن الأيام التالية عادية.

منذ أن نشر كلماته تلك، صار يشعر أن الهواء حوله تغيّر، كأن العالم صار أبطأ قليلًا وأكثر امتلاءً بها.

لم يتوقع أن يأخذ منشور واحد هذا المدى من الصدى،

لكنه حين دخل إلى حسابه في اليوم التالي، وجد أن التعليقات والإعجابات تنهال، لا لأنهم فهموا، بل لأنهم شعروا أن شيئًا في كتابته عاد للحياة من جديد.

كانت الرسائل تأتيه متتابعة من زملاء وأصدقاء قدامى:

”ما هذا الحنين المفاجئ؟“

”هل تعود إلى الكتابة عن الحب؟“

”من هي التي أعادتك إلى نفسك؟“

ابتسم في البداية، لكنه سرعان ما أغلق هاتفه وأطفأ الإشعارات كلها.

لم يكن يعنيه ما يظنه الآخرون،

فكل ما كان يشغله هو هي — تلك الترددات الهادئة التي تصله منها دون أن تنطق.

في المساء، وهو يراجع أوراق عمله، لمح إشعارًا صغيرًا على الشاشة:

إعجابٌ من حسابها على منشوره.

لم يكن الأول، لكنه هذه المرة جاء بعد صمتٍ طويل، وكأنها أرسلت إليه كلمة واحدة بلا صوت: ”أنا هنا.“

شعر بحرارةٍ غريبة تسري في صدره.

لم يكن مجرد تفاعلٍ إلكترونيٍّ، بل خفقةٌ حقيقية في القلب، نبضةٌ تسللت إلى كل يومه.

تأمل اسمها قليلًا، ثم أغلق الهاتف ببطءٍ وابتسم كمن يعترف لنفسه بما كان يحاول إنكاره.

في اليوم التالي، في المكتب، لاحظ نظرات زملائه تتبادله بخبثٍ لطيف.

كان أحدهم يهمس للآخر، والابتسامات الخفيفة تتناثر في أرجاء المكان.

اقترب صديقه وقال له بصوتٍ خافتٍ يملؤه المزاح:

– يبدو أن القصيدة فعلت فعلها، من هي صاحبة "الضوء"؟

اكتفى بابتسامةٍ باهتةٍ وردّ بهدوءٍ متعب:

– أحيانًا لا يهم من تكون، يكفي أنها كانت سببًا لتذكيرك أنك ما زلت حيًّا.

لكن في داخله، كانت الحقيقة أعمق بكثير.

فهو لم يعد يكتب عنها فقط، بل يشعرها في كل لحظة.

كل إشعارٍ صغير يحمل اسمها كان يوقظ في قلبه رعشةً لا تهدأ،

كل غيابٍ عنها كان ثِقلاً يهبط على صدره كصخرة.

وفي الليالي التي تتأخر فيها عن الظهور، كان يراها في أحلامه،

تمشي وسط المطر بثوبٍ رماديٍّ طويل، لا تلتفت إليه، لكنه يسمع وقع خطواتها بوضوحٍ كأنها تمرّ على ضلوعه.

لم يكن يعرف كيف تصله ترددات قلبها،

لكنه كان يشعر بها —

كأن هناك خيطًا من ضوءٍ خفيٍّ يمتدّ بينهما،

كلما ارتعش في صدرها شيء، تحرّك في صدره مثله.

لم تكن الكلمات ضرورية بعد الآن، فالصمت بينهما صار أكثر امتلاءً من الكلام.

وفي تلك الليلة، حين جلس في شرفته يحتسي قهوته، سمع أغنيةً قديمة كانت تحبها — لم يسمعها منذ سنوات.
توقّف، أمال رأسه إلى الوراء، وأغمض عينيه.
كانت الموسيقى تهبط عليه ببطء، كأنها رسائل تأتيه من بعيد.

ابتسم في الظلام وقال في نفسه:
– نعم… إنها تفكر الآن.
وكأنه يسمع قلبها من خلف المسافة، يخبره بما لم تجرؤ على قوله.

الفصل الرابع والثلاثون

عودة الحياة

استيقظت في صباحٍ يبدو عادياً، لكن شيئًا في الهواء جعل كل الأشياء المحيطة تبدو مختلفة، كأنها تستيقظ معها.
وجدت نفسها تتناول فنجان الشاي ببطء أكبر من المعتاد، تتأمل البخار الصاعد الذي كان يرقص في أشعة الشمس الأولى، وكأن كل جزيء من الهواء يحمل وعدًا جديدًا.

في المساء، لاحظت شيئًا غريبًا في نفسها:
بدأت تستمتع بألوان كانت تتجنبها من قبل، تضحك على تفاصيل صغيرة كانت تزعجها، وتسمع موسيقى لم ترفعها من أي وقت مضى.
تذكرت الأيام التي كانت فيها تمشي في شوارع المدينة ولا تنتبه إلا للوجوه المألوفة أو العابرين، أما الآن فقد لاحظت كل زهرة صغيرة على الرصيف، كل ورقة تتأرجح في النسيم، كل ظلٍ يختبئ خلف نافذة.

عادت تدريجيًا لممارسة أشياء كانت قد امتنعت عنها، كتبًا كانت قد تركتها، مقاهي اعتادت أن تهمل زيارتها، مشاهد فيلم كانت تتجنبها.

وكأن الحياة نفسها أعادت ترتيب ألوانها لتلائم عودتها إلى هذا العالم، ببطءٍ، بحذر، وبطريقة لا تكاد تُلاحظ إلا حين تتوقف وتعيد النظر.

لكن اللحظات التي تهتز فيها ذاكرتها، تتذكره فجأة، ترتبك.

تسير في طريقها، وفجأة يمرّ في ذهنها شريط حديثه، ضحكته، كلماته الأخيرة في النص المنشور، فيقف قلبها للحظة، وتخفق أنفاسها بلا وعي.

ثم تنظر حولها، تحاول أن تتجاهل ذلك، تعيد التركيز على الطريق، على الأشخاص، على التفاصيل المحيطة، لكنها تعلم أن كل خطوة تحمل احتمالًا جديدًا لأن تتذكره مجددًا.

في إحدى الأمسيات، جلست في غرفتها، تحتسي الشاي، تقرأ كتابًا لم تفتح صفحاته منذ شهور.

وعلى الرغم من صمت المكان، كانت تسمع صدى قلبها، ينبض على إيقاع ما قرأته في المنشور الأخير، كأنه موسيقى خفية تتسلل بين الحروف، تقرأ كل كلمة ببطء، وكأنها تحاول أن تفك شفرتها قبل أن يفعل هو.

في الخارج، المطر خفيف، قطراته ترقص على النوافذ، وكأنها تتابع حركاتها الصغيرة، تهزّ الأشجار، تصافح الأسوار، وتتسرب إلى داخل غرفتها، لتكون جزءًا من إحساسها المتجدد بالحياة.

ابتسمت بخفوت، ثم همست لنفسها:

– يبدو أنني بدأت أعيش مرة أخرى... لكن كلما نسيت، أعود أرتبك.

كانت تعرف أن هذا الشعور مؤقت، لكنه ممتع،

يشبه شمس الشتاء التي تخترق الغيوم فجأة، تبعث الدفء في الأجساد الباردة، ثم تختفي قبل أن يعتاد الإنسان عليها.

الفصل الخامس والثلاثون

الغياب الحاضر

في صباحٍ خفيف المطر، جلست في غرفتها، تحتسي فنجان الشاي كما اعتادت، تشاهد قطرات المطر تتهادى على الزجاج، تتساقط في أحيانٍ غير منتظمة، بعضها ينسكب بسرعة، وبعضها يرقص على حواف النافذة.

كان الجو باردًا، لكنه لم يزعجها.

أحست أن شيئًا ما قد تغير فيها، شيئًا هادئًا، لطيفًا، مثل شمس شتوية تتسلل عبر السحب الثقيلة، تمنح دفئًا لا يُرى إلا إذا أغمضت عينيها وأحست به.

أمسكت بالكتاب الذي بدأت تعيد قراءته منذ أيام، لكن عينيها لم تعد تركز على الكلمات نفسها.

كانت تفكر في منشوره الأخير، كيف ترك أثره في قلبها، وكيف بدأ يثير فيها أمورًا لم تشعر بها منذ سنوات.

لم تعد تخاف من هذا الحنين كما كانت من قبل، بل أصبح شيئًا يرافقها، يهمس في أذنيها حين تغلق عينيها وتفكر، كأن قلبها أصبح حساسًا لموجاته، فيتأرجح معها، ينعكس على خطواتها، على ابتسامتها، على كل حركة صغيرة تقوم بها.

في الطريق إلى المقهى الذي اعتادت المرور به، لاحظت نفسها تتوقف عند الأشياء التي كانت تتجاهلها دومًا:

زهرة صغيرة تتأرجح على الرصيف، ورقة تتساقط ببطء من شجرة، انعكاس ضوء المصابيح على مياه المطر المتراكمة.

كانت أشياءً تافهة في الماضي، لكنها اليوم تحمل معنىً خاصًا، وكأنها علامات على أن الحياة لم تنته بعد، وأنها لا تزال قادرة على الاحساس والاستمتاع.

عادت لتجلس في المقهى، احتسست القهوة ببطء، وعينها تتجول بين وجوه الناس، لكنها لم تكن تهتم بما يحدث حولها.

كان كل تركيزها على ذلك الخيط الخفي الذي يربطها به، على ترددات قلبها التي تشعر بها، وعلى تلك الطاقة الصغيرة التي تأتي من بعيد، من مكانٍ لا يمكنها رؤيته، لكنها تعرف أنه موجود.

وعند المساء، حين عادت إلى غرفتها، جلست أمام نافذتها، تراقب المطر مجددًا.

فجأة شعرت برغبة في الكتابة، ليس لتوجيه رسالة إليه، بل لتفريغ ما يختلج في داخلها.

كتبت عدة جمل في دفترها:

"كل شيء يذكرني به، وكل شيء يعيدني إليه، دون أن يراه.

المطر، الضوء، الضحكات القديمة، حتى الهواء يحمل شيئًا منه إليّ.

وأكتشف نفسي أعود للحياة، أشياء كنت أكرهها صارت محببة، وأشياء كنت أمتنع عنها صارت ضرورية."

أغلقته بعد لحظة، واستنشقت الهواء البارد الذي تسلل من الشرفة.

شعرت بأن شيئًا ما قد بدأ في التغير ببطء داخلها،

وأن الحياة نفسها بدأت تعيد ترتيب ألوانها، شيئًا فشيئًا، بهدوء، دون استعجال، دون ضغط، كأن العالم برفقٍ يقول لها: "يمكنك أن تعودي، ببطء، إلى نفسك."

الفصل السادس والثلاثون

إشارات بعيدة

جلس في شرفته، يحتسي القهوة الساخنة، المطر الخفيف يطرق الزجاج، والموسيقى الكلاسيكية تملأ المكان بهدوء.

لم يكن الجو مختلفًا عن أي صباح آخر، لكنه بدا له مشحونًا بشيء لم يستطع تسميته.

كانت حركاته تلقائية، لكنه شعر في داخله بتغيرٍ جديد، شيء يشبه التوافق مع موجات لم يسمع بها من قبل.

لاحظ، في الأيام الماضية، أن ردود أفعالها لم تعد كما كانت.

ليس منشورًا هنا أو تعليقًا هناك فقط، بل شيء أعمق، أشبه بالنبضات الصغيرة التي تلاحقها في سلوكياتها اليومية.

كانت تضحك بلا سبب، تتوقف عند أشياء صغيرة، تعود لممارسة أشياء كانت قد هجرتها أو ابتعدت عنها.

حتى تصرفاتها اليومية، كخطواتها على الرصيف، أو الطريقة التي تحمل بها فنجان الشاي، أصبحت تحمل معنىً غير مباشر بالنسبة له، وكأنها رسالة صامتة: "أنا هنا، أعيش، أتحرك".

شعر بأنه يسمع نبضها، وكأنه يخترق صمت المسافة الطويلة بينهما.

لم تكن هذه مجرد مراقبة، بل نوع من التواصل الخفي، شعورٌ يمرّ عبر الهواء، عبر المطر، عبر الكلمات الصغيرة التي لم تُكتب، ولكنه شعر بها.

ابتسم في نفسه،

– نعم... إنها تعود للحياة.

وبين فرحٍ وحنين، قال بصوتٍ خافت لنفسه:

– وربما أنا أيضًا أعيد اكتشاف نفسي معها.

كتب على مسودة في حاسوبه، كلماته هذه المرة كانت أعمق، أقل تصنّعًا، أكثر صدقًا:

"الغياب لا يعني الانقطاع...

هي هنا، في تفاصيل الأشياء، في ضحكات عابرة، في المطر الذي ينساب على النوافذ.

كل شيء عنها يصلني، حتى عندما لا أراها.

وأنا أكتشف نفسي أتحرك معها، بلا لقاء، بلا كلام مباشر، بلا خطط."

قرأ ما كتب، ثم أضاف بضعة أسطر أخرى:

"أحيانًا أحسد المطر، لأنه يلمسها قبل أن ألمسها، يعرف الطريق إليها، وأنا أراقب من بعيد، وأتعلم كيف أعيد ترتيب نفسي."

ابتعد عن الحاسوب، نظر إلى السماء، وأغمض عينيه.

كانت الموسيقى تهبط ببطء، وكأنها حاملة صوتها غير المسموع، تنقل له إحساسها بالحرية وبالحياة الجديدة.

شعر أن قلبه، رغم كل شيء، بدأ يخفف من قسوته، ويفهم أنه ليس مجرد حنين، بل مشاركة في رحلة التعافي نفسها، رحلة تمتد بينهما رغم الغياب.

ابتسم، وسمح لنفسه بأن يراقب المطر لبعض الوقت، مستشعرًا كل حركة صغيرة، كل ضحكة محتملة، كل ترددٍ في قلبها يصل إليه من بعيد.

ثم همس لنفسه، كمن يضع خطة سرية للصبر والانتظار:

– دعها تعود لحياتها... وأنا سأبقى هنا، أتعلم أن أعود لحياتي معها.

الفصل الثامن والثلاثون

صدى الحروف القديمة

كانت السماء تميل إلى الغروب حين جلس أمام مكتبه، ضوء النهار الباهت يتسلّل من بين الستائر ليعانق وجهه الشاحب بنعومة.

على سطح المكتب كوب قهوةٍ بارد، ومسودةٌ مفتوحة على جملٍ لم تكتمل، وكأنه كان يخوض حوارًا طويلًا مع نفسه منذ الصباح.

شعر أن شيئًا ما يطفو بداخله منذ أيام — رغبة في الكلام، في التعبير، في أن يكتب شيئًا لا يختبئ خلف الرموز كما اعتاد.

أمسك قلمه، كتب بخطٍ متأنٍّ على الورق قبل أن ينقله إلى صفحته على موقع التواصل الاجتماعي.

لم يذكر اسمها، ولم يلمّح مباشرة، لكنه هذه المرة كتب كما لم يكتب من قبل، صادقًا حتى الوجع، كأنّ الكلام خُلق ليُقال أخيرًا.

"ثمّة وجوهٍ لا تغيب، وإن غابت.

تعود كل مرة في ملامح الضوء حين يميل النهار إلى الحنين،

تعود في رائحة الكتب القديمة، وفي صوت المطر وهو يطرق الذاكرة برفق.

تعلّمتُ منها أن الحبّ ليس وعدًا، بل حضورٌ خفيّ يشبه الأمان حين يمرّ على القلب ويهدأ.

وإن كنتُ لا أملك منها اليوم سوى أثرٍ في قلبي، فهو كافٍ لأن أكتب، وأتنفّس، وأعيش."

قرأ ما كتب مراتٍ قبل أن يضغط "نشر".

ثم ابتعد عن الشاشة، كمن سلّم سره للريح، لا ينتظر ردًّا ولا إعجابًا، فقط أراد أن يُخرج ما يثقل صدره.

لكنّ ما لم يتوقعه حدث.

لم تمر ساعات حتى امتلأت صفحته بالتعليقات والمشاركات، كلمات الإعجاب، والتأويلات، والتساؤلات.

الناس رأت في كلماته حنينًا جديدًا، قصةً تتشكل، ونبضًا لم يعتدوه منه منذ زمن.

أحد أصدقائه كتب مازحًا:

"يبدو أن شاعرنا عاد يكتب بقلبه لا بقلمه."

ابتسم ابتسامة باهتة، لكنه في داخله كان يراقب شيئًا آخر: صداها.

هي قرأت المنشور، كان واثقًا من ذلك. شعر بها في طريقة تنفسه، في ذلك القلق الغامض الذي يزوره كلما اقتربت روحه من روحها.

لم تكتب شيئًا، لكنها كانت هناك، في الجهة الأخرى من الشاشة، تتابع الحروف وهي تتسلّل إلى قلبها رويدًا رويدًا.

وفي زاويةٍ أخرى من العالم، كانت هناك عينٌ أخرى تتابع هي أيضًا.

امرأة تعرف صوته بين الألف كلمة، وملامح قلمه من بين آلاف الحروف.

كانت تلك التي أحبّها يومًا، الحبيبة القديمة التي ظنّ أنها عبرت مثل فصلٍ وانتهى.

قرأت كلماته، فشعرت بشيءٍ يلسعها في الداخل.

قالت لنفسها أولًا إنه مجرد منشور عابر، لكنه بدا لها مختلفًا، فيه صدق لم تذقه من قبل، حرارة لم تعرفها حين كان يكتب لها.

همست وهي تُعيد قراءة السطور:

– من تكون؟ من تلك التي جعلتك تكتب بهذا العمق؟

كانت الغيرة تشتعل في داخلها، مزيجًا من فخرٍ ووجعٍ وغضبٍ خافت.

أعادت فتح صفحته أكثر من مرة، تراقب التعليقات، الوجوه التي تظهر تحت منشوره، تحاول أن تكتشف من بين الأسماء وجه تلك "التي أعادته للحياة".

ولم تكن تعلم أن الأخرى، هناك، في بيتٍ يطلّ على المطر، تقرأ الكلمات نفسها ويدها ترتجف، بين خوفٍ عذبٍ وفرحٍ مكتوم.

أما هو، فبقي صامتًا أمام الشاشة، يراقب التفاعل دون أن يجيب.

كان كمن يرمي حجرًا في ماءٍ راكد، ليرى الدوائر تتسع أمامه دون أن يقصد كل تلك العواصف التي ستتبع.

تنهّد بعمق، أغلق الحاسوب ببطء، وتطلّع نحو النافذة، والمساء يهبط على المدينة بخطواتٍ ناعمة.

في داخله كان صدى بعيد، لا يشبه الفرح ولا يشبه الحزن تمامًا —

صدى الحروف القديمة التي خرجت من صمته، لتوقظ أكثر من قلبٍ كان يظنّه نائمًا.

الفصل التاسع والثلاثون

ارتباك الضوء

كانت تجلس في غرفتها حين وصلها الإشعار.

لم تكن تنتظره، لكنها كانت تعرف أنه سيأتي —

كأنّ ثمة خيطًا خفيًا يشدّها إلى صفحته كلّما كتب شيئًا جديدًا.

ضغطت على الإشعار بيدٍ مرتجفة، والصفحة البيضاء امتلأت فجأة بحروفه.
في البداية قرأت بسرعة، ثم توقفت.
أعادت القراءة ببطء، كلمةً كلمة، وكأنها تخشى أن يفلت منها المعنى.

كانت الكلمات تشبهه جدًا،
تشبه طريقته حين كان يتحدث بصوتٍ خافتٍ إذا خاف أن يفضح قلبه،
لكنها هذه المرة كانت أعمق، أصدق، أكثر دفئًا، وكأنّ روحه خرجت من بين السطور دون أن تستأذنه.

توقفت عند السطر الأخير:

"وإن كنتُ لا أملك منها اليوم سوى أثرٍ في قلبي، فهو كافٍ لأن أكتب، وأتنفّس، وأعيش."

ارتجفت أناملها.
هل يقصدها؟
لا، بل يقصدها حتمًا... هذه المرة لا مجال للشك.
لكن شيئًا في داخلها قاوم التصديق،
شيء تعلم الحذر بعد الخذلان، بعد التجربة القديمة التي علمتها أن لا شيء يبقى كما يبدو.

وضعت الهاتف جانبًا، ونهضت من مكانها،
سارت نحو النافذة بخطواتٍ مترددة، نظرت إلى الشارع المبتلّ من بقايا المطر.
كانت السيارات تمرّ ببطء، والهواء مشبعٌ برائحة التراب الرطب.
شعرت بشيء غريب في صدرها، مزيج من الخفة والارتباك، كأنّ قلبها يوقظها من غفوة طويلة.

عادت إلى الهاتف مجددًا، قرأت المنشور مرة أخرى،

ثم قرأت التعليقات، رأت أسماء كثيرة، بعضها مألوف وبعضها لا تعرفه.
ضحكت بخفةٍ وهي ترى كيف يحاول الناس تفسير كلماته:

"من تكون المحظوظة؟"
"الحب رجع لصاحبه القديم!"
"يبدو أن امرأة جديدة دخلت حياة شاعرنا!"

لكنها توقفت عند تعليقٍ محدد،
اسمٌ تعرفه جيدًا، حروفٌ لم ترها منذ زمنٍ طويل، لكنها ما إن رأتها حتى انقبض قلبها.
كانت هي... الحبيبة القديمة.
كتبت تعليقًا مقتضبًا:

"جميلة كلماتك، تذكرني بأيامٍ مضت."

قرأت الجملة مراتٍ، وكأنها تسمع خلفها صوتًا يحمل غيرةً مكتومة، واستفزازًا ناعمًا.
تجمدت للحظة.
أيعقل أن تعود تلك المرأة إلى المشهد من جديد؟
هل سيعيد القدر ترتيب الأوراق لتضعها وجهاً لوجهٍ مع الماضي؟

سكتت طويلًا، ثم أغلقت الهاتف، وجلست على الأرض.
أسندت ظهرها إلى الحائط، ورفعت رأسها إلى السقف كأنها تبحث عن مخرجٍ من الدوامة.
قالت لنفسها بصوتٍ منخفض:
– لم أكن أريده أن يكتب... كنت أريده فقط أن يكون بخير.

لكنها كذبت على نفسها.

كانت تريده أن يكتب، أن يتنفس، أن يظلّ هناك، لأن وجوده في جهةٍ من هذا العالم كان يمنحها شعورًا بالأمان، حتى إن لم يلتقيا.

غير أن هذا المنشور بعثر ذلك الهدوء الذي بدأت تعتاد عليه.

أعادها إلى مساحةٍ من المشاعر لم تكن مستعدة لها بعد.

عادت تجلس إلى مكتبها، فتحت دفترها، وبدأت تكتب بخطٍّ متردد:

"لم أقصد أن أبحث عنك في الكلمات،

لكنها وجدتني قبل أن أجدها.

كيف استطاعت بضعة حروفٍ أن تهزّ صمتي؟

وهل كنتَ تعلم أنك حين تكتب، تُعيدني إلى ما حاولت نسيانه؟"

وضعت القلم، وأغلقت الدفتر ببطء.

لم تبكِ، لكنها شعرت برغبةٍ غامضة في الصمت،

في أن تترك كل شيء يمرّ كما يأتي، دون مقاومة، دون إعلانٍ عن شعورها.

وفي الخارج، كان المطر يعود خفيفًا،

يدقّ على النوافذ بإيقاعٍ يشبه دقّات قلبها المرتبكة،

في حين ظلّ هاتفها على الطاولة يضيء بين حينٍ وآخر بإشعاراتٍ جديدة لمنشوره…

لكنها لم تلمسه بعد،

كانت تخاف أن تفتح الضوء فتغرق أكثر في تلك الدائرة التي بدأت تتسع من جديد.

الفصل الأربعون

حين عاد الضوء لغيري

لم تكن تتابعه منذ شهور.

ليس لأنها نسيت، بل لأنها كانت تحاول أن تُقنع نفسها بأنها فعلت.

كل شيء بعد الرحيل صار عاديًا حدّ الفراغ:

الضحكات باهتة، الحفلات متشابهة، والوجوه حولها كثيرة، لكنها جميعًا بلا ملامح.

كانت قد أقنعت الجميع — وربما نفسها — أنها تجاوزت،

حتى جاء ذلك الصباح الذي انكشفت فيه كذبتها الصغيرة.

رأت المنشور صدفة.

كانت تتصفح بكسلٍ ما يكتبه الناس، تبحث عن أي شيء يملأ الوقت،

وحين مرّ اسمُه أمام عينيها، توقفت.

ترددت لحظةً، ثم ضغطت.

وما إن ظهرت كلماته حتى شعرت كأن أحدهم أزاح الغبار عن جرحٍ قديمٍ لم يلتئم بعد.

قرأته مرتين، وثالثة.

ثم همست في نفسها بامتعاضٍ حاول أن يخفي ارتباكها:

– يكتب من جديد؟ بعد كل هذا الصمت؟

لكنها لم تستطع أن تكمل سخطها، لأن قلبها كان يهمس في الجهة الأخرى:

"صوته في الحروف كما كان... فقط نضج قليلاً، وصار أجمل."

ارتعشت أصابعها وهي تتنقل بين الأسطر.

كانت تراقب كيف يتحدث عن "امرأةٍ" منحته المعنى من جديد.

امرأةٌ تشبه الضوء، وتعيد ترتيب نبضه.

كل كلمة كانت صفعة.

ليس لأنها تحبه كما كان، بل لأنها لم تحتمل فكرة أن تكون الأخرى التي لم تكتب عنه.

قالت في نفسها:

– أهي حقًا موجودة؟ أم أنه يتظاهر فقط؟

ثم ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ خفيفة، تحمل من الكبرياء أكثر مما تحمل من الهدوء.

أمسكت هاتفها، وكتبت تعليقًا قصيرًا:

"جميلة كلماتك، تذكرني بأيامٍ مضت."

لم تكن تريد أن تقول أكثر من ذلك،

لكنها كانت تعلم جيدًا أن الجملة القصيرة ستصله، وستحرك في قلبه شيئًا ما.

هي تعرف مفاتيحه كلها: الحنين، الذاكرة، والدهشة الصغيرة التي تسبق الحنين بلحظة.

بعد أن نشرت التعليق، أغلقت الهاتف وجلست في صمت.

كانت الغيرة تتسلل إليها بخفةٍ كالنار تحت الرماد.

من تلك التي كتبت له كل هذا؟

من تلك التي أعادت لصوته النغمة التي كانت تخصّها وحدها؟

وقفت أمام المرآة طويلاً.

تأملت وجهها كما لو أنها تراه للمرة الأولى.

لم تتغير كثيرًا، لكن الزمن مرّ بخطوطٍ خفيفة حول عينيها،

ربما من السهر، أو من الفراغ الطويل الذي لا يعترف به أحد.

قالت في همسٍ وابتسامةٍ تحمل شيئًا من التحدي:

– حسنًا، فلنرَ إن كانت تستطيع أن تسرق الضوء الذي صنعته أنا.

في تلك اللحظة،

لم تكن تفكر في الحب بقدر ما كانت تفكر في استعادة حضورها القديم،

أن يشعر بها من جديد، ولو لحظة،

أن يعرف أن بريقها لم يخفت بعد،

وأن من تشبه الضوء الذي يكتب عنها الآن، ليست أكثر من عابرةٍ في ليله الطويل.

وما إن حلّ المساء، حتى جلست تكتب له رسالة لم ترسلها:

"تعلم أني لا أعود لأستعيدك،

لكني لا أحتمل فكرة أن يكون قلبك سعيدًا بغيري."

ثم ابتسمت في مرارةٍ وأغلقت الشاشة.

كانت تعرف أنها بدأت لعبةً لا نهاية واضحة لها،

لكنها أيضًا كانت تعرف أنها تجيد اللعب جيدًا.

الفصل الحادي والأربعون

الطرق القديم على أبواب الهدوء

لم يكن يتوقع أن تُحدث كلماته كل هذا الصدى.

كتبها في لحظة صفاء، دون نيةٍ خفية، فقط استسلامًا لتراكم مشاعرٍ خجولة حاول طويلًا أن يخفيها.

ولمّا ضغط على زر النشر، شعر براحةٍ خفيفة كمن يضع حجرًا عن صدره في مجرى ماءٍ ويمضي.

قضى يومه كعادته بين عملٍ طويلٍ وهدوءٍ باردٍ يليق بشتاءٍ ثقيل،
حتى حلّ المساء، وفتح حسابه دون اهتمامٍ يُذكر،
لكن عينيه توقفت فجأة عند ذلك الاسم الذي ظنّه اختفى من ذاكرته.
اسمها.

كُتب بجواره تعليقٌ قصير:

"جميلة كلماتك، تذكرني بأيامٍ مضت."

لم يقرأه مرة واحدة.
أعاده ثلاثًا، وكأن شيئًا في داخله لم يصدّق.
صوته القديم عاد يتردد في رأسه:
ضحكتها، طريقتها في استفزازه حين كان يكتب، وكيف كانت تراه شاعرًا حين يغضب.

مرّت ثوانٍ كانت كافية ليختلط الزمن في رأسه.
لم يعد يعرف أيتذكرها كما كانت، أم كما أراد أن تكون.
لكنه شعر بشيء يشبه الارتباك الممزوج بالحنين،
ذاك الشعور الذي لا يريح القلب ولا يؤذيه تمامًا، فقط يعيد فتح الملفات القديمة بحذرٍ صامت.

ابتسم، لا سخريةً ولا فرحًا، بل لأن الحياة بدت وكأنها تكرر مشاهدها القديمة على نحوٍ ساخر.
منذ متى وهو لم يفكر بها؟
بل كم من المرات مرّ على صورها دون أن يتوقف؟

ومع ذلك، الآن، لمجرد جملةٍ واحدة، عاد كل شيء كأنه لم يغب يومًا.

أطفأ الشاشة، نهض من مكانه، وراح يتمشى في شرفته تحت المطر الخفيف.

صوت الرذاذ على السور الحجري، ورائحة الأرض المبتلة، أعاداه إلى أيامٍ بعيدةٍ حين كانا يتحدثان لساعاتٍ طويلةٍ عن كل شيءٍ ولا شيء.

تساءل في نفسه وهو يحدّق في البعيد:

– لماذا الآن؟

هل صدفة؟

أم أنها شعرت كما شعر هو أن شيئًا تغيّر فيه؟

تذكّر آخر لقاءٍ بينهما:

كلامٌ متقطع، نظراتٌ تشبه الاعتذار، ووداعٌ لم يُكتب له أن يكون نهائيًا كما أرادا.

تذكّر كيف أغلق بعدها كل الأبواب، ظنًا منه أنه يحمي نفسه من الضعف،

حتى جاءت الأخرى، بصمتها، بلطفها، بتلك القدرة الغريبة على إعادته إلى الحياة دون أن تطلب شيئًا.

تنهد، وهمس كأنه يحدّث نفسه:

– لا، لن أعود إلى هناك. لا إلى الحنين، ولا إلى اللعبة القديمة.

لكنه، رغم ذلك، عاد وفتح الصفحة مجددًا.

قرأ التعليق مرة أخرى، ثم مرّ بعينيه على اسمها،

كمن يتأكد أن ما يراه ليس حلمًا أو وهمًا.

ثم تركها كما هي، دون رد.

لكنه في داخله كان يعلم أن الصمت هذه المرة ليس تجاهلاً،

بل نوعٌ من الاعتراف الخفي، بأنه شعر بها.

جلس بعدها يكتب في دفتره القديم، لا ليُنشر هذه المرة، بل كنوعٍ من الحديث الصامت مع نفسه:

"كل ما كنت أظنه انتهى، ما زال يتنفس في مكانٍ ما داخلي،
لكنه لم يعد له الحق في أن يتكلم.
هناك من أضاء العتمة دون أن تسألني،
فكيف أسمح لظلٍ قديمٍ أن يعود ليطفئ الضوء من جديد؟"

أغلق الدفتر ببطء، ووضعه إلى جوار فنجان قهوته الباردة.
المطر كان يشتدّ، والليل يميل إلى العزلة،
لكنه شعر بنوعٍ جديدٍ من الصفاء،
صفاء يشبه قرارًا لم يُعلن بعد،
لكنه يعرف أنه سيتخذه قريبًا:
أن الماضي مكانٌ جميلٌ للزيارة...
لكن لا أحد يستطيع أن يعيش فيه مرتين.

الفصل الثاني والأربعون

طمأنينة العابرين في قلب العاصفة

،في الأيام التالية، بدا كل شيء طبيعيًا في الظاهر
.لكنّها، من خلف واجهة الصمت، كانت تراقبه كمن يخاف أن يفقد شيئًا لا يريد الاعتراف بامتلاكه أصلًا

،كانت تعلم أنه كتب تلك الكلمات لأجلها

ولم تخطئ يومًا في التقاط النغمة الخفية في صوته حين يكتب،

فهو حين يحبّ، يترك بصمته على الحروف،

كأنها تنبض بالدفء وتتنفس باسمه.

غير أن شيئًا أربكها في تلك الليلة:

ظهور اسمٍ قديمٍ بين التعليقات،

اسم امرأة كانت تعرفها بالقدر الكافي لتفهم ما يمثّله.

لم تكن غريبة عن الحكاية،

بل فصلًا من فصوله التي ظنّت أنها انتهت منذ زمنٍ بعيد.

قرأت التعليق القصير، كمن يواجه مرآة قديمة تذكّره بما خاف أن يراه.

لم تكن تغار... أو هكذا أقنعت نفسها.

لكن القلب، حين يستشعر الخطر، يبدأ بالدقّ أسرع قليلًا مما يجب.

مرّت الساعات ثقيلة،

ترددت قبل أن تفتح الصفحة، ثم فعلت،

وجدت أن لا شيء تغيّر، لا ردّ منه، لا حديث، لا تفاعل.

الاسم القديم ما زال هناك، لكنه بقي معلّقًا في الفراغ.

شعرت بشيءٍ يشبه الطمأنينة الممزوجة بالامتنان.

تجاهله لتلك التي مرّت،

كان كأنه يضع بيده حائطًا بين زمنين،

أحدهما انتهى دون عودة، والآخر بدأ يتفتح على مهلٍ مثل زهرةٍ بعد المطر.

تأملته وهو يكتب في الأيام التالية:

خواطر متفرقة، عميقة كعادته،

لكنها كانت مختلفة في نبرتها؛ أكثر صدقًا، أكثر دفئًا،

كأن شيئًا انكسر فيه فأطلق نورًا هادئًا بدلًا من الشرر القديم.

في كل مرةٍ كانت تقرأ، تشعر بأنه يكتب عنها،

وفي كل مرةٍ كانت تخاف أن تصدق ذلك الخاطر.

ربما لأن الاعتراف بالحب يُفقده سحره،

وربما لأنها لم تعد تحتمل خيبةً جديدةً إن هي صدّقت ثم خابت.

في المساء، جلست إلى مكتبها الصغير،

تحت ضوءٍ أصفر خافت، وبخار فنجانٍ نصفه بارد،

تتأمل صورته في ذهنها لا على الشاشة،

تتذكّر صوته حين تحدّث عن "الذكريات الحلوة التي تؤلم لأنها لا تعود"،

وتبتسم في سكونٍ خجول،

ثم تهمس كأنها تخاطب الغياب:

"ربما لا تعود الذكريات... لكنها أحيانًا تلد ذكرى جديدة تشبهها."

أغلقت الجهاز، ووقفت أمام النافذة،

تراقب المطر الذي ما زال يتساقط برفق،

وتهمس لنفسها:

- المهم أنه لم يلتفت إلى الوراء، هذا يكفيني الآن.

،ثم ساد الصمت

،لكن في داخلها، كان شيءٌ صغيرٌ يبتسم

كأنّ الطمأنينة التي شعرت بها تلك الليلة

،كانت أول اعترافٍ خفيٍّ بحبٍّ لم يُعلن بعد

.حبٍّ بدأ على هيئة صداقةٍ، ثم صار نجاةً من الغرق في الماضي

الفصل الثالث والأربعون

الرسالة التي فتحت بابًا ظنّه مغلقًا

،في صباحٍ رماديٍّ بارد

،استيقظ على صوت الإشعارات المتتابعة في هاتفه

،كان نصف نائم حين مدّ يده

.لم يتوقع شيئًا سوى ضوضاء العمل أو رسائل فريقه المعتادة

.لكن الاسم الذي لمع على الشاشة أعاده للحياة دفعة واحدة

،اسمٌ لم يزره منذ سنوات

.وكلما نُطق، ترك خلفه رجعَ خيبةٍ قديمةٍ لم تلتئم تمامًا

،فتح الرسالة بتردد

،كانت قصيرة، مرتجفة في صياغتها

:كأنها كُتبت بين دمعةٍ وعزيمةٍ مكسورة

،أعلم أن الوقت لم يعد مناسبًا لشيءٍ بيننا"

...لكنني أمرّ بأوقاتٍ صعبة

،واحتاج إلى من يعرفني حقًّا

،لا أريد سوى أن أطمئن أن هناك من يسمعني

".كما كنت تفعل دائمًا

،ظل يقرأها مرارًا

،لا لأن المعنى تغيّر، بل لأن شيئًا ما بدا غريبًا فيها

،مزيج من الحنين والاستجداء

.من الذكرى والدهاء في آنٍ واحد

،ألقى الهاتف جانبًا

،ونهض يتمشى في الغرفة

.يشعر بارتباكٍ يعرف سببه ولا يريد الاعتراف به

،هو يعلم تمامًا ما تحاول فعله

.يعرف كم يجيد هذا الصوت القديم العزف على أوتار ضعفه الإنساني

،جلس أمام نافذته

.المطر لم يبدأ بعد، لكن السماء كانت تمهّد له بغيومها الثقيلة

،ارتشف قهوته الباردة

:وابتسم بسخريةٍ خافتةٍ من نفسه

"أيعقل أن يأتي الماضي متنكرًا بثوب الحاجة؟"

،في مكانٍ آخر من المدينة

— كانت هي — الحبيبة التي أعادت إليه نفسه دون أن تقترب
.تستشعر الاضطراب الذي يمرّ به كأن قلبها التقط ارتجاجًا خفيًا في البعد
،شيءٌ في طريقتها في التفكير، في تشتتها المفاجئ
.أخبرها أن هناك ما يشغله... وأن امرأةً ما تطلّ من خلف الظلال

،جلست تقرأ كلماته القديمة على صفحته
:وتتساءل بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه أحد

"هل عاد يفتح بابًا أغلقه؟ أم أنه فقط يطمئن نفسه أنه أقوى من الماضي؟"

:أما هو، فبقي بين خيارين لا يُشبهان بعضهما
،أن يرد بدافع الإنسانية فيفتح الباب الذي أغلقه بإرادته
.أو أن يصمت ويتركها تواجه ما صنعت يداها ذات زمن

،في النهاية، كتب سطرًا واحدًا في مفكرته
،لم يرسله لأحد
:لكن كلماته كانت كافية لتكشف ما في داخله

،الرحمة لا تعني العودة"
".والشفقة لا تُلزم القلب بما انتهى

،ثم أغلق الهاتف
،وأدار ظهره للماضي
،لكن قلبه ظلّ متأرجحًا

كمن يسمع نداءً من بعيد ولا يعرف إن كان سيجيبه أم يتركه يضيع مع الصدى.

الفصل الرابع والأربعون

رجع الصدى الذي لا يُسمع

لم يكن في شيءٍ من يومها ما يشي بأن الريح ستعبث بسكونها.

نهضت باكرًا على غير عادتها، أعدّت قهوتها، جلست إلى النافذة المطلة على الشارع الهادئ،

وقلبها على غير عادته أيضًا، خفيف ومطمئن كمن يوشك أن يصدق أن الطمأنينة يمكن أن تطول.

لكن شيئًا صغيرًا في ملامحه الافتراضية كان غائبًا.

— ذلك الحضور الخافت الذي يتسلل من بين الحروف، النبض الخفي الذي كانت تستشعره في كل منشورٍ له غاب.

كان يكتب دائمًا وكأنّه يُحادثها،

لكن اليوم... بدا كمن يتحدث مع نفسه أو مع ظلٍّ قديمٍ لا اسم له.

أمسكت هاتفها وتصفحت كلماته الأخيرة مرارًا،

تقرأها ثم تعيد القراءة كما لو كانت تبحث عن شيءٍ بين السطور،

شيءٍ يشبهها، يشبه ما كان بينهما، ولم تجده.

توقفت عند عبارة قصيرة كتبها قبل قليل:

"أحيانًا يأتي الحنين في ثوب سؤالٍ لا ينتظر جوابًا."

شعرت بقلبها يضطرب دون أن تعرف السبب.

كان الحنين دائمًا لغزًا بينهما،

هي تخافه لأنه يحمل بقايا من ماضٍ لم يكن لها،

وهو يكتبه لأنه لا يملك طريقة أخرى ليغفر لنفسه ما فات.

لم تدرِ كيف أدركت أن في الأمر شيئًا،

لكنّ النساء لا يحتجن إلى دليل،

يكفي أن يتغير نَفَس الرجل في الكتابة حتى تدرك المرأة أن شيئًا في داخله تحرك.

أغلقت الجهاز، واتكأت على وسادتها،

تأملت سقف الغرفة كمن يحاور نفسه بصمتٍ ثقيل.

"ربما عاد طيفها... تلك التي كانت قبلي."

قالتها في داخلها كمن يجرّب نغمةً محرّمة.

ولم يكن فيها من الغيرة ما يليق بالعشاق،

بل خوفٌ طفوليّ من أن تفقد ما أعاد إليها الحياة.

هو لم يعد لها الحب فحسب، بل الإيمان بأن في هذا العالم شيئًا يستحق أن يُعاش لأجله.

قامت إلى الشرفة، كانت السماء رمادية كروحها،

تساقط المطر خفيفًا كما لو أنه يسمعها،

أمسكت فنجانها بين كفيها، وراحت تراقب البخار يتصاعد كأمنيةٍ تخاف أن تُفصح عنها.

قالت في نفسها:

،إن عاد إليها... فليعد، لكنني لن أكرهه"
".لأنني حين أحببته لم أُرِد امتلاكه، بل شفاءه

،ومع ذلك، لم تستطع أن تمنع يدها من العودة إلى الهاتف
.فتحت صفحته من جديد — لا جديد
.هو صامت، لكنها تشعر أن الصمت يخفي حوارًا لا يُسمع

،في مكانٍ آخر، كان هو يجلس أمام نافذته أيضًا
،يحدّق في الغيوم ذاتها، يكتب ولا ينشر
.كأنه يخاف أن تفضحه الكلمات
:كتب جملة واحدة فقط، تركها في المسودة

،أحيانًا لا نقع في الغواية من جديد“
”.بل في الحنين إلى أن نُنقَذ مرة أخرى

،كأنّ قلبه وقلبها تحادثا في صمت
،كأنّ الغيم نقل الرسائل بينهما
،كأنّ المطر هذه المرة لم يسقط على المدينة
،بل تساقط على روحين خائفتين من الفقد
تتباعدان في الظاهر، لكنهما تقتربان أكثر من أي وقتٍ مضى

الفصل الخامس والأربعون

الذين لا يخشون الهزيمة

،لم تكن رسالتها فعل ضعف كما ظنّ

.بل كانت اختبارًا مدروسًا بعناية امرأةٍ تعرف كيف تُمسك بخيوط اللعبة

،جلست تلك الليلة أمام المرآة طويلاً

،لم تكن تُصلح زينتها بقدر ما كانت تُعيد ترتيب ملامحها القديمة

،كأنها تفتّش بين التجاعيد الخفية عن بقايا الأنثى التي عرفها يومًا

،عن تلك النظرة التي كانت تُربكه

.والابتسامة التي كانت تُربك العالم من حوله

،هي لا تحبه الآن

،ولا حتى تكرهه

،لكنها تعرف أن فيه منطقة ضعيفة

.نافذة صغيرة يمكنها أن تطلّ منها متى شاءت

.وقد حانت اللحظة

،حين أرسلت له تلك الرسالة، لم تكن تنتظر الرد

— كانت تنتظر الارتباك

.ذلك التوتر الذي يصيبه حين يتقاطع الماضي مع الحاضر

،كانت تراهن على انسانيته، على طيبته

.على ذلك الجزء الطفولي في قلبه الذي لا يعرف أن يردّ الألم بالقسوة

،مرّت الساعات التالية وهي تراقب الشاشة

.لا لقراءة الرد، بل لقراءة الصمت

الصمت عنده كان أبلغ من الكلمات،

وحين لا يردّ، فهذا يعني أنه بدأ يفكّر.

وحين يبدأ بالتفكير...

تدرك هي أنها ربحت نصف المعركة.

في داخلها يقينٌ بقدرته على المقاومة،

لكنها أيضًا تعرف أن كل مقاومة تبدأ باسم القوة وتنتهي بالحنين.

والحنين... هي تعرف كيف تستدعيه،

كما يُستدعى الطقس بترتيلةٍ قديمة.

أشعلت شمعةً صغيرة على مكتبها،

وفتحت ملفًا قديماً يحتفظ بصورٍ ورسائل من زمنٍ بعيد،

رسائل قصيرة كان يكتبها بخطه المرتبك حين يحبّ.

قرأت بعضها، فابتسمت لا شوقًا، بل كبرياءً.

"ما زال يكتب بنفس الروح،"

قالت في نفسها،

"لكنّه لا يعرف أنّ الروح لا تتكرر،

وأن أول من لمسها يظلّ الأقدر على إعادتها للحياة."

ثم نهضت،

ارتدت معطفها،

فتحت النافذة لتستقبل المطر الذي بدأ يطرق الزجاج،

وراحت تحدّث نفسها بصوتٍ واثقٍ بارد:

"سيقاوم قليلًا، أعرفه...

سيتظاهر بالنسيان، وسيكتب عن الحرية والتجاوز والنضج،

ثم سيصمت فجأة،

وحين يصمت... سأدخل من ذلك الصمت كما كنت أفعل دائمًا."

هي لا تخشى الهزيمة،

فمن لا يخشى الهزيمة، يخوض كل المعارك ببرود المنتصرين.

أما الحب بالنسبة لها، فلم يكن سوى لعبة باردة

تحتاج فقط إلى لحظة ضعف كي تتكسر فيها القلوب مجددًا،

فتعود هي لتتذكر أنها ما زالت قادرة على الإيذاء الجميل.

وفي مكانٍ آخر، في ذات اللحظة،

كان هو يتأمل المطر ذاته،

يشعر بوخزةٍ غامضةٍ في صدره،

لا يدري أهي من برد المساء،

أم من طيفٍ قديمٍ يحاول العودة.

الفصل السادس والأربعون

ارتجافات القلب القديمة

لم يكن قد قرأ الرسالة أكثر من مرة،

لكنه ظلّ يشعر بها في صدره،

كما يُحسّ المرء بجرحٍ لم يلتئم بعد،
يمرّ عليه النسيم فيشتعل الألم دون أن يراه أحد.

جلس طويلًا أمام نافذته،
يُراقب المطر يسقط بهدوء،
ويحاول أن يقنع نفسه أن كل شيء على ما يرام،
أن ما حدث لا يستحق حتى التفكير.
لكنّ قلبه، كعادته، كان يرفض المنطق،
ويعيد فتح الأبواب التي أغلقها بعناء.

لم يكن يريد العودة إلى الوراء،
لكنه لم يكن يعرف كيف يوقف هذا الارتباك الخفيف الذي تسلل إليه،
ذلك الشعور الغامض بالمسؤولية،
كأنها ما زالت تحتاجه،
وكأنه مدين لها بشيء لم يُنهِ دفعه بعد.

تذكّر تلك السنوات القديمة،
حين كانت رسائلها الصغيرة تملأ يومه،
حين كان يحبّ بعفوية طفلٍ لا يعرف أن يضع حدودًا بين قلبه والآخرين.
ضحك ساخرًا من نفسه،

"ألهذه الدرجة ما زالت تملك المفاتيح القديمة؟"
قالها ثم أغلق الحاسوب بعصبيةٍ خفيفة،
كمن يحاول إغلاق بابٍ تسرب منه هواء بارد.

.لكنه لم يكن وحده في تلك الحرب
،ففي الجهة الأخرى من قلبه
،كانت هي — الجديدة
.تستيقظ فيه كل صباح كفصلٍ لم يُكتب بعد
،يتذكرها وهي تحدّثه عن الضوء والكتب والموسيقى
.عن البدايات الهادئة التي لا تحتاج ضجيجًا لتكون حقيقية
،هي لا تملك مفاتيح الماضي
.بل تزرع له مفاتيح لمستقبلٍ لا يعرفه بعد

،ومع ذلك
،حين همَّ بإرسال رسالةٍ عادية لها كما يفعل كل مساء
،توقف لثوانٍ طويلة أمام الكلمات
.كأن في أصابعه تردّدًا غامضًا لا يعرف سببه
هل يخشى أن يجرّ الماضي خيط الحاضر؟
أم يخشى أن يفضحه قلبه إن كتب بارتباك؟

،فتح صفحته مجددًا
،تصفّح التعليقات على منشوره الأخير
،كانت هناك مئات الكلمات التي تشيد بجمال نصه
،لكن عينه توقفت عند تعليقٍ واحدٍ فقط
،ذاك الذي كتبته القديمة قبل يومين
".ما زلت تعرف كيف تكتب عن الرحيل وكأنك تمارسه الآن"

،قرأها
.وشعر بوخزةٍ في صدره
،كأنها تضع إصبعها على جرحٍ لم يبرأ تمامًا
.كأنها تعرف متى يضعف ومتى يصمت

،أغلق الشاشة
— ثم كتب في مفكرته الخاصة
:لا لينشر، بل ليقاوم

"أخاف من أولئك الذين يعرفون نقاط ضعفنا ويعودون باسم الحنين،
".لا ليحُبّوا، بل ليطمئنوا أننا ما زلنا نتألم

،ظلّ يقرأ الجملة مرارًا
.حتى شعر أنها حررته قليلًا
،لم يدرِ أن الكتابة لم تكن خلاصه هذه المرة
بل كانت إعلان حربٍ جديدة
،بين ماضٍ يعرف كيف يتسلل
.وحاضرٍ يحاول أن يبقى واقفًا رغم العواصف

الفصل السابع والأربعون

حين يبدأ الصمت بالكلام

لم تنتبه في البداية إلى تغيّره؛

،كان صمته يبدو في ظاهره طبيعيًا
،كأن قلبه يحاول أن يتأنّى في كتابة ما يشعر به
.أو كأنه يبحث عن كلمات أعمق ليضعها في رسائله القصيرة إليها

،لكنّ هناك شيئًا ما
شيئًا خافتًا
،كظلّ يمرّ على الماء ثم يختفي
،جعلها تتوقف للحظة
...وتعيد قراءة كلماته
.ثم تعيدها مرة أخرى

.لم يكن غائبًا
.ولم يكن حاضرًا كما كان

،حرّكت فنجان الشاي بين يديها
،تراقب بخارَه وهو يتصاعد ويعود ليلامس وجهها
.وشعرت لأول مرة أن شيئًا قلقًا في داخلها ينهض من سباته
،لم تكن قد شعرت بخوفٍ من الفقد منذ سنوات
،غير أنّ هذا الخوف ولد فيها الآن
...صغيرًا، ضعيفًا، لكنه حاضر
.كطفلٍ يختبئ خلف الستارة وينتظر من يكتشفه

،أطفأت المصباح
،وجلست قرب النافذة

تراقب امتداد الليل فوق المدينة،
وعلى صفحته ما زالت كلماته الأخيرة مضاءة أمامها،
تتأملها كما لو كانت تبحث فيها عن أثر لا تريد الاعتراف به.

لم تكن تعرف أنها بدأت تتعلّق.
كل ما تعرفه هو أنها لم تعد كما كانت قبل أشهر،
قبل أن يعود إلى حياتها بتلك العفوية الهادئة.
صار لصوته الداخلي أثرٌ في قلبها،
وصارت لوجوده غير المرئي قدرة غريبة
على جعلها تستعيد نفسها···
وتخاف على نفسها منه في الوقت ذاته.

أغلقت هاتفها،
ثم أعادت فتحه،
ثم أغلقته من جديد.
ضحكت بخفوت،

“ما الذي يحدث لي؟”
قالتها كأنها تخجل من الإجابة.

كانت تشعر أنها على وشك عبور شيء يشبه البداية،
لكنّ قلبها الذي يحمل ندوب السنوات الماضية
كان يرفع أمامها أسوارًا عالية يحاول أن يحميها بها.
أسوارًا لم تبنها إلا لأن شخصًا ما، يومًا ما، أسقطها كلها دفعة واحدة.

ارتدت معطفها وجلست على طرف سريرها،

تتنفّس بعمق كأنها تحاول إقناع نفسها أن ما تشعر به مجرد وهم.

لكنّ الحقيقة أنها بدأت تلاحظ:

نبرة صوته التي خفتت قليلًا،

فترات الصمت القصيرة بين رسالة وأخرى،

وذلك التردد الخفيف في كلماته،

كأن هناك ما يشده للخلف.

ومع كل ذلك،

لم تشعر بأنه ابتعد عنها...

بل شعرت أنه ممزق،

وكأن قلبه يقف بين بابين:

بابٍ لها،

وبابٍ لشيء لم تعرفه بعد،

لكنها أحست بوجوده كمن يحس بالرياح قبل أن تراها.

عادت إلى سريرها،

سحبت الغطاء على كتفيها،

وتركت السكون يملأ الغرفة،

بينما شعور غامض يتنقّل في صدرها

كأن الحياة بدأت تتحرك فيها من جديد ——

تتحرك ببطءٍ، بحذر،

لكنها تتحرك.

وللمرة الأولى منذ زمن،
تمنّت لو أنه يكتب،
أو يرسل شيئًا،
أو حتى يظهر نقطة خضراء بجوار اسمه.

لم تكن تريد أن تراه،
بل أن تطمئن…
أن صمته ليس ابتعادًا،
بل سحابة عابرة لن تلبث أن تمطر.

لكن ما لم تعرفه،
وما سيُكشف قريبًا،
هو أن تلك السحابة التي عبرت قلبه
لم تكن تخصها وحدها.
هناك ظلّ قديم…
ظلّ امرأة تعرف جيدًا
كيف تزرع شكًا واحدًا يهز نصف قلبه.

ومع ذلك،
ورغم كل شيء،
كانت ترتاح لشيء واحد:
أنه لم يُجب القديمة،
أن تجاهله للكلمات التي كتبتها

.كان صمتًا يعرف طريقه إليها وحدها

ولم تكن تعلم
أن هذا الصمت الصغير
سيصبح شعلةً كبيرة
.في الفصول القادمة

الفصل الثامن والأربعون

**حين يعود الماضي ليختبر ما تبقّى من القلب

،جلس في شرفته تلك الليلة
.والبرد الخفيف يلسع أطراف أصابعه كما لو يذكّره بأنه ما زال حيًّا بما يكفي ليشعر
،وضع كوب القهوة على الطاولة الخشبية الصغيرة
،ثم أسند ظهره إلى المقعد
،وترك الموسيقى الكلاسيكية تتسلل إلى أعماقه
تربط الماضي بالحاضر
…وترفع كل شيء في داخله إلى السطح
.حتى الأشياء التي ظن أنه دفنها منذ زمن

،فتح هاتفه على غير رغبة منه
،كمن يفتح بابًا يعرف أن وراءه شيئًا مزعجًا
.لكنّه يفتحه على أي حال
— كانت رسالتها هناك

القديمة —

:تنتظر، كما اعتادت دائمًا

،هادئة في ظاهرها

،وحادة في جوهرها

تختبئ خلف كلمات قصيرة تُلقى بعفوية مصطنعة

،لكنها تعرف تمامًا أي وترٍ ستضرب

.وأي منطقة رخوة في قلبه ستلمس

.أمرّ بأوقات عصيبة… وأحتاجك بجواري ولو بالكلمة"

".أعرف أنك لا ترد بسهولة، لكنني… أفتقدك

،قرأ الجملة

،صمت طويلًا

،ثم أعاد قراءتها ببطء

.كمن يحاول أن يفصل بين المعنى والحيلة

…كانت تعرف نقطة ضعفه

،تعرف أنه إذا شعر أن أحدًا يحتاج إليه

،يتراجع للحظة

،يلين قلبه قليلًا

:ويفكر

هل أقسو؟

هل أتجاهل؟

هل أترك إنسانًا يستند إليّ وهو ينهار؟

. ”لكنّها لم تكن “أي إنسان

،كانت ماضيًا عرف كل تفاصيله

،وعرف هو كل تفاصيل نقصه

.وعرف كيف تصيبه الكلمات حين تأتي منها

،ورغم ذلك

.لم يرد

،ليس لأنه أقوى

،ولا لأنه تجاوزها

— بل لأن شيئًا جديدًا في داخله كان ينمو

،شيئًا هشًّا لكنه حقيقي

،شيئًا لم يكتمل بعد لكنه حاضر

.شيئًا يشبه العافية حين تبدأ بالعودة إلى الجسد ببطء حذر

،أغلق الرسالة

،ثم عاد إليها بعد لحظة

،ثم أغلقها مرة ثانية

كمن يحاول أن يعيد ترتيب إحساسه

.حتى لا يرى الأشياء بنصف قلبه القديم

،كانت الموسيقى تتصاعد من خلفه

،لكن ذهنه لم يكن مع الموسيقى

.بل مع الصراع الصامت الذي بدأ يحاصر قلبه

ذلك الصراع الخافت
،بين ماضٍ يعرفه جيدًا
وحاضر يكتشفه الآن
…عبر فتاة لم ير وجهها منذ كانت طفلة
.لكن حضورها بات أقرب إليه من كل الوجوه التي رأتها عيناه ألف مرة

،رفع كوب القهوة
،تأمّل البخار المتصاعد منه
— وتذكّر كيف أنه كان يكتب عنها — الجديدة
بنبرة لم يعرفها من قبل؛
،نبرة لم تكن محاولة للبوح
،ولا تسويقًا لمشاعر مبتورة
:بل كانت شيئًا يشبه كشف الأشعة
،تظهر الحقيقة كما هي
،دون رتوش
،دون بطلان
.دون خوف

،وبينما كان يغوص في هذا الطوفان الهادئ من الأفكار
— بدأت رسائل المتابعين تتدفق على منشوره الأخير
:ذلك النص الذي كتب فيه عنها دون أن يذكر اسمها
،عن الألوان التي تحملها صورتها
،عن الضوء المسافر في عينيها
.عن ملامح الأنثى التي انتزعت منه جملة كان يحتفظ بها منذ سنوات

”من يقصد؟“

”لمن هذه الكلمات؟“

”هل عاد يكتب لمجهولة؟“

”هل أحبّ من جديد؟“

لم يهتمّ بكل ذلك،

مرّ على التعليقات كما يمرّ على عناوين الصحف القديمة.

إلا تعليقًا واحدًا…

تعليق القديمة.

لم يكن يحمل اسمها،

لكن الكلمات كانت تكشفها:

ذلك الأسلوب الناعم الذي ينتحل دور الضعف،

وتلك النبرة التي تحاول أن تخترق عبر طبقة من الحنين المستعمل.

"جميل ما كتبت…

أعرف هذا الأسلوب.

اشتقت لما وراءه."

قرأها…

ابتسم ابتسامة صغيرة،

ابتسامة لا تحمل سعادة ولا سخرية،

بل تحمل معرفة —

معرفة الإنسان الذي تعافى بما يكفي

ليدرك اللعبة
ولم يعد يخشاها.

لم يرد.
ولم ينفعل.
ولم يفكر حتى أن يحذف التعليق.

كأن الرسالة سقطت في مكان لا يصل إليه الضوء.

ثم، فجأة،
—— تذكرها —— الجديدة
وتساءل:
هل قرأت تعليق القديمة؟
هل شعرت بقلق؟
هل ارتبكت؟
هل أزعجها أن ماضيه ما زال يطرق الباب أحيانًا،
ولو طرقة خفيفة؟

لم يعرف،
لكن قلبه أخذ ينحاز بلا وعي:
انحاز إلى سكونها،
إلى هدوئها،
إلى ذلك الصمت الذي لم يطلب منه شيئًا٠٠٠
لكنه جعله يكتب أجمل ما كتب.

،وهو يسند رأسه إلى الكرسي
،سمع صوت المطر في الشارع
قطرات متلاحقة تضرب الأرض
.كما لو كانت تبعث رسائل لا تحتاج إلى بريد

:قال بصوت منخفض

".يا رب··· ألهمني الصواب"

،ليس صواب العودة إلى القديمة
،ولا صواب الاقتراب من الجديدة
،بل صواب العدل بين نفسه ونفسه
،بين خوفه ورغبته
،بين الماضي الذي يطرق الباب باستحقاق مزيف
،والحاضر الذي يخجل من أن يطلب شيئًا
.لكنه يمنحه كل شيء

،أغمض عينيه
،وتنفس بعمق
:وحسم قراره دون أن يعلن عنه
.لن يرد على القديمة
.ولن يفتح لها الباب
ولن يسمح أن يسرق الماضي صوت قلبه مرة أخرى

.في اللحظة التي بدأ فيها يستعيد نبضه

،وفي تلك الليلة

،نام متعبًا

،لكن صدره كان أهدأ من الليالي السابقة

كأن كلمة واحدة لم ينطق بها

.كانت كافية ليعيد ترتيب جغرافيا القلب

الفصل – القديمة حين تشمّ رائحة الانتصار

كانت تجلس أمام شاشة هاتفها كما لو كانت أمام مرآة تعرف أسرارها منذ سنوات. لم يفاجئها صمته، ولم يخِفْها تجاهله؛ بل على العكس تمامًا… بدا لها الأمر كحركة محسوبة من لاعبٍ مُحترف، أكثر منه محاولة .فاشلة للهرب

هي فقط ابتسمت تلك الابتسامة التي لا تراها إلا حين تشعر أن الخيط الذي ظنّ الجميع أنه انقطع، عاد ليلتفّ .حول إصبعها من جديد

:قالت في داخلها

".هو لا يردّ… إذن هو يفكّر"

وهل هناك مكسب أكبر من رجل يدخل في دوامة التفكير من أجلك؟

كانت تعرفه كما يعرف الجرح صاحبه؛ تعرف أن صمته ليس صدًّا، بل علامة تردّد… وأن التردّد بالنسبة .له ليس سوى البوابة الأولى للرجوع

هي لم تُصدّق يومًا أنه قادر على نسيانها بسهولة، ولم تتخيّله قادرًا على بناء حبٍّ ثابت فوق أرضٍ لم .تُباركها هي

كانت تراقبه وكأنها ترى خطواته قبل أن يخطوها، وتفهم هزيمته قبل أن يعترف بها.

أما "الجديدة" فقد شعرت براحة مُزيفة بمجرد أنه لم يردّ.

ظنّت أنه ثابت···

ظنّت أنه مخلص لوجهته···

ظنّت أن الصمت دليل ولاء.

لكن القديمة، بخبرتها وذكائها ودهائها، رأت الحقيقة كاملة:

الصمت كان يعني أنه عاد إلى دائرة المنتصف.

تلك الدائرة التي تعرفها جيدًا···

الدائرة التي إن عاد إليها، تاهت خطواته، وتلعثمت حروفه، وبدأ قلبه يتباطأ، وذاكرته تتوهج···

هي الدائرة التي لا يستطيع أن يقرر فيها إلى أين ينتمي، ولا لمن يميل، ولا بأي اتجاه يأخذ أنفاسه القادمة.

كانت تشعر أنه اقترب··· لا لأن كلامها كان قويًا، بل لأنها تعرف نقطة ضعفه جيدًا.

تعرف أين يتشوّه توازنه، وأين يرقّ قلبه، وأين يتراجع صموده.

تعرف أنه لا يستطيع تجاهل دموعها لو لمّحت بها، ولا تجاهل ضعفها لو ادّعته، ولا تجاهل ألمها لو سردته بصوتٍ مُتكسر في رسالة.

وهي الآن ترى كل هذا يحدث···

تراه مُلقى بين شدّ وجذب، بين ماضٍ لم يمت، وحاضرٍ لم يكتمل، ومستقبلٍ مُعلّق بينهما.

لم تكن خائفة من الهزيمة···

وحدهم الضعفاء يخافون الخسارة.

أما هي، فكانت تعرف كيف تُدير اللعبة، وكيف تُربك الجديدة دون أن تظهر، وكيف تشعل داخله أسئلة لا يملك شجاعة الإجابة عنها.

وكانت الصورة واضحة أمامها:

هو بدأ يهتزّ…

وكل اهتزازٍ عنده هو خطوة نحوها.

ابتسمت مرة أخرى، هذه المرة بثقة أعلى، وقالت لنفسها:

"القلب الذي يعرف طريقه إليّ، يتعب كثيرًا حين يحاول السير في غيره."

الفصل – هو… حين قرر أن يواجه الرصاصة

لم يكن غبيًا ولا ساذجًا ليظن أن صمتَه مرَ دون أن يُقرأ.

كان يعرف القديمة كما يعرف خطوط كفّ يده، ويعرف أن صمته بالنسبة لها ليس هزيمة بل بوابة أمل.

كان يشعر بنظرتها وهي تلتقط ارتباكه كما تلتقط الصيّادة ارتجافة فريستها قبل أن تهجم.

ولم يُخِفه هذا الإدراك… بل أزعجه.

أزعجه أن ماضيه ما زال يتربّص عند الباب، ينتظر فقط لحظة ضعف كي يدخل.

وأزعجه أكثر أن الجديدة — تلك التي ما زال قلبها هشًّا بسبب حياة لم تُنصفها — قد تفهم ارتباكه تفسيرًا خاطئًا… قد تظنه تشتّتًا، وقد تخاف، وقد تتراجع خطوة إلى الخلف دون أن تخبره.

وهو يعرف…

هي حين تخاف، لا تُعاتب… بل تختفي.

وغيابها يعني انتصارًا يذهب للقديمة، لا لأنها أقوى، بل لأنها تعرف كيف تلتقط سقوطه حين لا يجد من يرفعه.

جلس لحظةً يتنفس بعمق.

كأنه يمسك تلك "الرصاصة " التي أطلقتها القديمة نحوه، يفحصها، يقرر أخيرًا ألا يتركها تجرحه هذه المرة.

كان عليه أن يردها...

لكن هذه المرة لن يردها إليها بالصمت، بل بالكلمة.

والكلمة عنده أقوى من السلاح.

التفت إلى صفحته...

المكان ذاته الذي دخلت منه القديمة، والمكان نفسه الذي تراه الجديدة بعينٍ يملؤها القلق.

كتب ببطء، كمن يصنع اعترافًا دون أن يصرّح، وكمن يُعلن انحيازًا دون أن يرفعه فوق رأسه كراية.

كتب عنها — الجديدة — لأول مرة بطريقة لا تقبل التأويل:

ليس اسمًا مباشرًا...

لكن اسمها جاء في الجملة، كفعل، كحركة مؤثرة، كشيء حدث بالفعل وأثر فيه.

جاءت كجزء من بناء المعنى... ليست صدفة، بل قرارًا، وكأنه يقول للقديمة:

"هذه التي تتجاهلينها... هي التي أخذت القلب الذي كان يومًا عندك."

كتب مثلًا شيئًا قريبًا من هذا الإحساس:

"هناك من تمرُّ بقلوبنا مرور عابر، وهناك من تُغيّر اتجاه الريح داخلك دون أن تطلب.

أنتِ... فعلتِ.

أخذتِ قلبي من مكانٍ كان متجمّدًا، ووضعته في نقطة دفء لم أعرفها من قبل."

كان يعلم أن القديمة ستقرأ هذه الكلمات كرصاصة مرتدّة نحوها.

.وأن الجديدة ستقرأها كطمأنينة··· كيدٍ تُمدّ نحوها كي لا تهرب

.شعر لوهلة أنه حرّر نفسه من الحلقة التي ظلّ يدور فيها سنوات

.حرّر قلبه من منطقة المنتصف التي حاولت القديمة إعادته إليها

···ولم يكن هذا اعترافًا كاملاً

···لكنّه كان أول خطوة صادقة، أول إعلان لوجهته

وأول جملة كتبها وهو يشعر أنه لم يعد يكتب ليهرب من الماضي، بل ليُعلن أنه تجاوز عتبته

الفصل – الجديدة··· حين قرأت ما لم تتوقع أن يُكتب عنها

.لم تكن تبحث عن اسمه

.كانت تقرأ منشوره كما يقرأ المرء شيئًا يعرف مسبقًا أنه سيُربكه

.كانت عينها تتقدّم ببطء فوق السطور، كأن الكلمات ألغام عاطفية قد تنفجر في أي لحظة

··· ”وفي اللحظة التي ظهر فيها “اسمها

···ليس صريحًا، بل مستترًا داخل فعل

···داخل جملة ليست عامة، ولا قابلة للتأويل

.توقّف قلبها ثم عاد يخفق دفعة واحدة، بقوة، بارتباك، كأنه يُعلن نفسه للحياة فجأة بعد غيبوبة طويلة

.لم تستوعب الجملة فورًا

···أعادت قراءتها مرة، وثانية، وثالثة

.وفي كل مرة كانت تشعر أن يدًا خفية تُزيح حاجزًا كانت تقيمه حول نفسها منذ سنوات

لكن··· ما أغربها!

ما إن شعرت بالدفء حتى عاد الخوف من ناحية أخرى، كأنه ظلّ يتبعها حيثما ذهبت.

كانت تعرف أن قلبها مثل غرفة قديمة تُطفأ فيها الأنوار منذ زمن، وكلما حاول أحدهم فتح الباب، شعرت برغبة غريبة في الهرب··· مع أنها تريد أن تُضِيء، وتُرى، وتُحَب.

وقفت أمام المرآة بعد أن قرأت كلماته، كأنها تبحث عن إجابة لم تفاجئها فقط في النص··· بل في وجهها.

هل فعلتُ فعلًا ما قاله؟

هل حقًا غيّرت اتجاه الريح داخله؟

أم أنه يكتب مجاملة؟

أم أنه يخلط بيني وبين أثرٍ قديم؟

كانت أسئلتها كثيرة···

تتناسل كالأغصان، وكل غصنٍ يحمل ورقة ارتباك جديدة.

لكن شيئًا آخر كان يحدث في الخلفية···

شيء تحاول أن تخفيه حتى عن نفسها: فرح صغير، خافت، لكنه حقيقي.

ذلك الفرح الذي يشبه شعلة تُضيء ثم تُطفأ··· ثم تُضيء من جديد.

كانت تكرهه لأنها تعرف أنه قد يحرقها، لكنها في الوقت نفسه··· تُؤمن به لأن النار الدافئة أحيانًا أجمل من الجليد الذي اعتادته.

كانت تريد أن تصدّق...

وتخاف أن تصدّق...

وفي عمق قلبها كانت تتساءل:

"إن كان صادقًا... لماذا أشعر أنه قد يخسرني في لحظة إن عاد إلى الماضي؟"

كانت تعرف أن القديمة ظهرت...

ليس لأنها قرأت ردّها، بل لأنها تعرف القصة كما تُعرَف الفصول، تعرف أن الماضي لا يموت ببساطة.

كان في داخلها يقين مرعب أن كل شيء جميل في حياتها يجيء دائمًا متأخرًا، وبجوار أشياء تريد أن تنتزعها منه.

والآن...

حين كتب عنها، بطريقة لا ينكرها من يعرف لغته، شعرت فجأة أنها ليست موضع صدفة.

لا هي عابرة، ولا هو يكتب من فراغ.

ومع ذلك، بقي التناقض الأكبر في قلبها كغصة:

هل أفرح؟ أم أخاف؟ أم أنتظر؟

جلست على طرف سريرها، تضم ركبتيها كطفلة تبحث عن أمان نسيته في مكانٍ ما.

تخيلته أمامها...

تخيلت أن تقول له:

"إذا كنت تقصدني... قلها مرة واحدة، كي أستطيع أن أصدق الطريق الذي أخطوه نحوك."

لكنها لم تقل شيئًا.

اكتفت بأن تقرأ منشوره مرة أخرى...

:وتبتسم ابتسامة قصيرة، خجولة، مذعورة، كأنها تقول للعالم بصوت لا يُسمع

".ربما… فقط ربما… بدأ شيء ما"

الفصل – هو… حين شعر بارتباكها قبل أن تكتب كلمة واحدة

.لم يكن بحاجة إلى تعليق منها

.ولا إلى "إعجاب " أو ردّ أو إشارة تُفسَّر

:كان يعرفها بطريقة لا يستطيع شرحها، كأن شيئًا خفيًا يربط المسافة بينهما بخيطٍ من الضوء الرفيع

.لا يُرى… لكنه موجود، يشدّ القلب إذا اضطرب، ويُربك الروح إذا خافت

.جلس في غرفته ليلًا، أمام نافذته المفتوحة رغم برودة الجو

…وضع هاتفه جانبًا بعد أن نشر كلماته الأخيرة التي ضمّن فيها اسمها المستتر

.ثم أسند رأسه إلى ظهر الكرسي، وأغمض عينيه

…كان يشعر بها

.يشعر أنها الآن تقرأ

.يشعر أنها توقفت في منتصف السطر

.ويشعر أنها عادت لتقرأ الجملة نفسها مرات عدة، وكل مرة يُرجّها المعنى أكثر

.وكأن بينهما موجة صامتة

.ضوء صغير يلمع ويخبو في قلبها فينعكس فورًا على قلبه

:قال في نفسه بهدوء يفتّت الصمت

“نعم··· ارتبكتِ. أعرف ذلك. أعرف حتى اللحظة التي ابتسمتِ فيها ثم اختفت ابتسامتك فجأة. أعرفك بالحدس··· بالمسافة··· وبما لا يُفسَّر.”

كان يحاول ألا يسمح للماضي بأن يدخل هذا الفضاء الجديد.

كان يعرف جيدًا أن القديمة لن تتراجع···

يعرف أنها ستستغل أي ثغرة، أي ضعف، أي صمت، لتعيده مرة أخرى إلى منتصف الطريق؛ ذلك المكان الذي تاه فيه طويلًا.

لكن الجديدة···

كان يُدرك أنها مختلفة.

روحها هشّة بدرجة تجعله يخشى عليها من نفسه قبل أي شيء آخر.

كانت تقوم من تعبٍ قديم، من خيبةٍ لم يشارك في صنعها، لكنه يخاف أن يصبح ظلًا لها دون قصد.

لذلك كان الموقف أصعب مما يبدو···

هو يريد الاقتراب،

لكن بحذر.

يريد طمأنتها،

لكن دون أن يدفعها إلى الهرب.

يريد أن يقول لها:

"أنا هنا··· لا تقلقي··· لستُ عابرًا."

لكن يعرف أنها ستقرأ الكلمات وتخاف أكثر.

ظل جالسًا في العتمة، يسمع صوت أنفاس المدينة من بعيد، ويشعر أن قلبه يسير بخطوات غير منتظمة؛ مرة يطمئن، ومرة يضطرب…

ثم فجأة وجد نفسه يهمس:

"لا تخافي… لن أعود إلى الوراء. ولن أتركك للظنون."

كان يعرف أنها الآن، في هذه اللحظة، تتساءل:

هل يقصدني؟

هل كتب عني؟

هل هذه أنا في النص؟

وماذا سيحدث إن علم أنها فهمت؟

وماذا إن عاد الماضي ليأخذه؟

وكان يعرف أنه سيكتب لها شيئًا آخر…

أوضح…

أصدق…

يسدّ الباب في وجه القديمة،

ويمنح الجديدة سببًا لتهدأ… أو سببًا لتتردد بشكل أقل.

لكنه أيضًا كان يعرف أن عليها أن تستعد.

حتى الكلمات الصادقة تخيف القلوب التي تعافت بالكاد.

رفع الهاتف…

نظر إلى منشوره.

ثم أغلق الشاشة دون أن يغيّر شيئًا.

وقال لنفسه:

"ستقرأ… وستشعر. أنا متأكد."

الفصل – القديمة… حين أدركت أنّ النار لم تعد لها

لم تكن تظن أنّه سيكتب شيئًا بتلك الجرأة.

كانت تراقب حسابه منذ الصباح، تحصي أنفاسه، تستمع جيدًا للفراغات التي يتركها بين منشور وآخر.

تعرفه…

تعرف متى يتردّد، ومتى يضع كلماته كمن يلقي حجرًا في ماءٍ راكد،

ومتى يكتب وهو يهرب من شيء لا يستطيع مواجهته.

لكن ما كتبه الآن لم يشبه أيًّا من ذلك.

كانت تجلس على حافة سريرها حين وصلها الإشعار.

فتحت المنشور، وما إن قرأت السطر الأول، حتى وضعت يدها على فمها وكأن أحدهم باغتها بخبر غير متوقع.

مرّت بعينيها على الجملة التي ذَكَر فيها اسمًا لا يُشبه الأسماء…

اسمًا مُضمَرًا، ملتصقًا بالفعل، مخبوءًا في اللغة لكنه واضح حدَّ الفضيحة بالنسبة لمن يعرفه.

توقفت…

أعادت القراءة…

ثم قرأت مرة ثالثة.

رفعت حاجبيها في دهشة مشوبة بامتعاض خفيف:

"أحقًا؟ كتب هكذا؟ بهذا الوضوح؟"

لم تكن غيرتها صاخبة،

كانت باردة…

ناعمة…

من النوع الذي يُفكِّر قبل أن يشتعل،

ومن النوع الذي لا يخشى الخسارة لأنه يظن أنّ اللعبة طويلة، وأن الجولة الأولى لا تعني شيئًا.

أغلقت الشاشة، ثم أعادت فتحها.

مرّت على التعليقات…

على الإعجابات…

على الهمسات التي تركها الناس بين السطور.

لاحظت أنّ البعض بدأ يلمّح…

أن الصدى أكبر مما توقعت هي نفسها،

أن هناك من بدأ يقرأ بين السطور كما قرأته هي.

وفي لحظة، بدا لها أنّه لم يعد يكتب في الفراغ…

بل يكتب لواحدة بعينها.

لواحدة ليست هي.

تنهّدت، ثم أمالت رأسها للخلف وكأنها تستند إلى جدار من الذكريات.

"لقد اختار··· أو يحاول أن يختار على الأقل."

لكنها لم ترتعب.
لم يتزلزل شيء بداخلها.
لأنها تعرفه.
تعرف أنّه حين يخاف، يعود.
وحين يندفع بقلبه، يتراجع عند أول شك.
وتعرف أنّ هذه الجديدة··· مهما كانت مختلفة،
ما تزال هشّة بما يكفي لأن يربكها ماضٍ واحد لم تكتبه بيدها.

قالت لنفسها بنبرة أقرب إلى السخرية الخفيفة:

"يظن نفسه قادرًا على الخلاص··· ويظنها قادرة على انتشاله. حسنًا··· سنرى."

نهضت من مكانها، مشت في الغرفة كمن يضبط إيقاع تفكيرٍ فوضوي.
فتحت نافذتها، دخل هواء الليل البارد، وارتجفت قليلًا.
وهي تنظر إلى الطريق البعيد، شعرت أنها ليست مهزومة.
بل تشعر بشيء يشبه الاطمئنان.

اطمئنان غريب···
كالذي يأتي لمن يعرف أنّ خصمه ما زال يتعثّر،
ما زال يبحث عن خطوة ثابتة،
وما زال يحمل نقطة الضعف نفسها التي عرفتها فيه منذ البداية:

...قلبه الحنون

.وولعه الفوضوي بالمُنقذين

:همست لنفسها

هي تشجّعه الآن... لكن حين يقترب منها حقًا، ستخاف. وعندما تخاف ستتأخر. وعندما تتأخر... سأكون" ".أنا هناك

.ثم عادت إلى هاتفها، أعادت قراءة الكلمات التي كتبها هو

...لم يغظها التصريح

،بل أغاظها أن كلماته هذه المرة ليست لها

،وأن انشغال قلبه بغيرها جعله أكثر شاعرية

،أكثر صدقًا

.أكثر جمالًا

،ابتسمت ابتسامة صغيرة لا تشبه الخسارة

،بل تشبه امرأة تعرف أن الحرب طويلة

.وأن سهمًا واحدًا لا يقتل مقاتلة قديمة

:ثم قالت في سرّها

...حسنًا يا عزيزي"

"...انظر إلى قلبك الآن، ثم انظر إليه حين أقترب فقط خطوة واحدة

وامتدت يدها لتكتب شيئًا···

ثم توقفت.

سحبت يدها بعيدًا.

ضحكت.

"لا··· ليس الآن.

سنتركهما يرتبان مشاعرهما···

ثم نرى كم سيصمد."

الفصل – الجديدة··· حين يخترقها صوته عبر الكلمات

جلست الجديدة على حافة سريرها، الهاتف بين يديها وكأنها تمسك بقطعة من قلبه.

كانت تعرف أن ما قرأته ليس مجرد كلمات عابرة···

كان إعلانًا غير مباشر، لفتة صامتة··· رصاصة خفية أطلقت على مسافة بعيدة لكنها اخترقت قلبها بلا عودة.

أعادت قراءة الجملة للمرة الثالثة، الرابعة···

كل مرة كان قلبها يخفق بطريقة مختلفة:

مرة خوفًا، مرة فرحًا، ومرة شعورًا غريبًا بأنها··· مهمة، بأن هناك شيء في داخلها استيقظ أخيرًا بعد سنوات من التردد والخوف.

هو··· يعرفني.

همست لنفسها، ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة لا تظهرها للآخرين، ابتسامة مليئة بالدهشة والارتباك.

.لكن قلبها لم يهدأ

،لم يكن الأمر مجرد فرحة

بل معركة داخلية بين الخوف والرغبة، بين الماضي الذي جرّحها وبين الحاضر الذي يبدأ بإشارات لطيفة لكنها قوية.

تخيلته يجلس في شرفته، مع الموسيقى الكلاسيكية، مع قهوته، يقرأ الرسائل التي لم تكتب، يراقبها بعين لا تراها… وكأنها توقفت على هذا السطر، وتنفست ببطء، ثم عادت لتقرأه ثانية.

تخيلت ابتسامته الخفيفة، صمته الطويل… ارتباكه الداخلي، والارتباك الذي يراه فيها، قبل أن تقول كلمة واحدة.

.كانت هذه المخيلة تثقل صدرها، لكنها في الوقت نفسه تُنعشها

:كانت ترى نفسها صغيرة أمامه، ضعيفة… لكنها لم تشعر بالخوف تمامًا، بل شعورًا غريبًا يشبه الوعد وعد بأن هناك شيء بينهما سيحدث، شيء حقيقي، شيء حيّ.

:لكنها سرعان ما شعرت بالتوتر

هل قرأت القديمة؟

هل فهمت أنها ليست الوحيدة التي تسيطر على المشهد؟

هل سيعود قلبه إليها؟

هل سيتركني أم سيستمر في الصمت؟

.جلست صامتة، تتنفس ببطء، وتراقب نفسها في المرآة

.تلمس وجهها، كأنها تريد التأكد أن قلبها لم يهرب، وأن يأسها لم يملأ المكان بعد

،ثم رفعت الهاتف مرة أخرى، كمن يقرأ مرة ثانية رسالةً قديمة… لكنها لم تكتب شيئًا، اكتفت بالتفكر بتحليل كل كلمة، كل فعل، كل إحساس يختمر داخلها.

تذكرت حيرتها السابقة، خوفها القديم، وجروحها التي لم تندمل بعد.

لكن في هذه اللحظة، شعرت بأن شيئًا ما بدأ يتحرك في داخلها…

شيء يوقظ رغبة قديمة بالنظر، بالرؤية، بالاهتمام، وبالانتظار…

انتظار بسيط لكنه محمّل بكل المشاعر التي حاولت أن تخفيها.

ثم ابتسمت مرة أخرى، لكن هذه المرة بابتسامة أعمق،

ابتسامة تقول لنفسها:

"قد يكون الأمر أخطر مما توقعت… وقد يكون أجمل أيضًا."

أغمضت عينيها، استنشقت ببطء، وسمعت صوت قلبها ينبض بطريقة مختلفة،

كأنه يقول لها بصمت:

"أنا هنا… وأنت تعرفين ذلك."

الفصل – هو… حين قرّر أن يكتب صراحةً لا تشبه السابق

لم ينم تلك الليلة بسهولة،

كانت الكلمات التي كتبها تُعيد ارتدادها داخله كما لو أنها خرجت منه لتعود وتستقر في مكان أعمق.

جلس في شرفته، الهواء البارد يلامس وجهه،

الفنجان بين يديه يفقد حرارته سريعًا،

والليل يمد ظله فوق المدينة مثل عباءة ثقيلة.

كانت الموسيقى الكلاسيكية تعزف على جهازه بصوت خافت؛ مقطوعة بطيئة تُشبه تلك المشاعر التي لا تنفجر بل تتسلل.

ظل ينظر إلى السماء قليلًا، إلى بقايا الضوء على سطح المدينة، ثم أغلق عينيه،

.وكأنه يراجع نصًّا لم يكتبه بعد لكنه يوشك على الخروج

...كان يشعر بها

،يشعر أنها قرأت، وأن عينيها توقفتا على موضع محدد من الكلام

.وأن قلبها ارتجف بالطريقة نفسها التي ارتجف بها قلبه قبل أن يضغط زر النشر

،لم يكن يبحث عن اعتراف مباشر

،كان يبحث عن نبض

،عن حركة صغيرة تحرّك المياه الراكدة داخلها

.عن اهتزاز غير مرئي يخبره بأنها لم تُطفئ كل شيء بعد

،لكنه كان يعرف أيضًا أن الماضي يراقبه

،يرفع حاجبه

،يبتسم بثقة مبطنة

.ويدقّ الأرض بقدمه كما يفعل الجنود حين يستعدون لجولة جديدة

...تنهد مطولًا، ثم سحب هاتفه ووضعه أمامه دون أن يلمسه

،كان يفكّر في الكتابة من جديد، لكن هذه المرة ليس بوصف أو استعارة وحدها

.بل بلمسة اعتراف غير مباشر تحمل اسمها كفاعلٍ في حكاية تخصّه وحده

،فتح صفحة الكتابة

،ترك الشاشة البيضاء تواجهه كمرآة لا تكذب

.ثم بدأ يكتب ببطء، لا بالعجلة التي تسبق الخوف، ولا بالتردد الذي يسكن الجبناء

كتب جملة أولى···

ثم محاها.

كتب ثانية···

ومسحها قبل أن يقرأها كاملة.

ثم أغلق عينيه لحظة، واستعاد شيئًا واحدًا فقط:

ذلك الشعور الذي تسلل إليه عندما رآها آخر مرة وهي طفلة،

وذلك الشعور نفسه عندما رأى صورتها الأخيرة وهي امرأة تنضج كأنها شجرة نور لم تكتمل أوراقها بعد.

وهنا، دون تفكير، كتب الجملة التي كان يهرب منها:

"أعرف أنك لا تقصدين أن تسرقي قلبي،

لكن شيئًا في حضورك يفعل ذلك دون إذن،

وكأن قلبك يحتاج قلبي ليحيا،

وقلبي يحتاجك ليتذكر···

فلا تعتبي عليّ إن ناديتك دون اسم،

فالاسم واضح··· وإن لم أكتبه."

قرأ ما كتب،

لم يشعر بالندم،

ولا بالخوف كما كان يتوقع،

بل بشيء يشبه الراحة الثقيلة التي تأتي بعد بكاء طويل لم يره أحد.

ثم نشر الكلمات بهدوء،

ووضع هاتفه جانبًا،

وأغمض عينيه،

كمن سلّم معركته للريح،

وقال في سره:

"إن كانت ستقترب… ستعرف أن هذا الكلام لها.

وإن كانت ستخاف… سيفعل الصمت ما يفعله دائمًا:

يعيدني إلى نقطة البداية."

الجديدة – ما بعد رسالته

قرأت الكلمات أكثر من مرة…

ليس لأنها لم تفهم، بل لأنها فهمت أكثر مما رغبت.

توقفت عند الجملة التي استخدم فيها اسمها كفعل…

وكأنها حدث يتكرر، لا شخص قد يرحل.

لم تشعر بالانتصار كما يتوقع البعض،

ولم تطمئن كما تتمنى أي امرأة تحب،

بل اجتاحها شعور غريب يجمع بين الخوف والامتنان:

امتنان لأنه أخيراً خلع القناع وتحدث بوضوح…

.وخوف من أن يكون وضوح اللحظة هو غموض الغد

:عقلها يدور بثلاث دوائر متداخلة

دائرة القلب 1️⃣

.كانت سعيدة… بشكل خجول

،شعرت وكأنها أصبحت في معادلة لها قيمة

.لم تعد ظلًا، أو احتمالًا مؤجلًا، أو مشروع حب تحت الاختبار

:قالت لنفسها

".إذن هو حقاً يشعر… لم أكن أتخيل وحدي"

،لكن قلبها رغم الفرح… لم يرقص

.بل اكتفى برفع رأسه قليلاً من تحت الماء ليلتقط أنفاسه

دائرة العقل 2️⃣

،عقلها لم يسمح للحظة أن تكون احتفالًا

:بل فتح ملفات بأسئلة ثقيلة

لماذا الآن فقط؟

هل كتب هذا دفاعًا… أم إيمانًا؟

هل كانت رسالته للقديمة أم لها؟

هل يصرّح بها لأنه اختار… أم لأنه يهرب؟

كانت تدرك أن الكلمات لا تساوي شيئاً إن لم يرافقها فعل,

ولطالما وُلدت أجمل الوعود في لحظات الخوف…

لكن… كم منها عاش؟

دائرة الخوف 3️⃣

ماضيها لم يكن مجرد صفحة…

كان جرحًا يتظاهر بالشفاء لكنه مازال يحكّ تحت الضمادة.

عندما قرأت ما كتبه، لم تفكر فقط في الحب،

بل في الاستمرارية… الصدق… النجاة.

وسألت نفسها بصوت داخلي حقيقي وصادم:

"هل هو يختارني… أم يهرب بي؟

وهل أنا أريده… أم أهرب معه؟"

في تلك اللحظة لم تشعر بالنصر على القديمة،
فهي ليست في حرب معها أصلًا...

هي فقط تخشى أن تكون:

جسرًا لعبوره

أو ضمادةً لوجعه

أو راحة مؤقتة قبل العودة لما كان

هي لا تريد أن تنتصر...
هي تريد أن تبقى.

وبينما الجميع يقرأ رسالته بـ"الرومانسية"،
هي قرأتها بـ"المسؤولية".

لذلك لم تبتسم فورًا...
بل تنفست ببطء،
وحدقت في الفراغ قائلة لنفسها:

"لو كنتُ حقًا فِعلًا في حياته...
فليكن الفعل القادم ليس بالكلمات... بل بالاتجاه."

:ثم قررت أمراً صغيراً خطيراً

…لن ترد بسرعة

…لن تمنحه الطمأنينة مجانًا

.ولن تتحدث قبل أن تسمع قلبها بوضوح

رجل القصة – ما بعد الرسالة

…حين ضغط زر الإرسال، توقّع شيئًا من الراحة

،ظن أنه أخيرًا اختار الطريق

،وأنه وضع حجرًا ضخمًا على باب الماضي

.وأرسل ضوءًا واضحًا في اتجاه المستقبل

لكن الحقيقة؟

.لم يشعر بالانتصار… بل بالفراغ

،جلس طويلًا يحدّق في شاشة لا ترد

.ويستمع إلى صمت لا يشرح

…لم يكن خائفًا من خسارة القديمة

…ولا كان محتفلًا بربح الجديدة

.كان خائفًا فقط من خسارته لنفسه إن أخطأ الاختيار مرة أخرى

تدفق أفكاره.. كما سمِعها عقله

هل كنت شجاعًا بما يكفي؟"

أم مُتهوّرًا بما يكفي؟

هل كتبت بدافع الحب؟

أم بدافع الخوف من الخسارة؟

هل كنت أُعلن بداية جديدة؟

"أم أحاول إغلاق ثغرة فقط؟

:ثم عاد فجأة بفكرة صادمة

هل أنا مستعد للعلاقة التي أحارب من أجلها؟"

"أم أنني أقاتل لأثبت أنني قادر على القتال... فقط؟

تفاصيل صغيرة أرهقته أكثر من السؤال الكبير

لاحظ أن قلبه كان مطمئنًا لكنه ليس مرتاحًا

أحس أن الفعل الذي فعله ليس نهاية، بل مجرد بداية معركة

شعر أنه لم يربح شيئًا بعد

وأن الرسالة قد تكون وضوحًا بالنسبة له، وغموضًا بالنسبة لها

:ثم بدأ الخوف يتسلل

ماذا لو صمتت الجديدة لأن كلامه لم يكن كافيًا؟

وماذا لو ضحكت القديمة لأنها تعرف تمامًا أنه لا يزال يتصرف رد فعل لا فعلًا؟

وماذا لو أصبح كلا الطرفين يشكّ فيه؟

ولأول مرة… يعترف مع نفسه

قال بصوت داخلي منخفض كأنه لا يريد إزعاج روحه:

"أنا لا أخاف من فقدان إحداهما…

أنا أخاف من أن أفشل في حب أي منهما كما يجب."

كل ما يريده ليس امرأة يربحها، ولا أخرى يتركها…

بل نسخة منه تصلح للحب دون أن تظلم أحدًا.

وعند هذه النقطة… قرر شيئًا مهمًا

لن ينتظر الردين كمُتسولٍ عاطفي،

بل كصاحب قرار يريد أن يعرف إلى أين يتجه قلبه…

وإلى أين يتجه عقله…

وهل الطريق نفسه يصلح للسير أم لا.

قال لنفسه:

"لن أترك الصمت يقرر عني…
ولن أترك الماضي يفاوضني…
ولن أترك الخوف يكتب مصيري."

ثم تنفّس بعمق، وأعدّ نفسه للخطوة التالية…
مهما كانت مؤلمة.

القديمة – ما بعد الرسالة

حين وقعت عيناها على كلامه، توقفت للحظات كما لو أن أحدهم كبس زرًا غامضًا في ذاكرتها…
الكلمات لم تؤلمها بقدر ما أزعجتها.
الرجل الذي اعتاد أن يكون بابه مفتوحًا لها دائمًا،
الرجل الذي كان ينهار عند أول بكاء لها،
الرجل الذي كانت تعرف كيف تلوّنه، وتطفئه، وتعيد تشغيله،
يكتب الآن وكأنه ينتمي لامرأة أخرى… لا لها.

ابتسمت… لكنها ابتسامة بلا رقة، ابتسامة امرأة تفهم اللعبة جيدًا.

قالت داخل نفسها بصوت يشبه الهمس الساخط:

"إذن… كتبت لها؟
حسنًا… ظننت أنك أذكى من أن تتوه في شعورك بهذه السرعة…
لا بأس… دعني أرى إلى متى ستصمد."

.لم تشعر بالخسارة، بل بالفضول

.ولم تشعر بالغيرة فقط، بل بالتحدي

…فهي لا تؤمن بأن هناك من يستطيع أخذ مكانها

قد تتأخر، قد تغيب، قد تتجاهل، لكنها في النهاية تعرف طريق العودة

…وتعتقد أنه في كل مرة، كان هو ينتظرها خلف الباب

فلماذا تختلف هذه المرة؟

النقطة التي أخافتها فعلًا

…لم تكن رسالته أهم ما أزعجها

:بل نبرة صوته فيها

لم يكن يكتب ليبرر

لم يكن يكتب ليحكي

لم يكن يكتب ليقارن

بل كان يكتب وكأنه يحسم دون الحاجة لشرح

.وهذا ما جعلها تتراجع خطوة داخل عقلها، لا قلبها

:قالت لنفسها

"هو لم يكتب كمن يبحث عن مواساتي···

بل كمن يخبرني أنه لم يعد مكانكِ هنا.

هذه ليست لهجته القديمة···

هناك امرأة بالفعل تلمسه···

ليس قلبه فقط··· بل طريق تفكيره."

رد فعلها النفسي الحقيقي

جنّدت مشاعرها بسرعة كما تفعل دائمًا:

لم تسمح لنفسها بالحزن

فالحزن اعتراف بالهزيمة.

لم تسمح لنفسها بالغيرة المعلنة

فالغيرة إعلان ضعف.

اختارت السلاح الأقدم والأكثر فعالية لديها:

العودة الهادئة المدروسة.

قالت في داخلها:

"لن أطلبه···

لن أعاتبه···

لن أهدد الرحيل…

كل ما سأفعله… هو أن أدعه يشعر أنني لا أُكسر…

وأن ما بيننا لم يكن شيئًا بشريًا يسهل استبداله."

خطوتها القادمة

لم تفكر أن تكتب له فورًا…

ولم تفكر أن تختفي أيضًا…

بل خططت لصياغة رسالة من نوع مختلف تمامًا:

رسالة لا تحزن فيها ولا تطلب،

لا تتهم ولا تغضب،

بل تُعيده إلى نقطة الشك التي كانت تعرف أنها مدخله الأساسي للرجوع.

رسالة قد تكون بسيطة في الشكل…

لكنها خطيرة في المعنى.

مثل:

"أتمنى فعلًا أن تجد قلبك سعيدًا هذه المرة…

فقط تذكر أنك تستحق من يفهم تعقيدك… قبل جمالك."

رسالة كهذه تعرف أنها لن تضرب الجديدة فقط…

بل ستضربه هو أيضًا…

.في أعمق منطقة كان يحاول الخروج منها

صندوق أفكارها – بمستوى التعمّق الداخلي

كانت تتحرك داخل عقلها ببطء شديد، كما لو أنها تفكّر في غرفة لها إضاءة خافتة جدًا، تضع يدها على قلبها لا لتطمئن إليه، بل لتذكره بقسوته حين يلزم الأمر.

:في داخلها، كانت تدور الحوارات التالية

أهي خسارة؟ أم مجرد جولة؟ 1️⃣

،لم أخسره… فقط خرج قليلًا من المدار"

،النجوم أحيانًا تُبتلع من وهج جديد

".لكنها تعود لتتوهج حين يخفت الضوء الطارئ

هل أحبها فعلًا أم وجد مساحة مفقودة؟ 2️⃣

…ربما جاءته في توقيت هش"

…والقلوب الهشة لا تميّز، بل تتكئ

هل يتكئ عليها؟ أم يحبها؟

".هناك فرق… والفرق سأعرفه لاحقًا

هل أظهر نفسي مهتمة؟ أم باردة؟ 3️⃣

الاهتمام الآن انتحار..."

والبرود الكامل كاذب...

يجب أن أكون في منتصف الطريق:

لست مندهشة... ولست منسحبة...

فقط امرأة ترى الصورة كاملة وتبتسم."

4️⃣ ماذا لو تعافى بالفعل؟

هنا تشعر بوخزة صغيرة... لكنها لا تعترف بها:

"ولماذا أخشى؟

إن كان التعافي يعني الخروج من حياتي،

فلماذا يعود كلما أشرتُ له؟

الزمن ليس معيار الانتماء...

هناك من يكتبون اسمك فيهم بطريقة لا تُمحى."

5️⃣ ماذا عن قيمتها أمام الجديدة؟

"هي قد تكون جميلة، ناضجة، عميقة...

لكنها لا تعرف تاريخه كما أعرفه،

لا تعرف نقاط سقوطه ونقاط انتصاره،

لا تعرف ماذا يعني عندما يسكت...

ومتى يهز كتفيه... ومتى ينظر لليسار."

ما الرسالة التي يجب أن تصل؟ 6️⃣

"لا أريده أن يعود إليّ الآن…

بل أريده أن يشك…

يشك في اندفاعه

يشك في تعافيه السريع

يشك في معنى ما يعيشه معها

الشك أول باب للعودة."

ما شكل السلاح النفسي المناسب؟ 7️⃣

سأستخدم كلمتين فقط":

الوعي + الغموض

لا عتاب، لا حب، لا لوم…

فقط جملة تهز ولا تجرح…

وتلمس ولا تتوسل…"

ثم ابتسمت ابتسامة خبيرة ليست نابعة من فرح أو قوة… بل من معرفة سابقة بنتائج مشابهة، وقالت داخل نفسها:

"لن أقاتل…

سأتركه يقاتل أسئلته وحده…

فالرجل لا يعود لأنه مأسور…

بل لأنه محتار."

ثم أغلقت صندوق أفكارها بقرار وحيد:

"لن أظهر ضعفي··· سأجعله يتساءل."

المشهد – يوم من حياتها بعد ظهوره وكلماته

استيقظت ذلك اليوم متأخرة قليلًا عن المعتاد، لم يكن في الأمر كسل، لكن الليل أثقل عقلها لا جسدها.

قلبها كان يعمل أكثر من اللازم··· وكأن داخله غرفة اجتماعات مكتظة بالآراء والاحتمالات والتوقعات، ولم تستطع أن تُسكِت أحدًا منها.

نهضت ببطء، مشت إلى المرآة، لم تنظر إلى ملامحها مباشرة، بل نظرت إلى ظلال التعب خلف عينيها···

همست لنفسها دون صوت واضح:

"لماذا عاد كل شيء للدوران فجأة؟"

لم تكن تبكي، ولا تضحك، ولا تتنهد، بل كانت في حالة حياد مشوش، تلك الحالة التي لا تكون فيها مشاعرك معك ولا عليك.

ارتدت ثيابها البيتية المريحة، أعدت قهوتها المفضلة، وجلست أمام الطاولة الصغيرة قرب النافذة التي يدخل منها الضوء الباهت للشتاء.

وضعت هاتفها جانبًا، لكن عينيها لم تفارقه···

لم تكن تنتظر رسالة منه، بل كانت تراقب انعكاس قوتها أمام نفسها:

هل ستفتح؟ هل ستبحث؟ هل ستتأكد؟

ولم تفعل.

فتحت الحاسوب بدلًا من الهاتف، دخلت إلى أعمالها وأوراقها وكأنها تريد أن تثبت لنفسها أنها امرأة تعيش خارج مساحة العاطفة حين تقرر ذلك.

لكن ذهنها لم يستطع البقاء في العمل أكثر من عشر دقائق…

هناك جملة واحدة عاد صديها لإرباك نبضها:

"هل فعلًا كتب من أجلي؟ أم أنّ قلبه فقط يبحث عن مخرج لكل احتباس قديم؟"

تنفست طويلًا، ثم قررت أن تُشغل عقلها أكثر من قلبها.

لم تدخل صفحته مباشرة، بل دخلت إلى الصفحة من حساب ثانوي قديم لم تعد تستخدمه ـ كعادة من اعتاد السيطرة على المشهد قبل الاقتراب منه.

قرأت المنشور مجددًا، ببطء، كلمة كلمة…

توقف ذهنها عند مكانٍ معين في النص، عند اختيار كلمة لم يكن يستخدمها سابقًا، وعند صورة شعورية لم تكن تشبه طريقته إلا عندما يكتب لمشاعره الحقيقية فقط.

ابتسمت… ليست ابتسامة انتصار، بل ابتسامة من فهم الخريطة.

"إن كان يقصدني… فهو استعاد القدرة على البوح.

وإن لم يكن… فهو ما زال يعيش في عالَم يحاول أن يلتقط فيه شيئًا يشبهني."

ثم نهضت، ترتب شعرها، وتذهب للمطبخ لتغسل الكوب…

لكن فجأة أمسكت الكوب بقوة أكبر مما ينبغي بعدما خطرت لها فكرة:

الجديدة تقرأه الآن أيضًا··· السؤال ليس من يقصد؟"

"السؤال: من ستفهمه أسرع؟

.عادت لغرفتها، وضعت قليلًا من عطرها ليس لأنها ستخرج··· بل فقط لتتذكر رائحة حضورها أمام نفسها

ثم جلست على سريرها، ضمت إحدى الوسائد إلى صدرها كما تفعل حين تستدعي عقلها ليكون صديقًا لا خصمًا.

:بدأ حوارها مع ذاتها

"هل أغار؟" -

".لا··· ليس الآن، الغيرة مبكرة، والاندفاع حماقة" -

"هل أخاف؟" -

".ربما··· لكن خوفي لا يُرى، وأنا لن أقدّم نقطة ضعف مجانية" -

"هل أرغب بالعودة؟" -

".أنا أرغب أن يحسم··· وبعدها لكل حادث حديث" -

···تذكرت الجديدة للحظة

.لا لأنها تكرهها، بل لأن ظهورها أجبرها على إعادة ترتيب ثقتها بنفسها

:فقالت داخليًا وكأنها تكتب سطرًا في رواية شخصية

···أنا لا أخاف من النساء"

".أنا أخاف فقط من نسخة مني يوم أحببت بعمى

مع مرور الوقت، هدأت قليلًا، فتحت النافذة، شعرت بنسيم بارد يلامس وجهها، بدا وكأنه يعيد تشغيل قلبها بشكل ناعم.

قالت بعدما أغمضت عينيها:

"سأراقب… من بعيد.

فالأرض ترتفع دائمًا تحت أقدام من يعرف قيمته."

وفي نهاية ذلك اليوم…

وقبل أن تنام، كتبت في مفكرتها لا في هاتفها:

"الحكاية لم تنتهِ… لكنها لم تعد ملك الماضي فقط.

هناك سطر جديد ينتظر…

وأنا أعرف كيف أصل إليه دون أن أنحني."

ثم نامت…

بلا دموع…

بلا هزيمة…

وبلا يقين أيضًا…

لكنها نامت واقفة من الداخل.

الفصل —— يومه هو بعد المنشور الأخير

استيقظ قبل الشروق بقليل، ليس لأنه نام مبكرًا، بل لأنه لم يعرف كيف ينام أصلًا.

كانت ليلة ثقيلة، لا تضج بالذكريات بل بالأسئلة التي تدور داخل رأسه كأطفال يرتدون أحذية خشبية على أرضية صماء.

خرج إلى شرفته قبل أن يبدّل ثيابه أو حتى يغسل وجهه؛

أشعل جهاز الموسيقى الصغير، واختار مقطوعة هادئة لا يعرف اسمها لكنه أحب فيها الفراغ بين النوتات أكثر من النوتات ذاتها.

ذلك الفراغ يشبهه تمامًا.

جلس… ليس ليرتاح، بل ليواجه نفسه دون هروب.

رفع هاتفه ببطء، فتح التطبيق الذي كتب فيه بالأمس دون أن ينوي كتابة أي شيء جديد.

لم يكن يريد قراءة التعليقات بقدر ما أراد أن يتأكد إن كان يشعر بالندم أم لا.

وبعد دقائق من الصمت، خرج بجملة قصيرة في ذهنه:

"لا أندم على كتابة ما يعني الحقيقة… بل أندم على تأخيره حين كان يجب أن يُقال."

وأعاد الهاتف مكانه، ولم يقرأ سطرًا واحدًا بعد ذلك.

دخل بعدها إلى المطبخ، صنع قهوته السوداء الثقيلة، بقي واقفًا أمام دلة الماء المغلية فترة أطول من اللازم،

وكأنه يفكر إن كان القلب حين يحترق يحتاج إلى من يبرده أم إلى من يشربه حتى النهاية؟

عاد إلى الغرفة، جلس على الكرسي الخشبي القديم قرب النافذة،

المكان ذاته الذي كتب فيه معظم نصوصه ولم يخبر أحداً أنه قاوم الكثير من السقوط وهو جالس على هذا الكرسي تحديدًا.

—— بدأ يفكر فيها —— الجديدة

.تلك التي تعوده إلى الحياة ببطء يشبه شفاء الجروح لا اشتعالها
:جملة واحدة كانت تدور بداخله

".إن صمت الآن ضعتها··· وإن تكلمت الآن أخفتها"

،كان يعلم أنها حذرة
،تعرف الألم أكثر من المعرفة
.وتتذكره كمن يتفقد أثر طعنة لا تزال ساخنة

···وكان يعلم أن صمته الطويل قد يجعلها تفكر أنه متردد بشأنها
.وهذا وحده كفيل بإعادتها إلى قوقعتها القديمة والهرب بلا صوت

···وأثناء شروده، تذكر القديمة

،ليس حنينًا إليها، بل حنينًا لنسخته الساذجة في ذلك الزمن
،ذلك الرجل الذي لم يكن يعرف معنى الإشارات العميقة
.ولا معنى أن تكون الكلمات أحيانًا طوق نجاة وأحيانًا مقصلة

:قال في سره

···هي لا تريد عودتي"
".هي فقط ترفض أن أنجو بصمت

.كان يفهم لعبتها جيدًا

…الضربة ليست في استعادته

بل في إعادته إلى منتصف الطريق،

حيث لا يصل… ولا يعود… ولا يتقدم.

أغلق الموسيقى، أطفأ السيجارة قبل منتصفها،

وكأنه يرفض أن يمنح أي شيء عمرًا أطول مما يستحق.

ثم اتخذ قرارًا واضحًا:

لن يترك الجديدة وحدها في الرمادية.

سيكتب لها…

لا ليصطادها،

بل ليمنع روحها من الإظلام مجددًا بسببه.

لكنه لم يكتب فورًا،

فهو يعرف أن الكتابة حين تكون من الدم لا تكتب على أول سطر.

ارتدى معطفه، خرج من المنزل،

مشى في الهواء البارد دون وجهة،

وكأنه يريد للريح أن تبحث معه عن الكلمات المناسبة.

وفي الطريق قال لنفسه:

"إن لم أستطع أن أحمي قلبًا وجدني صدفة…

فلست أهلًا لكتابة حرف واحد بعد اليوم."

عاد ليلًا، جلس أمام شاشة هاتفه،

فتح صفحة الكتابة ولم يكتب بعد…

ابتسم ببطء، وقال داخله:

"ستعرف أنها المقصودة…

ليس لأنني سأسميها…

بل لأن الكلمات لا تستقر إلا في حضن أصحابها."

ثم بدأ يكتب…

ليس كي ينتصر،

ولا كي يتملك،

ولا كي يثبت شيئًا للقديمة،

بل كي يقول للجديدة بصيغة لا يفهمها إلا قلبها:

"لقد اخترتُكِ… حتى قبل أن أعرف أنني اخترتُكِ."

ووضع الهاتف بعيدًا…

واستلقى مثل رجل أنهكته الحروب لكنه لا يزال يرفض رفع الراية.

الفصل – يومٌ ثالث لا يسمعه أحد

السماء

تغيّر الطقس في ذلك اليوم،

لم تمطر، ولم تصحُ،
بقيت السماء معلّقة بين لونين،
كأنها تحاول أن تتذكر هل ما زالت تمتلك غيمة لتبكي…
أم شمسًا لتضحك.

كان هذا اليوم لا يشبه البارحة… ولا يشبه الغد…
بل يشبه تمامًا المنطقة الرمادية التي يخافها العشاق ويفهمها الشعراء.

هي في يومها الثالث

استيقظت متأخرة قليلًا، ليس بسبب النوم،
بل لأنها بقيت لوقتٍ طويل تحدّق في السقف قبل أن ينام عقلها لا عينيها.

لم تحاول الوصول له…
ولم تقرأ ما كتب مرة أخرى…
كأنّ قلبها قرر أخيرًا أن يأخذ خطوة صغيرة باتجاه الحذر الهادئ.

ارتدت ملابسها ببطء،
شربت ماء بدل الشاي والقهوة،
وكأنها تريد أن تعود عن قصد إلى أبسط نسخها.

لم تتواصل مع أحد،
حتى صديقتها اكتفت بقراءة رسائلها دون ردّ سريع،
لماذا؟

لأنها شعرت أنّ الحديث في ذلك اليوم سيجعل الكلمات أكبر مما ينبغي.

خرجت تتمشى قرب بيتها،
تراقب تفاصيل لم تكن تراها من قبل:
الحجارة الصغيرة، أوراق الشجر اليابسة، صوت الريح،
وكأن العالم يريد أن يقول لها:
"الحياة أوسع من الخوف… لكنها لا تلغي الخوف."

فكّرت به، نعم…
لكن لأول مرة لم تفكّر فيه بصوت مرتفع داخل نفسها،
اكتفت بجملة واحدة مرّت بصمت:

"هل تأتي الطمأنينة قبل الحقيقة… أم بعدها؟"

أما القديمة في يومها الثالث

استيقظت مبكرة كمن يخشى أن يفوته مشهد ما،
فتحت هاتفها قبل أن تغسل وجهها،
قرأت ما كتبه مجددًا،
ثم ضيّقت عينيها قليلًا…
كانت تفكر لا تحزن… تحلل لا تتألم.

قالت لنفسها:

"إن كان ما كتبه اختيارًا··· فسأجعل الاختيار يمتحنه جيدًا."

لم تكن ضعيفة،

ولا شريرة،

بل كانت امرأة اعتادت أن تربح كل معركة بالكلمة الأخيرة.

ومع ذلك،

ورغم ذكائها وتحليلها وثقتها،

مرّت جملة خفيفة كنسيم بارد على قلبها:

"هل يمكن أن يخونني الحدس هذه المرة؟"

لكنها رفضت الاعتراف،

فقط ابتسمت ابتسامة قصيرة وقالت:

"الصمت ليس نهاية··· الصمت مرحلة تكتيكية."

ثم لبست أحمر شفاهٍ جديدًا،

كما لو كانت تستعد لمعركة لا يعلم أحد موعدها.

هو في يومه الثالث

استيقظ في ساعة مبكرة،

لكنه لم يشعر بالضيق كما بالأمس؛

.بل شعر بشيء يشبه الخفة المشوبة بتساؤل طويل

،لم يدخل على حسابه
،لم يقرأ الرسائل أو التعليقات
،ترك هاتفه في غرفة أخرى
.ووقف أمام النافذة يتنفس الهواء وكأنه يتعلم التنفس من جديد

:قال في داخله

".إن كانت البداية تحتاج دليلاً… فالنهايات تحتاج إيمانًا"

،قرر أن يعيش هذا اليوم بلا قرار جديد
،وبلا خطوة مفروضة
.وبلا محاولة لجرّ القدر أو دفعه

…اليوم
،سيكتفي بأن يكون إنسانًا لا شاعرًا
،رجلاً لا بطل رواية
.صوتًا داخليًا لا منشورًا خارجيًا

،ارتدى ملابسه، خرج ومشى في شوارع بعيدة لا يعرف أسماءها
،جلس في مقهى لم يسبق أن جلس فيه من قبل
:كتب في ورقة صغيرة هذه الجملة ثم خبّأها في جيبه

"ما ينجو من الصمت… يستحق أن يُقال."

وفي تلك اللحظة،

كانت الثلاثة — دون اتفاق —

يعشن اليوم ذاته بصمت متوازٍ:

كل منهم ينتظر شيئًا…

لكن لا أحد منهم يعرف ماذا ينتظر بالضبط.

مشهد اليوم – "اليوم الذي اهتز فيه صمتها" (الجزء 1)

من داخل عالم الحبيبة القديمة

استيقظت وهي غير متأكدة إن كانت قد نامت حقًّا أم أنها فقط أغمضت عينيها واستلقت بين شظايا الأفكار التي لم تمنحها الإذن بالهدوء، شعرت بأن رأسها ما يزال ممتلئًا بتلك الحروب الصغيرة التي تشتعل بلا دخان. نظرت في هاتفها قبل أن تنطق صباح الخير لنفسها، وكأن العالم كله معلّق في تلك الشاشة، كأن الحقيقة لا تستيقظ إلا هناك.

دخلت إلى حساباته بهدوء المتسلل الذي يحفظ طريق العودة جيدًا، ليس خوفًا من انكشافه وإنما لأن الاقتراب منه — حتى رقميًا — يتطلّب طقسًا يليق بما كان: شيء بين الشغف والجرح، بين الذاكرة والإدمان.

هناك… كان المنشور.

ما يزال هو أسلوبه — لكنه ليس لها هذه المرة.

نفس دفء الكلمات، نفس هندسة الجملة، نفس القدرة على جعل السطور تنزف بهدوء… إلا أن الروح مختلفة، الجهة مختلفة، والنبض ليس في اتجاهها.

في اللحظة الأولى ارتجفت ابتسامتها لا قلبها؛ فهي تعرف قواعد اللعبة جيدًا:

لا تنتصر بالعاطفة… تنتصر بالثبات.

الدمعة لا مكان لها أمام مرآتها، فالهزيمة لا تُرى إلا إذا أُعلنت، والخسارات الكبرى لا تكون إلا حين يراك الطرف الآخر ترتجف لأجل ما لم يعد ملكك.

لكن رغم ذلك…

شيء صغير داخلها تحرك كطفل استيقظ فجأة داخل غرفة مظلمة.

لم يكن السؤال: هل ما زال يحبها؟

بل: من تلك التي استطاعت أن توقظه من سباتها؟

جلست على طرف السرير، أغمضت عينيها قليلًا، وأخرجت من ذاكرتها ذلك الدرج المخبوء:

"الرجال الذين يعرفون كيف يحبّون… لا يسهل تعويضهم."

هي تعرفه جيدًا…

تعرف أنه لا يكتب لشخص عابر، وأن النصوص التي لم تكتب لها يومًا لم يكن لها شرف الوصول إلى الضوء.

وما كتبه اليوم — رغم أنه غير مباشر — يحمل رائحة "النية" وملامح "الاعتراف".

لم تنفعل… بل فكّرت.

ومن يعرف كيف يفكر بدل أن ينفجر، لا يزال في منتصف اللعبة، وربما الأقرب للفوز.

وضعت الهاتف جانبًا، وقفت أمام المرآة للحظة طويلة، ثم همست في أعماقها:

"لا بأس… لقد بدأ يتحرك."

والعقل حين ينتقل من سكون الألم إلى حركة الارتباك… فهو في الطريق إليّ، حتى وإن كان الاتجاه يبدو معاكسًا."

وأغمضت عينيها بثقة باردة، تلك الثقة التي تأتي من سؤالٍ غير معلن:

هل حقًا تغيّر… أم أنه فقط يجرّب الهروب من ذات النقطة التي تنتظره فيها؟

مشهد المساء – مواجهة الكلمات الصامتة (الجزء 3)

القديمة – العقل والصندوق الداخلي

المساء جاء ببطء، حاملاً في طياته رائحة المطر البارد الذي لم ينزل، ورغم ذلك شعرت كأن الجو قد أغلق عليها أبواب المدينة كلها.

جلست في غرفتها، لم تلمس الهاتف، بل وضعت كفها على صدرها كما تفعل من يخشى أن يُرى ضعفه من الداخل.

المنشور الذي كتبه هو كان يرنّ في رأسها بلا صوت، كل كلمة فيه جاعلة عقلها يحسب كل احتمال:

هل اختار الجديدة؟

هل يعترف لها ضمنيًا؟

هل صمته الأخير طريقة للمراوغة أم حسم ناضج؟

ابتسمت ابتسامة هادئة لكنها مدروسة بعناية، وكأنها تقول لنفسها:

"حتى لو لم أره اليوم، فقد عاد إلى دائرة الاحتمالات… وأنا أعرف أن منتصف الطريق سيشتت خطواته."

أخرجت ورقة صغيرة وكتبت ببطء:

الصمت ليس تجاهلك… بل اختبار“.

”ومن يعرف كيف يقاوم الصمت… يعرف كيف يختار.

وضعتها جانبًا، لتراقب ماذا سيحدث، دون أن تظهر أي انفعال.

الابتسامة التي ارتسمت على وجهها كانت ابتسامة من يعرف قوة اللعب دون أن تكشف عن أوراقها.

الجديدة – الترقب والتحليل

هي في غرفتها أيضًا، بعد أن وضعت كوب الشاي جانبًا، جلست أمام النافذة، نظرت إلى الشارع الفارغ،

تخيلت كيف يكون جلوسه الآن، ربما يحمل الهاتف في يده، ربما يكتب كلماتًا لكنها موجهة لمن يفهمها فقط.

أدركت أنها تراقب كل تحرك داخليًا قبل أن يظهر خارجيًا، وأن كلمات المنشور ليست مجرد حروف، بل نبضات قلبه المسروقة من صمت طويل.

قالت لنفسها بصوت داخلي:

"إن كان يكتب… فهو يفكر بي… وإن لم يكتب… فهو لا يزال يراقبني."

ثم تذكرت ابتسامته الأخيرة في صورته الأخيرة على الحساب، واللون الذي استخدمه في تعبيراته،

شعرت بخفقان غريب… ليس خوفًا، بل إشارات تُعيد ترتيب قلبها الداخلي ببطء.

هو – مواجهة رصاصة الماضي بالكلمات

جلس في شرفته مساءً، الهاتف أمامه،

يفكر: المنشور ليس لعبًا… بل تصريحًا غير مباشر.

كان يعلم أن القديمة ستقرأه وستفهم··· وأن الجديدة ستتلقى الرسالة أيضًا،

لكن الهدف ليس صراعًا، بل حماية قلب من التمزق أو الخوف.

كتب منشورًا جديدًا، بطريقة مختصرة لكنها قوية، كلمات تحملها الهمسات بين السطور:

"قد نضل أحيانًا بين الماضي والحاضر··· لكن من يختار أن يبني جسورًا رغم كل الشقوق··· يعرف الطريق."

لم يذكر أسماء، ولم يكتب للقديمة أو الجديدة تحديدًا،

لكنه كان يعلم أنه رصاصة غير مباشرة لكل من يعرف القراءة بين السطور.

الراوي المحايد – التزامن

في تلك اللحظات، كانت الثلاثة ―― دون أي اتصال مباشر ―― يعيشون نفس الساعة، نفس المسافة النفسية.

المساء لم يكن مجرد نهاية اليوم، بل نقطة حرجة تتحرك فيها كل النوايا دون أن تُرى، كل الكلمات دون أن تُسمع، كل القلوب دون أن تُلمس.

القديمة: تفكر، تراقب، تبتسم بحذر.

الجديدة: تترقب، تحلل، تخشى أن يُكشف شيء قبل الأوان.

هو: يكتب، يوازن، يرسل رسائل بين السطور كمن يحاول إعادة ترتيب لعبة لم تفقد القواعد بعد.

المواجهة ليست وجهاً لوجه···

إنها حرب الصمت والكلمات، القراءة بين السطور، التحليل الداخلي لكل فعل وكل حرف.

.وهكذا، بدت كل شخصية كما لو كانت تقف على حافة حبل رفيع فوق مسافة لا يُرى قاعها

الفصل – صباح اليوم التالي (التزامن الكامل)

الراوي المحايد – التوقيت: 7:45 صباحًا

،الشمس لم ترتفع بعد، لكن الضوء بدأ يتسلل بخفة عبر الستائر

،يفتح نافذة صغيرة في عالم كل منهم

.كما لو كان الصباح يحاول إعادة ترتيب الفوضى التي خلفها أمس

،هناك شخص يحاول إعادة قلبه إلى إيقاع ثابت

،وثانية تحاول السيطرة على كل اهتزاز داخلي

.وثالثة تشعر بالنبض المتسارع رغم الهدوء الظاهر

هو – العقل والحذر

،جلس في المقهى الذي اعتاد الذهاب إليه أحيانًا

.لم يشرب القهوة بعد، لكنه يحمل الكوب بيديه كما يحمل قرارًا غير مكتوب

يفكر بما كتبه البارحة: منشور مختصر، كلمات بين السطور، رصاصة الماضي في قلب القديمة، لكن أيضاً حماية قلب الجديدة.

،أدرك فجأة أن الأمر لم يعد مجرد صراع داخلي

:بل أصبح اختبارًا دقيقًا لكل واحد منهم

القديمة، كيف ستتعامل مع إشاراته الدقيقة؟

الجديدة، كيف ستستقبل ما لم يُقال صراحة؟

:كتب في دفتر صغير بجانبه

".التحرك الخاطئ قد يوجع الجميع… لكن الصمت أيضًا قد يقتل ما بدأناه"

.أخرج الهاتف، لكنه لم يفتح التطبيق

.كان يعلم أن الرسائل لن تُرسل بعد… لكنها ستظل تنتظر في الظل

:ابتسم ببطء، وقال لنفسه

".لا أحتاج إلى تأكيد… فقط إلى الصبر"

الجديدة – الانتظار والارتباك

،جلست أمام نافذتها، كوب الشاي البخاري على الطاولة

،الهواء الصباحي يعبث بخصلات شعرها

.لكن عينيها كانت مثبتة على الفراغ كما لو كان بإمكانه أن يظهر في أي لحظة

،أمس كانت كلمات غير مباشرة

.واليوم الصباح هو فرصة جديدة للقراءة بين السطور، لا للرد الفوري

،تذكرت تعابيره الأخيرة في الصور، ألوانه التي وصفها، كل التفاصيل الصغيرة التي التقطتها في ذهنها

.شعرت بتحرك داخلي غريب، مزيج بين الخوف والإثارة والفضول

:همست لنفسها

"لماذا كل شيء يبدو وكأنه حيّ داخل عقلي؟"

ارتجفت يداها قليلاً وهي تلمس دفترها، لكنها قررت أن تنتظر، وأن لا تتحرك قبل أن تتأكد من المكان الذي وقفت فيه الأمور.

القديمة – العقل الاستراتيجي

في الغرفة المقابلة، كانت القديمة قد رتبت هاتفها على الطاولة،

تراقب عقارب الساعة وكأنها تنتظر حدثًا لم يقرر هو أو هي حدوثه بعد.

قرأ منشور الأمس مجددًا في ذهنها، ولكن لم ترد.

ابتسمت ابتسامة بطيئة وباردة، ابتسامة من يعرف أن قوة اللعب الحقيقية تكمن في الصبر والتحليل، لا في الاندفاع.

همست لنفسها:

"هو اختار، وإن لم يُعلن… سأعرف الطريق الذي يسلكه."

ثم أعدت كوب القهوة الخاص بها وجلست، عيناها على النافذة،

تراقب شجرة صغيرة أمام المبنى، وكأنها تبحث عن أي اهتزاز قد يشير إلى قراره القادم.

الراوي المحايد – التزامن الداخلي

كانت الثلاثة في مساحات متقاربة في الزمان والمكان النفسي:

هو، يوازن قلبه بين الماضي والحاضر، مستعدًا لأي خطوة لاحقة، لكنه يرفض إرسال الرسائل أو الإفصاح الكامل بعد.

الجديدة، تراقب، تشعر بحركة داخله دون أن يعرفها، تستوعب ما لم يقال، وتعيد ترتيب قلبها حسب ما يلتقطه من إشارات.

القديمة، تستغل الصمت كأداة، تحلل كل حرف وكلمة لتعيده إلى منتصف الطريق أو تحركه، مع العلم أن القوة ليست في الانفعال بل في البقاء على حافة الحذر.

اليوم لم يكن يوم أحداث ملموسة، بل يوم استعداد داخلي، يوم معايرة القلوب، يوم تحريك المشاعر بهدوء قبل أي تصرف.

الفصل التالي – بداية التِماس الأول بين العلن والسرّ

لم يستطع أن يكمل يومه كأي يومٍ عادي.

ورغم كل ما وعد به نفسه صباحًا،

كان داخله يشتعل كما لو أن الكلمات تنبض في دمه وتستعجله الخروج.

فتح هاتفه،

كتب جملة…

حذفها.

كتب أخرى…

حذفها.

لا يريد أن يكون ضعيفًا،

ولا يريد أن يكون غامضًا أكثر مما كان،

.ولا يريد أن يخسر ما بدأ ينمو ببطء كزهرة شتوية مقاومة

:ثم قال بصوت منخفض، كمن يتلو اعترافًا أمام مرآة لم تعد تكذب

".إن لم أكتب… سأختنق"

…فتح حسابه

…لم يبحث عن جمهور

…لم يفكر بمن سيقرأ

،كان فقط يريد أن تصل إليها

،إلى تلك التي اعتادت فهمه من أول حرف

.لا إلى تلك التي تنتظر منه سقوطًا واحدًا لتجلس على كرسي المنتصر

:كتب منشورًا مختلفًا… هذه المرة بنبرة رجل يُقرّ، لا يلمّح

…ما زلت أؤمن بأن بعض الأرواح لا تزورنا صدفة"

،تأتي لأنها تعرف أن فينا ما يشبهها

.وما يسكنها يُكمّل ما ينقصنا

،لم أختر الطريق إليها

.الطريق هو الذي اختار أن يضعني قُبالتها

،أعرف ملامحها وإن تغيّرت

،أعرف قلبها وإن خاف

.وإن بدت قوية… فهي تنفصل عن الحياة إن شعرت بالخذلان

…ما أعرفه أكثر

".أنها الوحيدة التي تستطيع أن تُعيد نبضي دون أن تقترب

…ضبط التنسيق

،نظر إلى الكلمات نظرة طويلة، بطيئة

…ثم

.ضغط نشر

،ثم أغلق الهاتف ووضعه مقلوبًا

.كما لو أنه يضع سيفًا على الطاولة قبل المعركة

الجديدة – الصدمة الممزوجة بدفء

،وصلها المنشور بعد دقائق

…لم تبحث عنه

.ظهر أمامها وكأنه قُذف مباشرة نحوها

،قرأته ببطء

.كأن كل سطر يحتاج إلى نفسٍ منفصل

،شعرت بشيء يهتز في صدرها

:شيء لم تفهمه جيدًا

هل هو أمل؟

خوف؟

دهشة؟

أم اعتراف خفي؟

···لكنها لم تبكِ
···ولم تبتسم
،فقط أغلقت الشاشة
:وضعت يدها على صدرها وقالت بصوت خافت

"لماذا أشعر··· وكأنه يكتب من داخلي وليس عنه؟"

،ولأول مرة منذ سنوات
···ارتجفت أصابعها لا من الضعف
.بل من احتمال الحياة

القديمة – القراءة بحواس الصياد

،قرأت المنشور بالطول والعرض
···مرّة بعينها
···ومرّة بعين عقلها
.ومرّة بعين خبرتها الطويلة به

،لم ترتبك
،لم تغضب
.ولم تحزن
:بل قالت لنفسها بابتسامة قصيرة

.جميل··· بدأ يعترف"

".لكنه ما زال قابلًا للميلان··· فالقلب حين يكتب لا يحسم، بل يبحث عن مُنصت

···شعرت أنها اقتربت خطوة

.ولم تدرك أن تلك الخطوة ليست نحو النصر··· بل نحو الخروج من الحلبة دون أن تشعر

الراوي المحايد

.لا أحد منهم نام تلك الليلة بالطريقة ذاتها

···كل واحد حمل المنشور إلى سريره

···لكن بثلاثة قلوب

···وثلاثة مصائر

.وثلاثة احتمالات مختلفة تمامًا

،هذه كانت أول صدمة هادئة

،أول صفارة

.أول إعلان بأن الأمور لم تعد كما كانت

الفصل ــــ ارتجاجٌ داخلي··· وتواصل لا يُشبه الرسائل

،لم يكن المنشور مجرّد كلمات عابرة

.كان زلزلة صامتة تحرّكت في كل واحد منهم ببطء يشبه اهتزاز ناي تحت أنفاس راعٍ وحيد فوق جبل بعيد

هي ـــ الجزء الأول من يوم لا يُشبه ما قبله

…ذلك الصباح

استيقظت وهي لا تعرف إن كانت نائمة حقًّا أو أن روحها ظلّت مستيقظة تحرس الكلمات التي سكنت عقلها طوال الليل.

ذهبت إلى المرآة لا لتتجمّل،

بل لتبحث عن ملامح تلك الفتاة التي كان يكتب عنها في المنشور:

هل هي ما تزال تعيش في عينيها؟

هل تبدو كما وصف؟

هل ما تزال تصلح لأن تكون بوابة حياة لا محطة عابرة؟

لم تضع مساحيق،

مسحت بخفة بقايا النوم حول عينيها،

ثم ابتسمت ابتسامة قصيرة كمن يطمئن نفسه لا من يغازل صورته.

ذهبت لتفتح النافذة،

…ليس للهواء

بل لترى إن كانت الحياة تغيّرت قليلًا بعد أن كُتبت تلك الكلمات للعالم.

شعرت أنها أخفّ قليلًا،

كأن وزنًا انسحب من روحها لا من كتفيها.

هو ـــ يوم بحضور غائب

،ذهب إلى عمله وهو يدرك أن العالم الخارجي يسير كعادته
.لكن عالمه الداخلي لم يعد صالحًا للاستخدام اليومي

.كان يسمع من حوله··· ولا يصغي
.يجيب دون أن يتذكر السؤال
.يبتسم دون أن يعرف لماذا
.ويتحرك كأنه يسكن جسده لا حياته

،كل فكرة تعود إليه كانت تبدأ باسمها وتنتهي بخوفه
:وكل شعور داخلي كان يهمس له

إن لم تكن لها··· فلماذا كتبت؟"
"وإن لم تكن مستعدة··· فلماذا شعرت؟

:ولم يكن لديه جواب واضح سوى

".لعلّي أكتب لأتوقف عن الهروب، لا لأبدأ اعترافًا"

بداية التواصل الخفي — دون حروف

،لم يرسل أحدهما رسالة مباشرة للآخر
،لم يكتب أحدهما جملة للثاني
.لكن الطاقة بينهما بدأت تتحرك بجلاء يشبه صرير باب يُفتح ببطء في منزل مهجور

هو لم يفتح محادثتها،

لكنّه فتح تاريخ آخر محادثة فقط ليرى التاريخ والوقت ويتأكد أنها موجودة على الخريطة نفسها.

وهي لم ترسله كلمة،

لكنها دخلت حسابه كل بضع ساعات لا لتقرأ الجديد بل لتطمئن أنه موجود ولم يختفِ.

لم يكن اتصالًا،

بل كان نبضًا بلا صوت.

وفي لحظة ما بعد الظهيرة،

حدث أوّل تزامن غير مخطط:

هي كانت تعيد قراءة منشوره للمرة الثالثة،

وفي اللحظة ذاتها···

هو دخل ليرى هل قرأته مجددًا — لا بإشعار أو علامة، بل بفراسة رجلٍ يعرف أن الأرواح تترك أثرًا حيث تمر.

شعر كلاهما بالآخر···

دون دليل،

وكأن بينهما نافذة لا تُرى لكنها مفتوحة دائمًا.

هي — لحظة المصارحة مع نفسها

جلست تلك الليلة أمام دفترها الذي تركته مهجورًا منذ سنوات،

فتحت صفحته البيضاء لا لتكتب عنه،

بل لتكتب عن نفسها حين أصبحت مرآتها تهتز من جديد:

"لم أعد أفهمني…

لكني أعلم أن شيئًا داخلي يستيقظ،

شيءٌ كان قد فقد القدرة على النهوض."

هو ـــ ارتباك ما بعد الاعتراف

عاد إلى المنزل،

جلس في العتمة دون إضاءة،

أمسك هاتفه،

وكتب رسالة لها…

رسالة طويلة،

حقيقية،

ممتلئة بصدقٍ لم يجرؤ على إعلانه سابقًا.

قرأها كاملة…

ثم أغلقها دون إرسال،

وتركها في المسودات.

قال بصوت خافت:

"الرسائل التي تُرسل بسهولة… لا تعالج شيئًا."

ثم أغلق هاتفه ووضعه على صدره لا بجانبه.

مشهد الرجل — (1)

في ذلك المساء، جلس وحده أمام شاشة خافتة الإضاءة، كأن النور نفسه يخشى الاقتراب من عقلٍ امتلأ بالأسئلة واهتز بالاختيارات. كان يشعر بأن قلبه قطعة أرض تتجاذبها قدَمان؛ واحدة تحاول أن تبني عليها غدًا نقيًّا، وأخرى تعود لتفتش بين الأطلال عن أنقاض لم تُدفن جيدًا.

وهو يتأمل رسالته الأخيرة التي أرسلها للجديدة… شعر أنه أخيرًا التقط قرارًا يشبه الحقيقة، لكنه يعلم أن الحقيقة في عالم القلوب ليست خاتمة بل اختبارًا جديدًا. كتب ما كتبه لأنه أراد أن ينقذ مستقبله قبل أن يبتلعه ماضيه، لكنه رغم ذلك شعر برجفة خفية؛ رجفة تشبه تلك الدقيقة التي تسبق صفارة بدء مباراة مصيرية:
أنت مستعد، لكن الخوف لا يزال يتجوّل بحرّية داخل صدرك.

قال لنفسه:

"إن كانت القديمة رصاصة، فالصمت درع، والصدق مع الجديدة محاولة وقف النزيف قبل حدوثه."

ومع ذلك، ظل سؤال واحد يدور داخله كريح لا تُرى:

هل الرسالة التي كتبها كانت إعلان اختيار… أم محاولة تحصين نفسه فقط؟

مشهد القديمة بعد رسالته — (2)

.لم تكن تنتظر كثيرًا لتقرأ ردوده أو كلماته؛ كانت تعرف طريقته في كتابة الحروف وطريقة ارتجاف النقاط كل ما تحتاجه هو صمته، وصمته جاء. لكنها لم تتوقع تلك الجملة التي تسربت إليها لاحقًا، الجملة التي .تفوح منها رائحة اختيار لم تحبه، اختيار لم تكن خطته

شعرت للحظة بأن خطواتها تقترب من العتمة، لكن سرعان ما عادت لتنهض داخلها أنثى تعرف جيدًا :معنى اللعب الطويل. وقفت أمام مرآتها وكأنها تخاطب انعكاسها لا نفسها

لم يخترها بعد… إنه فقط يحاول. الرجال دائمًا يحاولون قبل أن يسقطوا، وأنا أعلم جيدًا كيف يعودون" ".عندما يختبرون طعم الطريق الآخر

:ضحكت ضحكة قصيرة بثقة شبه ساخرة، ومضت تفكر

- الرسالة ليست نهاية…

- الصراحة ليست قرارًا نهائيًا…

- .الرجال حين يواجهون الماضي لا ينتصرون، بل يتعبون… وأنا أعرف جيدًا متى أعود وأين أضغط

:ثم قالت بصوت منخفض كأنها تملي لقدرٍ يكتب

".سأتركه قليلًا… القلق كفيل بإعادته"

مشهد الجديدة بعد علمها بما كتب للقديمة — (3)

كانت تقرأ وتعيد القراءة، ثم تتوقف، ثم تغلق هاتفها وكأنها تريد أن تُطفئ شعورها قبل أن يُطفئها. لم تكن .مشكلتها في الكلمات التي كتبها لها، بل في تلك الظلال التي شعرت أنها ما زالت تتنفس خلف كل حرف

:اختلط داخلها الفرح بالرهبة

···فرحت لأنها شعرت بأنها مذكورة في نصٍ حقيقي، لا مجرد إحساس عابر

وخافت لأنها تعلم أن الحب حين يدخل في منافسة مع الماضي، يصبح مثل سباقٍ يجري فيه أحدهما بحقيبته والآخر خفيفًا.

:قالت لنفسها بصوت لا يسمعه سوى قلبها

هل اختارني لأنه يريدني··· أم لأنه لا يريد العودة؟"

"هل أنا البداية··· أم طوق نجاة؟

ورغم ذلك، حافظت على صمتها··· ليس خوفًا، بل لأنها كانت تفهم قيمة الكرامة، وقيمة الهدوء الذي يجعل الجواب يأتي لا يُنتزع.

:ثم لمعت في رأسها جملة واحدة فقط

".إن لم يحتفظ بي وهو حر··· فلن أطلبه وأنا أسيرة شك"

حدث مفصلي

في منتصف الليل، وبينما كان الرجل مستلقياً دون نوم حقيقي، اهتز هاتفه برسالة قصيرة··· لكنها ليست من القديمة، ولا من الجديدة.

:جاءت من رقم غير مسجل، بلا اسم، بجملة واحدة فقط

".أنت لا تعرف الحقيقة كاملة، والتصريحات لا تعني النجاة"

...تجمّد قليلًا... أعاد القراءة مرّتين

الكلمات ليست تهديدًا، وليست عاطفية، لكنها تحمل شيئًا مخيفًا: معرفة.

...فتح المحادثة، وجد صورة مُرسلة بعد الرسالة بثوانٍ قليلة

الصورة غير واضحة، تبدو مأخوذة من كاميرا مراقبة أو من مسافة بعيدة، لكنها تُظهر امرأة تتحدث مع رجل في مكان يشبه مقهى خارجي.

الإضاءة والزاوية تجعلان الوجه شبه واضح... ليس واضحًا بما يكفي للجزم، لكن مريبًا بما يكفي لزرع الشك.

لم يكن يعلم هل الصورة تخص القديمة... أم الجديدة... أم أنها ليست أيًا منهما أصلًا؟

وللمرة الأولى... شعر ليس فقط أنه بين قلبين، بل بين طرفين وظل ثالث لا يعرف هويته.

الليل الذي تشقّق فيه اليقين

لم يتحرك... فقط جلس على حافة السرير كما لو أنه يخشى أن يتحرك فيتغير كل شيء، وكأنه فهم للمرة الأولى أن بعض الرسائل ليست مجرد حروف، بل بوابات تدخل منها الريح لتقلب الغرف من الداخل دون أن تكسر نافذة واحدة.

أعاد النظر إلى الرسالة القصيرة:

"أنت لا تعرف الحقيقة كاملة، والتصريحات لا تعني النجاة."

...بدت الجملة وكأنها قادمة من شخص يعرف تفاصيله، يقرأ صمته، ويراقب ما يفعل، لا ما يقول

ومن يكتب بهذا الأسلوب لا يكون عابرًا··· بل لاعبًا من مستوى مختلف.

فتح الصورة ببطء، كأنه يخشى أن يؤكد شكًا لم يولد بعد.

ظهر مشهد ليل خفيف الضباب، وإضاءة صفراء باهتة تخرج من مصباح شارع قديم، وكأن الزمن نفسه كان جزءًا من المؤامرة.

المكان؟

ربما مقهى خارجي، الطاولات معدنية، والهواء يبدو باردًا بما يكفي لجعل الأصابع متجمدة، لكنها ليست لقطة سياحية···

إنها صورة مُلتقطة بنية الإيقاع لا التوثيق.

أما الوجهان في الصورة فهما على خط حدودي بين الوضوح والإخفاء:

المرأة تبدو مائلة قليلاً بزاوية تُظهر جزءًا من خدها وشعرها وتقاطيع قريبة جدًا من إحدى المرأتين في حياته···

الرجل المقابل لها يجلس بطريقة تجعل ملامحه شبه مخفية كأنه يعرف متى يجب أن لا يُرى.

لم تكن صورة صدفة··· بل صورة أُريد لها أن تكون سلاح شكّ لا دليل يقين.

ضغط على الشاشة لتكبيرها···

بدت يد المرأة على الطاولة، وبدا على ظاهرها خاتم رقيق جدًا، قد يكون مجرد زينة··· وقد يكون علامة.

ثم لاحظ شيئًا آخر:

على طرف الصورة، في الزاوية اليسرى السفلية، انعكاس زجاجي يشبه لمعة عدسة كاميرا مراقبة أو زجاج سيارة، وكأن أحدهم لم يلتقط الصورة من هاتف فقط… وربما لم يكن وحيدًا.

قبل أن يستجمع أنفاسه… وصلت رسالة ثانية، قصيرة مثل الأولى، لكنها أشد تحديدًا:

"لا تتسرّع، أسوأ القرارات تلك التي تُتخذ على نية السلام".

لم يكن يعرف إن كانت الرسالة دعابة… تحذيرًا… نصيحة… ابتزازًا… أم تمهيدًا لزلزال قادم.

كل ما كان يعرفه في تلك اللحظة أن القصة لم تعد بين قلبين فقط…

بل أصبح هناك ظل ثالث…

لا يُعرف هل جاء ليُصلح… أم ليدمّر… أم ليصنع مسرحًا جديدًا لا يفوز فيه أحد.

المشهد

عقلُهُ – الليلة التي لم ينجُ منها التفكير (1)

لم يستطع النوم…

كان فراشه ناعمًا كالمعتاد، لكن إحساسه تحوّل فجأة إلى ما يشبه سرير تحقيق لا راحة.

ظلّ جسده ثابتًا، فيما العقل ركض كجندي تائه في صحراء لا يعرف اتجاه الريح فيها من أين يأتي.

كان يدرك أن هناك فارقًا كبيرًا بين الدهشة و التهديد، وبين الصدفة و الاستخدام، وبين الذكرى و العودة، ولم يكن متأكدًا هل ما يحدث الآن محاولة للعب على تردده أم محاولة لقتله ببطء دون سلاح ظاهر.

سأل نفسه بصوت لم يسمعه أحد:

لماذا الآن؟ لماذا بعد أن بدأ الضوء يظهر؟ لماذا حين بدأت أصدق أنني أستطيع التعافي؟

...كان يعلم جيدًا أن أكثر اللحظات ضعفًا ليست تلك التي ينكسر فيها، بل تلك التي يبدأ فيها بالشفاء

.فالجرح حين يلتئم يكون قابلاً للتمزيق أكثر من لحظة نزفه الأول

:ابتلع ريقه بصعوبة، وصوت داخلي قال

".إنها لعبة معرفة... لا حب"

:لكن الجزء الآخر منه همس

"أم أنها محاولة إنقاذ؟"

.لا أحد يعرف

الصوت الخفي – السارد من مكان غير مرئي (2)

...لم يكن يراقبه من خلف نافذة، بل من خلف ما يتركه هو نفسه دون أن ينتبه

كان يعرف أن هذا الرجل لا يخاف الصراحة، بل يخاف أن يخون قلبه حدسه، ويختار الطريق الخطأ باسم الطيبة.

:كان الصوت المجهول يتحدث كمن يجيد تقطيع القلق إلى جمل قصيرة

...هو لا يخشى الألم"

".لكنه يخشى أن يخذل من يثق في قدرته على الحب

:ويتابع في داخله كمن يعطي نفسه علامة على دفتر سري

...الوقت ليس سلاحًا"

"بل اختبارًا: هل سيختار النور؟ أم يعود إلى الدائرة التي دفنته حيًّا؟

...كان الصوت يعرف أن أفضل طريقة لخلخلة رجل قوي القلب ليست الهجوم

.بل إيقاظ الذاكرة حين يظن أنه تجاوزها

...فهو لا يريد منه أن يقع

.بل أن يفكر بعمق أكبر مما يفعله الآن

عودته إلى صراعه (1)

وقف أمام المرآة، نظر إلى عينيه طويلاً كما لو أنه لا يبحث عن ملامح وجهه، بل عن الشخص الذي كانه .قبل كل هذه القصص

:قال في داخله

".أنا لست خائفًا من الحقيقة... أنا خائف من تفسيرها"

:ثم خطر بباله سؤال واحد فقط

لو أن هذه الرسالة لم تصل... هل كان سيواصل الطريق بثقة أكبر؟

وهل التردد الذي عاشه الآن كشف الحقيقة... أم أعاد إحياء المرض القديم؟

:أدرك شيئًا آخر

...أنه لا يجب أن يجيب على الرسالة

.قبل أن يجيب على نفسه أولًا

الصوت الخفي – العبارة الأخيرة في هذا المشهد (2)

"لن أخبرك ماذا تفعل···

:لكنني سأمنعك من أن تقول يومًا

".لو أن أحدًا نبّهني··· لما تهت

حيرة ثم حيلة

لم يكن بحاجة للحديث مع أحد، ولا لطلب المشورة، ولا حتى للبحث عن رأي عقلٍ آخر غير عقله···

.لكنه شعر أن الأفكار حين تبقى في الذهن فقط تتضخم دون رقابة، وتتحول مع الوقت إلى وحوش صامتة

.فقرر أن يكتب··· لا للعامة، ولا للمجهول، ولا لتعريف موقفه··· بل ليعرف نفسه أولاً

أغلق الهاتف، أطفأ الإنترنت بالكامل، وضعه بعيدًا على الطاولة، وفتح دفتره القديم الذي نسي أنه ما زال يحتفظ به داخل درجٍ لا يفتح إلا نادرًا.

.دفتر كان قد توقف عن الكتابة فيه منذ اللحظة التي خاف فيها من وضوح مشاعره

:أدار الصفحة ببطء، كتب في أعلى السطر بخط مرتبك قليلًا

"مسودة لا تُنشر – كشف نوايا"

:ثم بدأ يكتب كما لو أنه يكتب تقريرًا سريًا عن نفسه

"لست في نقطة ضعف… أنا في نقطة اختبار.
قلبي ليس مفتوحًا للجميع، لكنه أيضًا لم يُغلق بالأقفال القديمة.
لا أريد أن أخسر إنسانيتي باسم الحذر، ولا أن أخسر طريقي باسم العاطفة."

توقف.
أغمض عينيه.
التقط نفسًا عميقًا.
ثم أكمل:

"إن كانت مجرد محاولة لاستعادة السيطرة، فسأتركها تموت بلا رد.
وإن كانت استغاثة حقيقية… فسأقف في المنتصف، لا قريبًا ولا بعيدًا، حتى أعرف ما تحمله اليد التي طرقت الباب."

وضع القلم…
وعرف أنه لا يكفي.

هنا بدأ الجزء الثاني من الخطة… المعركة العقلية الهادئة.

-البحث الذكي الهادئ

لم يرغب في أن يفضح اهتمامه، ولا أن يُظهر شكّه، ولا أن يمنح القديمة انتصارًا صامتًا أو فرصة لإعادة تشكيله.
قرر أن يختبر الرسالة بدل أن يرد عليها…
وأن يدرس المُرسِلة بدل أن يستجيب لها.

ارتدى وجهًا باردًا لا ينتمي لأي ذاكرة عاطفية، وبدأ تنفيذ خطة من أربع خطوات:

1 — مراجعة بصمت

قرأ الرسالة مجددًا حرفًا حرفًا، ليس بصفته المتلقي، بل المحلل.

لاحظ الكلمات المحايدة، عدم وجود عاطفة صريحة، عدم وجود تفاصيل شخصية يمكن حفظها أو محاسبتها.

كانت رسالة تُفتح من جهتين:

يمكن اعتبارها ألمًا صادقًا… أو طُعمًا نفسيًا.

2 — اختبار التوقيت

سأل نفسه:

لماذا ظهرت الرسالة الآن تحديدًا؟

ما الذي تغيّر؟

ما الذي رآته؟

ولماذا لم تكتب بأسلوب يعكس تاريخها معه بل كتبت بأسلوب يعكس توقع رد فعله فقط؟

3 — تحليل الهدف المحتمل

كتب في دفتره:

"الرسالة لا تهدف إلى فتح باب… بل إلى فتح نافذة مراقبة."

بناء سيناريو مضاد دون كشف أي نية — 4

:فكّر

···لن أرد بكلمة

.وسأبقي الاتصال مفتوحًا لكن بلا حرارة

···فإن كانت نيتها مجرد اختبار، ستنسحب بعد حين

.وإن كانت استغاثة حقيقية، ستكتب مرة أخرى، ولكن بوضوح، وبلا تلاعب لغوي

عودة لدفتره – الخلاصة

:كتب أخيرًا

···لن أهرب"

.لكن لن أعود أيضًا

،الطريق هذه المرة سأمشيه بعينين مفتوحتين

".لا بقلبٍ يسابق الظلام

.أغلق الدفتر بهدوء

···وعاد الهاتف مكانه

.لكن لم يعد كما كان

خطوط غير مرئية

الجديدة: يوم مشحون بالأمل والخوف

استيقظت الجديدة قبل بزوغ الشمس، وشعرت أن الهواء حولها أصبح أثقل من المعتاد، لكنه لم يكن ثقلًا جسديًا، بل إحساسًا دقيقًا يتسلل إلى قلبها ويهمس بأن اليوم لن يكون ككل الأيام. جلست على حافة سريرها أقدامها مطرقة الأرض بخفة، وعيناها تبحثان عن أي أثر يربطها بالواقع.

فتحت نافذتها، وسمعت حركة خافتة في الشارع، قطرات مطر بدأت بالهبوط، لكنها لم تخرج لتراقبها. شعرت أن كل شيء حولها، من الرياح العابرة إلى صوت الأبواب المغلقة في الشارع، يحمل رسالة لم تُكتب بعد. لم ترسل أي رسالة، لم تنقر على هاتفها، لم تحرك أصابعها إلا لتدوين أفكار متفرقة على صفحة ملاحظات داخل الهاتف، دون أي نية للإرسال.

كان الصمت ثقيلًا، لكنه مؤكد. كل لحظة تمرّ كانت بمثابة اختبار: هل ستخاف، أم ستصمد؟ هل ستسير في طريقها، أم سيقودها الخوف بعيدًا عن ما تريده روحها حقًا؟

تساءلت: هل يعرف أني أفكر فيه؟ هل يشعر بما أشعر؟ أم أن كل هذا مجرد وهم؟

بين الحين والآخر، يلتقط ذهنها شيئًا صغيرًا، ربما جملة سمعتها في برنامج إذاعي قديم، أو كلمة مرّت على أذنها في الشارع، فظنّت أنها تعكس ما يحدث معه الآن.

هذا اليوم كله، شعرت كأن قلبها يلتقط ذبذبات خفية، ولا تعرف مصدرها، لكنها تعلم أن كل هذه العلامات لا تأتي عبثًا.

القديمة: دهاء المراقب

بينما كانت الجديدة عالقة في صمتها وتحركاتها الداخلية، كانت القديمة تراقب، كظل خفي يتنقل بلا صوت.

لم تعد القديمة كما كانت؛ لم تعد تحمل صخب الانفعال أو شعور الاضطراب، بل أتقنت فن الصمت المراقب، وعرفت أن مجرد الانتظار ومشاهدة الفجوة التي تركتها الرسائل الصامتة، كافٍ لإعادة قلبه إلى نقطة الوسط، تلك الدائرة التي يمكنها من خلالها التأثير على قراراته.

راقبت كل شيء: الصمت، التردد، اللحظات التي يقرأ فيها الهاتف دون أن يكتب، الإشارات الصغيرة التي قد تبدو عابرة لكنها مؤشر على شيء أكبر.

ابتسمت في صمتها الداخلي، وقررت أن تتحرك ببطء ودهاء: لن تُظهر أي إلحاح، لكنها ستترك أثرها بوضوح في تردداته.

كل خطوة، كل مراقبة، كانت جزءًا من خطة دقيقة، تهدف لإعادة قلبه إليها، لكن بطريقة ذكية، لا مباشرة، لا تسمح له بالهرب سريعًا.

هو: نص جديد، صراع بين العقل والقلب

في المساء، جلس هو أمام مكتبه، لا ليكتب، بل ليحلّل.

الرسالة التي قرأها قبل ساعات من الجديدة كانت تعمل كصاعق داخلي:

"لا تخف··· إن اقتربتَ، فإني لا أهرب. وإن ابتعدت، فلن أنتظرك··· بل سأبقى في طريقي."

قرأها مرارًا، يلتقط كل كلمة، كل فاصلة، كل إيقاع في الجملة.

أدرك أن هذه الكلمات لم تُكتب من أجل أحد آخر سوى نفسه، أنها إشارة خفية، لكنها دقيقة للغاية.

قرر أنه هذه المرة سيكتب نصًا علنيًا، ليس بهدف الكشف المباشر عن مشاعره، بل لقياس التفاعل، لفهم من يقف خلف الصمت، ولتحديد موقعه بين القديم والجديد.

فتح صفحة جديدة، وبدأ الكتابة بعناية، كل كلمة تختار مكانها بدقة، كل جملة تحمل وزنًا من المعنى، لكنها تركت مجالًا للخيال والتفسير.

كتب:

"هناك من يكتب لي دون أن يعرف··· وهذا أصدق من أن يكتب إليّ."

ابتسم، وأدرك أن الرسالة لن تكون مجرد نص عادي، بل خطوة على حافة الجسر بين الماضي والحاضر والمستقبل.

،هو الآن يختبر الواقع والخيال معًا، يعلم أن أي حركة محسوبة، أي كلمة مختارة، ستغير مجرى الأمور
،لكن هذه المرة لن يكون رهينًا للماضي أو المستقبل… بل سيترك الأشياء تتحرك على خطوط غير مرئية
.كما يُقال، بين قلبه وقلوب الآخرين

الختام

…الليل يشتد، المطريات تتساقط، الغرف مظلمة جزئيًا، والشوارع هادئة

:ثلاثة خطوط، ثلاثة أرواح، ثلاثة صراعات

.الجديدة تبحث عن إشارات خفية، تنتظر دون أن تعرف

.القديمة تراقب بدهاء، تستثمر الصمت لصالحها

هو يكتب، يراقب، ويختبر، لكنه متأكد أن كل كلمة ستعيد ترتيب المسارات، وأن الخطوط غير المرئية هي
.التي ستقرر النهاية، قبل أي لقاء مباشر

رد فعل الجديدة على النص العلني

.جلست الجديدة في غرفتها، الهاتف في يدها، عيناها على الشاشة، والقلب ينبض بطريقة لم تعرفها منذ زمن

،لم يكن مجرد نص عادي، لم يكن مجرد كلمات تتناثر على صفحة إلكترونية، بل كان نبضًا خارجيًا
.انعكاسًا مباشرًا لما تحس به منذ شهور

.قرأته مرة… ثم مرتين… ثم ثلاث مرات، وكل مرة تشعر بأن الكلمات تتحرك داخلها بطريقة مختلفة

:كان هناك شيء في الأسلوب، في الفواصل، في الترتيب، يجعلها تفكر

".إنه لم يكتب لي فقط… لكنه كتب لي وحدي"

بدأت تتحرك الأفكار في رأسها كتيار مياه هادر:

هل هذا يعني أنه اختارني؟

هل يقصدني حقًا؟

أم أنني أتوهم؟

لماذا شعرت فجأة أن كل شيء يمكن أن يتغير بين ليلة وضحاها؟

وضعت يدها على صدرها، تشعر بالحرارة تنتشر، وكأن قلبها أصبح مساحة للارتعاش بين الأمل والخوف.

أحست بالدهشة من نفسها، من كيفية تفاعلها مع نص لم يكن موجهًا مباشرة لها، من مجرد قراءة الحروف التي اختارتها أصابع شخص تعرفه منذ زمن بعيد.

بعد دقائق من التردد، بدأت تكتب في دفترها الخاص، كما كانت تفعل دائمًا:

"لا أعرف لماذا أحسست بأن هذه الكلمات لي وحدي…
وكأنها أشارت إليّ في منتصف الظلام،
وكأن قلبي قد تماسك فجأة رغم كل التردد والخوف."

ثم وضعت الهاتف جانبًا، وأحست بالفضاء حولها يختلف…

الهواء بدا أخفّ، الغرفة أقل ضيقًا، وكأن الخطوط غير المرئية بين قلبها وقلبه بدأت بالظهور بلطف.

:رغم كل هذا، شعرت بخوف طبيعي

.الخوف من التعلق قبل أن يكون هناك شيء مؤكد

.الخوف من أن يُفسر كل شعورها بشكل خاطئ

.الخوف من الماضي الذي يمكن أن يعود ليشوش على هذه اللحظة

:لكنها علمت شيئًا واحدًا بوضوح

..."أنا لم أعد أهرب

،وأنا مستعدة لرؤية ما يمكن أن يحدث

".حتى لو كانت البداية مجرد نص علني على صفحة رقمية

.جلست لفترة طويلة، تتأمل في الكلمات، وفي نفسها، وفي ما قد تحمله هذه الرسالة من وعود أو تحديات

.ثم قررت أن تترك الحذر جانبًا قليلًا، وتسمح لنفسها بالشعور بما تشعر، دون أن تكتب أو ترسل أي رد بعد

فقط كانت تراقب، تفكر، وتستعد لمواجهة المسار الجديد الذي فتحه لها النص

القديمة: لعبة الصمت بعد النص العلني

جلسَت القديمة في مكانها المألوف، ذلك الركن الذي اعتادت فيه مراقبة كل شيء من بعيد، كوب القهوة في يدها وكتاب مغلق على الطاولة، لكنها لم تكن تقرأ شيئًا. عيناها كانت تبحث عن حركة صغيرة، أي مؤشر .على أن قلبه ما زال يتحرك في مجال اهتمامها

قرأته… النص العلني الذي كتبه هو، وابتسمت ابتسامة صغيرة، هادئة، لم تحمل أي انفعال واضح للآخرين، لكنها كانت انتصارًا داخليًا.

فالصمت الذي اتخذته الجديدة لم يكن مفاجئًا لها، بل كان متوقعًا.

كانت تعلم أن قراءتها لنصه ستثير فضولها وتعيده إلى نقطة توازن عاطفية، لكنها لم تفعل شيء بعد؛ كل خطوة محسوبة، كل تحرك محسوب.

القديمة فهمت شيئًا مهمًا:

"صمته لا يعني التراجع. بل يعني أنه يفكر. وهذا كافٍ."

ولأول مرة منذ زمن طويل، شعرت بنشوة القدرة على التحكم الخفي.

ليس بالتهديد أو الإلحاح، بل بإدارة الفراغ والمراقبة الدقيقة.

كل خطوة يقوم بها في صمت، كل إشارة، كل تردد، كان وقودًا لإستراتيجيتها.

في داخلها، كانت تدير اللعبة بمهارة:

تراقب الساعة التي يفتح فيها الهاتف.

تتابع المكان الذي يكتب منه النصوص.

تحلل أسلوبه، الفواصل، الكلمات، وحتى رموز التشكيل في الجملة.

كل ذلك لا يعني أنها ستتدخل مباشرة، لكنها تعلم أن الانتظار الذكي أفضل من أي خطوة متهورة.

ابتسمت لنفسها وهي تفكر:

".ليس هناك أصعب من مواجهة من لا يخشى الهزيمة... وأنا لا أخاف"

.ثم ارتخت قليلاً، لكن دون أن تفقد السيطرة

قررت أن تكون حاضرة لكن بعيدة، أن تعيد فتح الطريق تدريجيًا، أن تترك له مساحة للتفكير، ومع ذلك .تبقى خطوطها غير مرئية، مؤثرة، حاضرة في الظل

.كل ساعة تمر، وكل كلمة يكتبها هو، كانت بالنسبة لها رصاصة محسوبة في قلب اللعبة

.لأنها تعرف أنه مهما بدا صامتًا، فهو يقرأ، يحلل، ويستجيب في داخله، وهذا وحده انتصارها الأول

هو: بين القديم والجديد، صراع في صمت الكلمات

.جلس هو في غرفة المعيشة، الهاتف مفتوح أمامه، والكمبيوتر إلى جانبه، لكن عينيه لم تكن على الشاشة .كانت عقله يتنقل بين خطوط غير مرئية، بين كلمات كتبها للتو، وبين ما قد تعنيه لكل من الجديدة والقديمة

:قرأ النص العلني مرة أخرى، ثم أغمض عينيه، يحاول أن يضع نفسه مكان كل واحدة منهما

الجديدة: حيرة واضحة، صمت مختلط بالفضول، خوف مبطن، رغبة خفية في معرفة حقيقة ما يخبئه. كان يعرف أن كلمات النص العلني لن تمر مرور الكرام، وأن كل حرف سيصل إليها كإشارة دقيقة تقرأها .وحدها

القديمة: دهاءها المراقب، صمتها المدروس، استراتيجيتها الخفية لإعادة قلبه إلى دائرة تأثيرها. كان يعلم أنها تحلل كل حركة، كل تعليق، وكل لحظة صمت، وأن أي خطوة منه غير محسوبة يمكن أن تُستغل ضد .ما يريده

:جلس يراقب نفسه وهو يشعر بارتعاش دقيق في قلبه. كان التوازن بينهما صعبًا

من جهة، قلبه يميل إلى الجديدة، إلى رقة حضورها الافتراضي، إلى الرسائل الخفية التي تصنعها علاماتها الصغيرة.

ومن جهة أخرى، لا يمكنه تجاهل القديمة، خبرتها العاطفية، وسرعة ملاحظتها لكل تردد وكل ميل في نفسه.

أخذ نفسًا عميقًا، وفكر:

"إن بقيت ساكتًا، فإن الصمت نفسه سيقوده إلى حيث لا أريد. وإن تحركت بلا وعي، ربما أضر بالثقة التي بدأت تُبنى. عليّ أن أكتب، لكن بحذر… بصراحة تكفي لتقريب المسافات، ولكن دون كشف كامل."

وبدأ الكتابة، بعناية، كمن يرسم خريطة دقيقة لمشاعره:

"لقد رأيت ما فعلته…

وقد قررت أن أكتب، ليس لكسر الصمت، بل لأوضح ما لم أستطع قوله في السابق…"

كان كل سطر يكتبه حصنًا داخليًا، يوازن بين العاطفة والتفكير، بين القديم والجديد، بين ما يود قوله وما يجب أن يُترك للتفسير.

وبينما كانت الكلمات تتشكل أمامه، شعر بأن قلبه أصبح مساحة لتجارب متعددة، خطوط غير مرئية تمتد من الداخل إلى الخارج، تصل كل واحدة منهما بطريق مختلف لكنها متشابكة في الوقت نفسه.

جلس لحظة، ينظر إلى الشاشة، ثم أغمض عينيه، مستشعرًا:

أن الجديدة ستقرأ ما تقرأه، وستتأمل، وستشعر بما يريد قوله دون أن يُصرّح لها بالاسم، لكنها وحدها ستفهم.

.وأن القديمة ستراقب، وستحسب كل خطوة، وستعيد ترتيب أوراقها بناءً على كل حرف

:ابتسم لنفسه

الآن كل شيء في يد الزمن، في قراءة كل واحدة منهما، في الصبر والحذر··· في خطوط غير مرئية" ".تتحرك بيننا

.عرف أن أي لحظة قادمة، أي إشارة، أي كلمة صغيرة، قد تغيّر المسار بالكامل

لكنه شعر لأول مرة منذ زمن طويل بأنه ليس رهين الماضي أو الخوف، بل شريك في لعبة معقدة من التفكير والاحساس، حيث كل خطوة محسوبة، وكل شعور له وزنه، وكل صمت له صدى

الجديدة بعد النص العلني

لم تكن تنتظره، ولا كانت تراقبه باستمرارٍ كما تفعل القلوب المراهقة… لكنها كانت تستشعره، تراه من خلال ما لا يُقال أكثر مما يُقال، وتقرأه في المساحات البيضاء بين الكلمات لا في الكلمات نفسها.

وفي ذلك المساء الذي بدا هادئًا على العالم وصاخبًا داخلها، كانت ممسكة بهاتفها على نحو عادي تمامًا، تقلب الصفحات كمن يبحث عن شيء لا يعرف اسمه، وحين ظهر منشوره أمامها توقفت كما لو أن الزمن وضع يده على كتفها وقال:

"اقرئي… هذا لك."

لم يكن نصًا طويلاً، لكنه كان عميقًا بما يكفي لخلخلة ثبات بنته بصمتٍ طويل، وثقيل.

قرأته مرة… ثم أعادت قراءته… ثم تركت الهاتف، ونهضت من سريرها، وسارت في غرفتها بلا وجهة، كمن يحاول أن يهرب من معنى يتبعه أينما ذهب.

احساسٌ ثقيل تمدد في صدرها…

إحساس لا يشبه الفرح الخالص، ولا الحزن الخالص، بل ذلك الخليط الغامض الذي يهزّ الداخل دون أن يمنح إجابة.

جلست أمام المرآة، نظرت إلى انعكاسها، وقالت بصوت منخفض جدًا، كمن يعترف دون شهود:

«كان يقصدني... هذه المرة كان يقصدني حقًا...

حتى لو أخفى الاسم بين السطور، أنا وحدي أعرف ما الذي يقوله، ولمن يكتبه.»

لكن ما كسبته من اليقين، خسرته من الطمأنينة.

إذ كل يقينٍ في الحب يولد معه سؤال، وكل قربٍ محتمل يستدعي خوفًا ساكنًا في الذاكرة.

فتحت الصورة التي نشرتها مؤخرًا، الصورة التي كانت اعترافًا بلا كلمات، وقالت في داخلها:

"لم تكن مجرد صورة... كنت أرسل إليه ملامحي التي نضجت وحملت بقايا الطفلة في عينيها...

كنت أختبر: هل ما زال يراها؟ أم تغيّرت العدسة معه؟"

ثم همست بثقة خجولة:

«ورآها... وقدّم ردًا يليق بامرأة لم تعد عابرة في عالمه.»

لكن ما إن لامس الشعور قلبها، حتى تسلل صوت آخر من الماضي، صوت يحمل ندبةً قديمة، ويقول لها:

"لا تفرحي سريعًا...

أنت تعرفين الطريق، وكم كان مؤلمًا آخر مرة سلكته...

الحروف قد تكون مخلصة... لكن النوايا قد تخدع، والخوف ما زال في يدك، لا تضعيه على طاولته قبل أن تتأكدي أنه لن يكسره."

شعرت بأن قلبها يتحرك لأول مرة منذ زمن...

لكن خطواته لا تزال حذرة، مترقبة، لا تركض في اتجاه أحد مهما كان الشوق ناعمًا.

فتحت هاتفها مجددًا، قرأت النص مرة ثالثة، ثم رابعة، ثم وضعت يدها على صدرها وقالت بصوت خافت كأنها تتحدث مع قطعة منها نائمة منذ سنوات:

«هل أقترب؟ أم أكتفي بالاستماع إلى الصدى؟

هل أعود إلى الحياة من نافذة الكلمات؟

أم أخشى أن يسحبني الحنين إلى حيث كنتِ... مجروحة أكثر؟»

بدت عيناها ممتلئتين بشيء يشبه الدموع لكنه ليس حزنًا ولا فرحًا، بل عودة وعيٍ لأعماقٍ غابت طويلًا.

ولأول مرة منذ زمن طويل، شعرت بأنها لم تعد مجرد جسدٍ يتحمل الذكريات...

بل قلب بدأ يستيقظ... ببطء... بخوف... وبدهشة.

لتداخل الخفي بينه وبين القديمة والجديدة

في اللحظة ذاتها التي قرأت فيها الجديدة العبارة الباهتة على الجدار، كان هو جالسًا أمام مكتبه، يحدّق في صفحة بيضاء لا تزال ناصعة رغم مرور الوقت. بدا وكأن الأفكار ترفض أن تتجسد، لا لأن الكلمات غائبة، بل لأن المعنى لم يكتمل بعد.

كلما حاول أن يكتب، انطلقت في داخله ذكرى واحدة تعود إليه بقوة لا يستطيع دفعها؛ جملة قالتها القديمة في آخر لحظة جمعتهما قبل الصمت الطويل. يومها لم يمنحها ما تستحقه من التأمل، لكنها الآن ترتد في داخله كما لو كانت رسالة مؤجلة وصلت في موعد أعظم يقينًا من زمنها الأصلي:

"الصمت ليس انسحابًا... بل عودة في هيئة أعمق."

كانت القديمة بعيدة جسدًا، لكن أثرها لم يغادر المكان الذي يختفي خلف ظلاله. لم يكن هو ولا الجديدة يدركان أن حضورها لم ينتهِ، بل تغيّر شكله فحسب؛ لم تعد صوتًا أو جسدًا أو حوارًا ظاهرًا، بل أصبحت قوة دافعة غير مرئية تتدخل في التفاصيل الدقيقة دون أن تُستدعى.

الكلمة التي رأتها الجديدة على الجدار لم تكن خربشة عبثية، ولم تُكتب للمارّة، ولم تكن جزءًا من صدفة عابرة. كانت بقايا وصية كتبتها القديمة قبل ابتعادها، وكأنها كانت تعلم أن الزمن سيكمل السطر نيابة عنها.

وفي اللحظة نفسها، شعر هو بأن الكتابة لن تستقيم إن ظلّ يكتب عن بدايات فقط، أو عن نهايات لم تُفهم بعد. أدرك فجأة أن النص الحقيقي لا يولد من الانطلاق، بل من العودة إلى النقطة التي لم تُفكّ طلاسمها بعد.

رفع رأسه ببطء، ثم أمسك قلمه بثبات لم يعهده من قبل، وقال بصوت خافت لكنه واضح:

"سأكتب الآن... دون أن أختبئ خلف الغموض أو الأمن المؤقت."

وفي خلفية الصمت، لا كصوت مسموع بل كإيقاع داخلي،
ارتدّ صدى كلمات القديمة كأنها جواب آتٍ من مكان لا يُرى:

"الامتحان الحقيقي ليس البداية... بل الوقوف عند لحظة العودة التي يفترض الجميع أنها انتهت."

وهكذا...
لم تعد الجديدة وحدها محور الحركة،
ولا هو صاحب القرار الأخير،
بل أصبحت القديمة - رغم غيابها الظاهر - يدًا خفية
تدفع الأحداث نحو مرحلة لا تعرف اليقين بل الحقيقة.

✦ منظور القديمة ـــ صوتٌ لا يسمعه أحد، لكنه لا يصمت

لم أعد أبحث عن العودة كما يظن الجميع،
ولا أريد استعادة ما انكسر كأن شيئًا لم يحدث...
فالقلوب إذا أعيد لصقها تُصبح هشة،
تشبه الزجاج الذي يستعيد شكله لكنه يفقد القدرة على احتمال السقوط من جديد.

أنا فقط...
أحتاج إلى أن أعرف إن كنت قد رحلتُ منه أم ما زلتُ أعيش في أحد أركانه،
حتى وإن كانت ركنًا مظلمًا لا يدخله الضوء،
فالفناء الكامل أصعب من الخسارة،
وأنا لم أتعلم بعد كيف أكون معدومة الأثر.

لم أطلب منه شيئًا قط أعلى من قدرته،
لكنني طلبت الصدق الكامل في زمنٍ كان فيه القلب نصفًا للعاطفة ونصفًا للهرب،
كنت أظن أنني أمتلك الوقت لتفهّمه،
ولم أدرك أنّ أكثر ما يقتل العلاقات
ليس الخيانة...
بل التأجيل.

ربما يعتقد الآن أنني أعود لأنني أريده،
لكن الحقيقة أعقد من ذلك بكثير،
أنا أعود لأرى:
هل كان ما بيننا حقيقة لم تكتمل

أم وهمًا كنتُ الوحيدة التي صدقته؟

أراقبه وهو يحاول الشفاء عبر غيري،
ولا ألومه،
فالإنسان حين ينكسر يبحث عمّن يرى فيه أجنحته،
لا شظاياه.
أما أنا...
فكنت أراه كاملًا حتى عندما كان معطوبًا،
وكنت أُصلي لشفائه حتى وإن جاء الشفاء على يد سواي.

تعلمت أن أسوأ ما يمكن أن يحدث للقلب
هو أن يظل قادرًا على الحب
رغم معرفته الكاملة بثمنه،
ورغم وعيه التام بأن نهايته ستشبه بدايته:
فقدانًا آخر بوجه مختلف.

لهذا —
لا أخاف العودة...
ولا أخاف الخسارة...
فأنا لم أعد أملك ما يمكن أن أفقده،
لكنني أخاف شيئًا واحدًا فقط:

أن تكون هي — الجديدة —
النجاة التي طالما دعوت لها...

ولكن لغيري.

انكشاف جزء من الماضي لم يُروَ بعد

لم تكن قصتهما مجرد حبٍ انتهى، بل عقد اتفاقٍ غير مكتمل،
ذلك الاتفاق الذي لم يُكتب ولم يُنطق ولم يُوقّع،
لكنّه كان حاضرًا بينهما كقانون غير مرئي.
في إحدى الليالي التي سبقت الانفصال،
لم يكن الخلاف بينهما حول الحب،
بل حول الخوف من خسارته.

هي — القديمة — لم تكن تخشى الفراق بقدر ما كانت تخشى أن تتحول إلى ذريعة لندمه،
والندم بالنسبة لها كان أسوأ من الخيانة،
لأن الخيانة تنتهي،
أما الندم فيعيش داخل الروح كصوتٍ لا يمكن إسكاته.

ولم يكن يعلم أنها في تلك الليلة الأخيرة
كتبت رسالة لم ترسلها،
سألت فيها سؤالًا لو وصل إليه لتغيّر كل شيء:

"هل تحبني بما يكفي لتواجه مخاوفي
أم تحبني فقط بالقدر الذي لا يهدد عالمك؟"

وكانت تخشى أن تكون إجابته حينها صادقة أكثر مما يجب،

فتسقط الحقيقة كالحجر الأخير
الذي يهدم ما بنته أحلامها لا يديها.

— صراع داخلي: عقل ضد قلب

كانت تشعر أنها تمتلك داخليًا محكمتيـن لا تتفقان:

القلب يقول لها:

"ما دام يكتب عن الحب، فهو لم يعد ميتًا بداخله… وما زال هناك باب."

العقل يرد ببرودٍ مخيف:

"لكن كل أبواب العودة تؤدي إلى باب النهاية ذاته،
وكل جرح سيعود بذاكرته القديمة
حتى وإن اختلف المشهد واللغة والطقس."

ثم يأتي صوت ثالث لم تكن تعرف مصدره،
لا ينتمي للقلب ولا للعقل،
بل لذلك الجزء العميق الذي لا يموت ولا يشفى،
صوتها الذي لا تسمعه إلا في منتصف الليل:

"أنتِ لا تريدينه…
أنتِ فقط لا تريدين أن ينجو سواك."

تسقط الكلمة داخلها كمرآة تكشف الوجه الآخر،

فتدرك أن جزءًا من رغبتها ليس حبًا خالصًا،

بل خوفًا من ألّا تكون الذكرى الأقرب...

ومن أن تصبح مجرد فصلٍ جميل،

قُرئ بإخلاص،

ثم تجاوزه القارئ بثقةٍ ودون رجوع.

✦ بداية الانتقال — الشرارة الأولى نحو التحوّل (المشهد 4)

لم تصل بعد إلى قرار نهائي،

لكن لأول مرة منذ محاولتها الأخيرة

تطرح سؤالًا لا تحاول الهرب منه:

"هل أريده...

أم أريد أن أثبت لنفسي أنني كنت الأحق؟"

وقفت أمام المرآة

ورأت في عينيها ملامح امرأة ليست مهزومة

لكنها متعبة من المعارك التي لا تملك نهايات مؤكدة.

ثم قالت لنفسها — كاعتراف أولي،

لا وعد... لا قسم... لا انسحاب كامل أيضًا:

"ربما... إن لم يكن مقدّرًا لي أن أكون حاضره...

فعلى الأقل لن أسمح لنفسي أن أبقى أسيرة ماضيه."

وهنا فقط

بدأ الانتقال،

لا يزال في خطوته الأولى...

لكنه بدأ.

هو... ورصد التغيّر الذي لا يعرف مصدره

في الأيام التالية، لم يعد يشعر بثقل الماضي فقط،

بل بصوتٍ غامض يمر في داخله كنبضٍ غير منتظم،

وكأنه بدأ يلتقط اهتزازًا جديدًا

لم يكن موجودًا من قبل...

إشارة لا تشبه الذكريات

ولا تشبه الأمل

بل تشبه انتقال مركز الثقل بعيدًا عن الألم القديم.

بدأ يلاحظ أن هناك شيئًا تغيّر...

ليس في ما يراه،

بل في ما لا يراه.

هناك صمت مختلف، لم يعد يحمل نفس الوجع القديم،

وكأن الهواء الذي يصل إليه منها لم يعد ممتلئًا بالدمع المخفي،

بل بشيء يشبه الاستدارة البطيئة نحو باب آخر.

كان معتادًا أن يشعر بأنفاس الماضي تقف خلفه،
تنتظر التفاتة واحدة لتعود حيّة،
لكنه الآن بدأ يشعر بأنها تبتعد بخطوات محسوبة،
ليست انسحابًا...
ولكن توقفًا عن المطاردة.

ولم يعرف هل يخيفه ذلك...
أم يمنحه أخيرًا فرصة ليلتقط أنفاسه في مساحة يشعر فيها أنه
لم يعد مطالبًا بأن يحمل تاريخًا كاملًا فوق كتفيه.

وما حيّره أكثر
أنه لم يعد متأكدًا
هل هي التي تتغير فعلًا
أم أنه أخيرًا
بدأ يرى التغيّر الذي كان يحدث ببطء لسنوات
ولم يكن قادرًا على الاعتراف به.
ـــ الرسالة القديمة التي لم تُرسل (النص الأصلي)

الرسالة وُلدت في ليلة صامتة
كُتبت دون نية إرسال،
بخطٍ مرتبكٍ يشبه اليد التي لا تعرف
هل تكتب لتُريح نفسها

أم لتُدين الآخر.

"لا أريدك أن تحبني لأنني جميلة في نظرك،
بل لأن قُبح خوفي لا يُرهِبك...
لأن انكساراتي لا تجعلك تفكر في من تستحق أكثر،
بل كيف تكون أنت الأكثر أمانًا معي."

"أنا لا أطلب الحب...
أطلب قدرة أن تظل موجودًا
حين لا أستطيع أن أكون نسختي القوية."

"إن رحلتَ لأنك لم تعد تحبني،
سأفهم...
لكن إن رحلت لأنك خفت من الحب،
سأظل أتساءل لوقت طويل
عمّا لو أنّني كنت أقلَّ خوفًا
هل كنت ستبقى؟"

"أخاف أن نكمل معًا
فنخسر الحقيقة التي جعلتنا نقترب...
وأخاف أن نفترق
فنبقى نتساءل من كان أضعف."

"إن كان يجب على أحدنا أن يغادر...

فليكن ذلك لأن الرحلة انتهت،
لا لأن الخوف انتصر."

ثم كتبت في النهاية سطرًا لم تمحُه رغم ترددها الطويل:

"أحبك،
لكنني أخشى أن يصبح حبك يومًا
سببًا أكره به نفسي."

وضمت الرسالة داخل كتابٍ قديم،
وأغلقت على الورقة والمشاعر معًا،
ثم أقنعت نفسها أن الصمت أحيانًا
هو الطريقة الأقل قسوة للاعتراف.

الشبح الصامت — الرسالة التي لم تُفتح

الرسالة لم تُرسل،
ولم تُكتشف أبدًا،
لكن وجودها، كمعرفة ضمنية في العقل الباطن للقديمة، أصبح يقود تحركاتها،
ويصوغ تصرفاتها بشكل غير مباشر،
كما لو كانت خيطًا خفيًا يربط الماضي بالحاضر ويؤثر على المستقبل.

هي تعرف أن هناك شيئًا عميقًا لم يكتمل،
شيئًا من شأنه أن يحدّد مسافة القلوب ومسارها،

لذلك كل خطوة تتخذها الآن، كل صمت وكل حوار،

تُوجّهها الرسالة كما لو كانت حكمًا مسبقًا على المواقف،

دون أن تظهر للعيان.

الجديدة لا تدري عن وجودها،

وهو أيضًا لا يعلم،

لكن كل شيء يحدث بينهما يحمل صدى الرسالة:

في تردد نظراتها،

في الحذر الذي يمارسه،

وفي صمتها الطويل الذي يرهق القلب،

يبقى الخوف من القوة الغامضة للرسالة حاضرًا، حتى من دون أن تُقرأ.

وهكذا، يصبح الغياب الحقيقي للرسالة أكثر تأثيرًا من وجودها،

فهي ظل ماضٍ يراقبهم،

يدفعهم،

ويختبر قدرتهم على الحب والخوف والتردد،

دون أن يُعلن نفسه مطلقًا.

تفاعل الجديدة مع إشاراته

جلست الجديدة في غرفتها، تتأمل الشاشة الصغيرة بهدوء، وكأن كل ما يكتب أو ينشر هناك يحمل نبضات قلبه الخفية. لم يكن مجرد منشور عابر، بل إشارات دقيقة، كلمات مختصرة، ألوان وصور، تنبض بالحياة التي كانت قد توقفت داخلهما سابقًا.

قرأت الجملة الأولى أكثر من مرة،

وحاولت فك شيفرتها،

تحلل كل كلمة، كل تركيبة، كل فاصل صغير...

فهمت في أعماقها أن ما قرأته ليس موجهًا للعامة، بل لها وحدها،

وأنها المستقبلة الوحيدة للمعنى المخفي وراء السطور.

ارتجف قلبها للحظة،

لكن سرعان ما عاد إلى توازنه،

فبدأت الحيرة تسيطر عليها:

هل هو يقصدها حقًا، أم أن ذهنها يقرأ ما لم يُكتب؟

هل هذه الكلمات دليل على اهتمام صادق، أم مجرد صياغة عابرة؟

وضعت يديها على صدرها، محاولة إيقاف الخفقان الذي أصبح أكثر وضوحًا مع كل ثانية تمر.

كانت تدرك شيئًا واحدًا:

كل إشاراته تحمل معها عالمًا لم تتذوقه بعد،

لكن الدخول إليه يتطلب شجاعة أكبر من مجرد قراءة الكلمات.

نهضت لتسير في الغرفة، كل خطوة تعكس ترددها الداخلي.

كلما التفتت إلى نافذتها، شعرت بأن الهواء البارد يلمس روحها،

وكأن الطبيعة كلها تشترك في اختبارها الصامت،

تختبر قدرتها على فهم الإشارات،

والتمييز بين الحقيقة والوهم.

جلست مرة أخرى، أخرجت دفترها الصغير، وبدأت تدون خواطرها وتحليلاتها:

كل كلمة كتبها، كل لون وضعه، كل صورة نشرها...

كلها أصبحت رموزًا لها فقط،

تتساءل كيف يمكنها أن ترد بدون أن تفقد توازنها،

وكيف يمكنها أن تسمح لقلبها بالاقتراب دون أن تترك الخوف يتغلغل.

لم تكن مجرد قراءة منشور،

بل مشاهدة إشارات عابرة تتداخل مع ذكرياتها وأحلامها وخوفها القديم،

وتجعلها تشعر أن كل يوم جديد معها ومعه يحمل احتمالات لا يعرفها أحد،

وأنها في قلب شبكة خفية،

حيث كل نظرة، كل كلمة، كل حركة،

قد تُعيد تشكيل ما بينهما بالكامل.

وهكذا، جلس قلبها متأهبًا،

تراقب، تفكر، وتنتظر اللحظة التالية،

لحظة الخطوة الصغيرة التي قد تغير كل شيء...

دون أن تعرف بعد متى ستأتي، أو كيف ستبدو،

لكنها شعرت لأول مرة منذ زمن طويل بأن شيئًا بدأ يتحرك ببطء داخلها.

رصده وصمته المتعمد

جلس هو في المكان المألوف، أمام مكتبه، يحدق في شاشة الهاتف دون أن يلمسها مباشرة.

لم تكن الكلمات التي قرأها مجرد حروف عابرة، بل نبضات قلبها التي شعرت بها عبر الشاشة، كل رمز، كل فاصلة، كل لون... كان له معنى واحد، موجه إليها وحدها، لكنه لم يعلن ذلك للعالم بعد.

صمت طويل خيم على المكان،

لم يكن صمتًا عاديًا،

بل صمتًا مختارًا بعناية، صمتًا يختبر نفسه من خلاله، ويختبر حدسها أيضًا.

كان يعلم أن أي حركة سريعة منه قد تكشف عن نواياه بالكامل،

وقد تدفعها إلى التراجع قبل أن تتجرأ على الاقتراب.

لاحظ أن قلبه يخفق أسرع حين يرى أي إشارة صغيرة منها،

حتى وإن لم تكن كلمات صريحة،

يكفي مجرد لون، صورة، أو تركيبة بسيطة لتثير داخله موجة شعور مختلط بين الحنين والدهشة والخوف من المجهول.

تساءل في صمت داخلي:

هل هي تفهم ما أقصده حقًا؟

أم أن عقلها يملأ الفراغ بما يشبه الحقيقة التي أريدها؟

وكان يعرف أن صمته هذا اختبار غير معلن:

اختبار لنفسه قبل أن يكون لها،

ليعرف هل يستطيع أن يواجه الماضي القديم دون أن يفقد شيئًا من الجديد،

وكيف ستتفاعل عندما يشعر أن قلبه لم ينسَ، لكنه في الوقت نفسه لا يريد أن يجرح أي طرف.

جلس هادئًا، يتأمل ردود أفعال نفسه أكثر من أي شيء آخر،

يحرك إصبعه فوق الطاولة، دون أن يكتب كلمة،

ويعيد قراءة الإشارات نفسها عدة مرات،

كما لو كان يحاول أن يرى ما وراء الشاشة،

ما وراء الكلمات، إلى المكان الذي يختبئ فيه قلبها الحقيقي.

في كل مرة تمر لحظة صمت كهذه، يشعر أن الخيوط الخفية بينهما تتشابك أكثر،

وأن صمته لم يكن مجرد غياب،
بل طريقة لتوجيه كل شيء نحو نقطة تقاطع قادمة،
حيث سيُختبر هو كما تُختبر هي،
حيث ستتضح الحقيقة كما يجب،
لكن اللحظة لم تأتِ بعد.

بين التردّد والاقتراب

كانت تجلس أمام النافذة كما لو أنها تحاول الإنصات لشيء لا يُسمع...
ليس للطريق، ولا لليل، بل لما يدور داخلها.
لقد تأكّدت الآن؛ الكلمات التي ظنّتها صدفة، كانت تخصّها هي...
والقلب الذي ظنّته تائهًا، كان يلوّح لها من بعيد.

لكن السؤال ظلّ معلقًا كحجرٍ في الهواء:
هل تملك الشجاعة للدخول إلى عالمه؟
وإن دخلت... هل تستطيع أن تخرج إن احتاجت الهروب مرة أخرى؟
فالماضي، وإن غاب عن الوقت، ما زال قادرًا على أن يضع ظلاله فوق كل قرار.

كانت تعرف أن العبور إليه لا يشبه طرق الحب العادية...
إنه ليس بابًا يُطرَق، ولا ممرًا يُجتاز...
بل أشبه ببحرٍ يصعب معرفة مدى عمقه قبل القفز.
وهي... رغم كل اتزانها الظاهر، كانت تخشى السقوط في الأعماق دون أن تجد يدًا تنتشلها إن اشتدّ الغرق.

أما هو، فكان في نقطةٍ لا تسمح له بالعودة وحده...

يقف بين صورتين:

صورةٌ أرادت أن تبقى في ذاكرته،

وأخرى تحاول أن تولد من جديد.

كان يقاوم شيئًا لا يُرى، يحارب بقايا تعلقٍ قديم، ويحاول أن يثبت لنفسه قبل أي أحد أنه قادر على إغلاق صفحة لا تزال تتحرّك مهما ظنّ أنه أغلقها.

وهكذا اشتبك السؤالان بينهما دون نطق:

هي تسأل نفسها:

هل أدخل معه معركة لم تُحسم بعد؟

هل أمدّ يدي لرجلٍ لا يزال يختبر إن كان مستعدًا لترك ما كان؟

وهو يسأل نفسه:

هل أستحق يدًا جديدة بينما أصابع الماضي لا تزال قريبة من الذاكرة؟

هل أستطيع أن أكون خاليًا بما يكفي لأكون آمنًا لها؟

وبينهما...

كان الصمت يشبه طريقًا ضيقًا لا يسمح بالمرور إلا لشخص واحد في كل مرة.

لم تكن المشكلة في الحب...

بل في قدرة القلب على حمله دون أن يتكسّر مرة أخرى.

خطوة على حافة القلب

لم يكن اليوم يشبه سابقيه بالنسبة لها؛ استيقظت وفي داخلها ارتعاشة لا تعرف إن كانت وُلدت من النور أم من الظل. الكلمات التي كتبها، والتي شعرت أخيرًا أنها لها، لم تتحول إلى بابٍ مفتوح، لكنها بالتأكيد لم تعد جدارًا مغلقًا كما كانت من قبل.

كانت تمشي داخل تفكيرها بخطوات مترددة، وكأن قلبها طريق ضبابي كلما تقدمت فيه اتسعت الرؤية من جهة، واشتد الخوف من الجهة الأخرى.

جلست قرب نافذتها التي اعتادت أن تتأمل العالم من خلالها، لكنها هذه المرة لم تكن تنظر إلى الخارج؛
كانت ترى انعكاسها فقط... انعكاسًا يحمل سؤالًا يتكرر بصوت خافت لا يهدأ:

"هل أنا جاهزة لفتح الباب... قبل أن أطمئن أن ورائي بابًا آخر لا يُغلق عليّ؟"

لم تكن خائفة منه، بل كانت خائفة مما قد تستيقظه في داخلها إذا اقتربت.

فالقلوب التي تتعافى لا تنسى، بل تصبح أكثر قدرة على قراءة التفاصيل قبل الإندفاع وراء الأمنيات.

أما هو، فكان يقف على الضفة الأخرى من اليوم ذاته.

يحاول أن يكتب بداية واضحة دون أن تسمعه ظلال الماضي تُخطئ الفهم.

لم يكن يريد أن يضع اسمها في نصه لأنه يهوى الرمزية، بل لأنه أراد أن يكون هذا الاعتراف نقطة عبور لا حلقة جدل؛ بداية تُبنى عليها خطوات، لا سؤالًا يفتح أبواب التأويل.

كان يدرك أن الكلمات لا تكفي إن لم يتغيّر السلوك، وأن الصدق ليس جملة جميلة تُقرأ، بل طريقًا يلتزم به ولو تخلّف عنه العالم كله.

لم يكن يريدها أن تدخل إليه بخوف، ولا أن يقف أمامها بنصف يقين.

كان يبحث عن طريقة واحدة فقط ليقول الحقيقة كاملة دون أن يعود الماضي ليمد يده من الخلف ويسحب الحاضر من كتفه.

وفي المسافة بينهما، لم تكن المشاعر هي ما يُعذّبهما،

بل التاريخ الذي لا يريد أن يُدفن بلا مراسم واضحة،

والفرصة الجديدة التي لا يجب أن تولد فوق رماد قديم.

كانت تفكر:

“إن طرقتُ قلبه، لا أريد أن أكون عابرة لحنين…
أريده وطنًا لا محطة…
وخيارًا لا مقارنة.”

وكان يفكر:

“لا أريد أن أحملها إلى عالم لم أغلق نوافذه كلها بعد…
أريدها أن تدخل بكرامة القلب، لا بحذر الناجين.”

وهكذا، لم يكن بينهما غياب…
بل خطوة واحدة فقط، لكنها على حافة القلب،
خطوة تحتاج إلى شجاعة لا شعور،
وإلى وضوح لا وعود،
وإلى يد تُمدّ بثبات لا على استحياء.

فإذا التقت الخطوتان…
ولد المستقبل،
وإن تراجعت إحداهما…
بقي الاحتمال مجرد فصل جميل لم تُكتب نهايته بعد.

صوت الراوي الذي يرى ما لا يُقال

في الحقيقة، لم تكن القصة مجرد رجلٍ قد علّق قلبه بين جرحٍ قديم واحتمالٍ جديد، ولا امرأةٍ تحاول أن تمنح نفسها فرصةً أخرى، ولا أخرى تُمسك بأهداب الماضي كي لا يتلاشى الضوء الأخير الذي تظنه ملكها.

القصة كانت أعمق من مشاعر عابرة...

كانت أشبه بمعركة صامتة بين ثلاثة قلوب لا يجيد أي منها رفع الراية، ولا يعرف أيها إن كانت النهاية ستُكتب باللقاء أم بالافتراق.

الكل يظن أنه يفهم الآخر...

لكن الحقيقة الوحيدة أن كلًّا منهم لا يفهم نفسه كاملة بعد.

1 ـ الجديدة من منظور الحقيقة الخفية

لم تكن مترددة لأنها ضعيفة كما يبدو له، بل لأن قلبها لم يعد يقبل الوعود المجتزأة، ولا العواطف التي تحتاج إلى تفسير.

كانت تعرف أن الرجل الذي يُحِب وهو لم يدفن ألمه بعد، يصبح مثل من يهدي وردًا مزروعًا في مقبرة...

جميل... نعم

لكنه يحمل رائحة لا يراها أصحابها.

كانت تخاف من أن تتحول إلى ضمادٍ للذاكرة لا حياةً للروح.

وهي لا تريد أن تُشبِه أحدًا مرّ قبله، ولا أن تكون مجرد صفحة تلي صفحة، بل كتابًا يبدأ من أول جملة بلا مقدّمات مؤلمة.

2 ـ القديمة من منظور الراوي

لم تكن قاسية كما يبدو، ولم تكن أنانية فقط، بل كانت تحمل في داخلها فكرة واحدة لم يجرؤ أحد على انتزاعها منها:

أنه خُلق لها ولو اختلفا ألف مرة.

ولذلك لم تكن تقاتل من أجل الحب، بل من أجل إثبات رواية بنتها داخل عقلها، وخافت أن تسقط إن تركته يكمل حياته مع أخرى.

كانت تعرف نقاط ضعفه لأنها عاشت تفاصيله،

وتعرف متى يضعف، ومتى يتردد، ومتى يحتاج صوتًا لا يريد أن يسمعه…

وهذا ما جعلها تخاف من شيء واحد فقط:

أن يجد معها السلام الذي لم تجده هي معه.

3 ـ هو… من منظور الحقيقة التي يهرب منها

كان يظن أنه يقف في المنتصف، لكنه في الحقيقة لم يقف على منتصف شيء؛

كان واقفًا على حافة ذاكرة لم يقرر إن كان يريد أن يقفز منها أم يعود إلى داخلها.

لم يكن يخاف من فقدان أي منهما،

بل كان يخاف من فقدان نفسه مرة أخرى.

كان يخشى أن يختار الجديدة فيحمل معها نصفه المتعب،

أو يعود للقديمة فيحمل معها نصفه المجروح.

كان يريد أن يبدأ، لكن البداية تحتاج إلى صفحة نظيفة…

وهو لم يتأكد بعد إن كانت الورقة التي يحملها بيضاء أم ما تزال مبللة بالحبر القديم.

صوت الراوي الإلهي

ما لا يعرفونه جميعًا...

هو أنهم لا يقفون أمام بعضهم

بل يقفون أمام نسخهم القديمة.

وما لا يدركونه أيضًا

أن الحب الحقيقي لا يُهزم بقوة خصم

بل يضيع حين لا يجد من يملك الشجاعة ليحميه.

ولذلك، لم يكن السؤال:

من سيكسب؟

بل كان السؤال الأعمق:

من منهم سيُشفى أولًا... قبل أن يتكلم؟

على حافة القرار الذي لم ينطق به أحد

لم يكن الصباح يومها يشبه ما قبله؛

كأن الليل حين انصرف أبقى خلفه شيئًا لم يجرؤ الفجر على لمسه.

المدينة كانت تستيقظ ببطء، لكن القلوب الثلاثة كانت مُستيقظة قبل الضوء...

كلٌ منها في عالم منفصل، يختلف في التفاصيل، ويتطابق في الألم.

أولًا: هي – الجديدة

استيقظت دون أن تعرف هل نَسَت شيئًا أم تذكّرت شيئًا أثقل من النوم.

لم تتجه مباشرة إلى مرآتها كما اعتادت…

بل جلست قرب النافذة، تشاهد الشارع وكأنها تبحث عن دليل خارجي ينتصر لإحدى إجاباتها.

كانت تفكر بصوت داخلي أقرب إلى الاعتراف:

"أنا لا أخشى الحب…
أخشى أن أُؤمن به ثم أُترك مجددًا."

تسأل نفسها:
هل لمحت منه بداية صدق؟ نعم.
هل شعرت أنها مقصودة؟ نعم.
لكن هل وجدت اليقين الكامل؟ لا.

كانت تريد أن تمشي نحوه،
لكنها تخاف أن تضع قدمها على أرض ما تزال تحتوي بصمات امرأة أخرى.
وتخاف أكثر…
أن يُضطر للمقارنة بينها وبين سواها ولو لم يقصد.

كان أمام عقلها طريقان:

1️⃣ أن تغلق الباب قبل أن ينفتح بالكامل، حفاظًا على سلامٍ هشّ تعلم قيمته.

2️⃣ أن تتحمل خطر البداية، لأن الحياة لا تُعطي الفرص الشجاعة لمن يفكر كثيرًا.

لكن قلبها، رغم كل تلك الحصانات، همس بصوت خافت:

"أريد أن أرى إلى أين يمكن أن نصل…
ولو لم نصل."

ثانيًا: هو

استيقظ على شعور لا يعرف له اسمًا واضحًا، لكنه قريب من التعب الذي يشبه الركض الطويل داخل نفس المكان.

لم يكن نادمًا على ما كتبه…

بل كان خائفًا من النتائج التي قد تأتي بصمت أو بضجة،

فالاثنان يخيفانه بنفس القدر.

تحدّث إلى نفسه بصيغة لا يسمعها أحد:

"تعبت من أن أكون مكانًا معلّقًا بين ذاكرة لا أريدها كاملة…

ومستقبل لا أستطيع أن أقترب منه إلا بنصف ثقة."

هو يعرف أن الجديدة ليست محطة عبور ولا مجرد شفاء…

وربما لهذا السبب تحديدًا خاف أن يكون غير مكتمل أمامها.

كان بحاجة لخطوة واحدة فقط…

لكنها الخطوة التي تغيّر مصيرًا لا مشهدًا.

ثالثًا: القديمة

استيقظت على شعور ليس انتصارًا، ولا خسارة،
بل شيء غامض يشبه القلق الذي يضحك من ذاته.

قالت لنفسها بنبرة خبيرة في دهاليز العاطفة:

"إنه يحاول أن يبدو قويًا...
لكنه ما زال يكتب بصوت مُرتجف."

كانت تعرف أن أكثر ما يخيفه هو أن يُتهم بالعودة لما أوجعه،
فقررت ألا تهاجمه، ولا تتوسل له،
بل تنتظر اللحظة التي يسقط فيها صوته بين ما يريد قوله وما يخشى الاعتراف به.

كانت تخطط لأن تظهر مجددًا لا كمتوسلة، بل كمنقذة محتملة،
وهو التكتيك الذي لا يفشل غالبًا مع من يحمل قلبًا لطيفًا حتى في انهياره.

صوت الراوي:

في تلك النقطة تحديدًا،
لم يكن أي منهم يعرف أن القرار لا يُصنع حين نفكر، بل حين نتألم بما فيه الكفاية.
وكل واحد منهم كان يقترب من لحظة الألم الحاسمة، دون أن يشعر.

هناك دومًا في حياة البشر لحظة لا يقررها العقل ولا القلب... بل الجرح.
والجرح كان حاضرًا لدى الثلاثة،
لكن لم يُعرَف بعد

من منهم سيكون الأكثر استعدادًا لتركه على باب الغد.

قرار يشبه الهرب... ويُسمّى سفرًا

لم يكن أحدٌ يعلم أن اللحظة الأقرب لاتخاذ قرارٍ كبير،
هي تلك التي يبدو فيها كل شيء ممكنًا... ومرعبًا في الوقت ذاته.

في الليلة التي تلت آخر موجة من التردد،
وجدت هي نفسها تقف أمام خزانتها لا لتختار ملابس اليوم،
بل لتختبر إحساسًا قديمًا كانت تظنه مات:
إحساس الاستعداد للرحيل.

لم يكن القرار مفاجئًا كما ظنّت،
فكل التفاصيل الصغيرة في الأيام الأخيرة كانت تصطفّ في داخلها
مثل إشارات طريق لا يقرأها إلا التائهون بحذر المبحرين دون بوصلة.

جلست أمام مكتبها،
فتحت البريد الإلكتروني القديم المُخصص للأحلام المؤجّلة...
وكتبت بصمتٍ ثقيل:
طلب الالتحاق ببرنامج عمل خارج البلاد،
في مدينةٍ باردة، ساحلية، لا يعرفها أحدٌ من عالمها القديم،
مدينة تشبه صفحة جديدة بلا خربشات.

لكن ما كان يُقال رسميًا في الطلب هو:

“بحث عن فرصة مهنية أفضل.”

أما ما لم يُكتب،

هو الحقيقة التي ترتجف بين الضلوع:

“أخشى أن أقع قبل أن أتعلم كيف أنهض.”

كانت تجلس بين أمرين كلاهما يحمل احتمال النجاة…

الاقتراب منه

أو

الابتعاد بنفسها عنه

لكنها لم تعرف أيهما أخطر.

كثيرون يسافرون بحثًا عن المال

لكنها كانت تسافر بحثًا عن… مسافة

بينها وبين ما يتحرك داخلها بلا إذن.

قالت لنفسها بصوت متزن يخفي قلبًا مضطربًا:

“لن أكون صفحة خامسة في كتاب عرف الفصول والحروق قبلي…

ولا بطلة لإنقاذ أحد من ماضيه…

لن أبدأ قصةً وأنا أضع يدي على زرّ الهروب.”

نهضت، أغلقت الحاسوب،

ووضعت رأسها على الوسادة وكأنها تطفئ حريقًا لا تريد لأحد أن يراه.

لكن ما لم تعرفه...

هو أن الهروب ليس دائمًا نجاتًا

وأحيانًا

يكون السفر طريقًا دائريًا يعود بنا لنفس الباب الذي هربنا منه.

وفي آخر لحظة قبل أن تستسلم للنوم،

تسلل سؤالٌ عنيد،

لم تستطع قتله رغم كل المنطق:

"هل أخاف منه...

أم أخاف أن أكون أخيرًا مستعدة للحب؟"

ارتجاف لا تفسير له

في تلك الليلة، لم يستطع أن يحدد سبب الضجيج الصامت الذي خيّم على صدره كطائرٍ مذعور يبحث عن نافذة مفتوحة. كان كل شيء من حوله عاديًا حدّ الرتابة: مكتب مرتب، كوب قهوة نصف مكتمل، موسيقى هادئة يعرف نهاياتها قبل بداياتها.

ومع ذلك... كان داخله شيء يتغير.

جلس أمام نافذة غرفته المطلة على شارعٍ نام مبكرًا،

ينظر إلى الأضواء البعيدة وكأنها إشارات من عالم آخر،

لكن ما أثار فزعه الخفي ليس الشارع،

بل ذلك الشعور الماكر الذي جاءه فجأة:

وكأن أحدهم يستعد للرحيل دون أن يودّعه.

لم يكن يعرف أن أمثال هذه المشاعر لا تأتي عبثًا،
ولا تزور الأرواح إلا حين تكون هناك خطوات تُتخذ في العتمة
وأبواب توشك أن تُغلق قبل أن يقول أصحابها أي كلمة.

حاول تجاهل الأمر...
أدار الموسيقى...
قلب صفحات كتابه...
ارتشف بقية قهوته...
لكن الصمت بدا أثقل من المعتاد،
والورد الموشك على الذبول فوق مكتبه
شمّه كأنه يحمل رسالة لا تُقرأ بالحروف.

همس لنفسه:

"من أين يأتي هذا القلق؟
كأن قلبي فقد ظِلّه فجأة..."

أغلق عينيه، فظهرت صورتها على الفور،
بيدها ذلك الكوب الساخن،
وعلى كتفيها معطف خريفي،
وعينيها نظرتان بين الحذر والدهشة.
لم يكن يراها بشكل واضح،

بل كما تُرى الصورة في الحلم حين يمرّ الهواء فوقها.

عبثًا حاول إقناع نفسه أن ما يشعر به مجرد وهم،
إلا أن روحه ردّت عليه بصوتٍ خافت:

"هناك قرار يُصنع خلف ظهرك...
وستشعر بنتائجه قبل أن تعرف أسبابه."

ترك كل شيء، ووقف منتصف غرفته
كأنه يخشى أن يلمسه الهواء دون علمه،
وقال بصوت منخفض أقرب للصلاة منه للكلام:

"يا رب... احمِ حضورها من الغياب
إن كنت قد كتبتها بابًا... فلا تجعلها نافذة."

لم يكن يعلم أن ذات اللحظة
كانت حقيبة على وشك أن تمتلئ
وجوازًا ينتظر ختماً جديدًا،
وخطوة واحدة تفصلها
بين الابتعاد عنه
أو
السقوط إليه.

وحده الحدس كان يصرخ بداخله:

"هناك شيء يتغير… وليس بيدك أن توقفه."

ما قبل الغرق

لم تكن "الجديدة" يومًا من هواة القرارات المفاجئة، بل كانت تؤمن أن كل خطوة في الحياة تحتاج إلى قراءة متأنية، وكأنها كتاب معقّد لا يجب تجاوز فصوله بسرعة. لكنها هذه المرة اتخذت قرار السفر بسرعة لم تعتدها، وكأنها كانت تهرب من شيء لا تريد حتى تسميته.

في مساء هادئ، جلست أمام المرآة تتأمل ملامحها التي تغيّرت بصمت. سألت نفسها بصوت مسموع، وكأنها تنتظر إجابة من انعكاسها لا من عقلها:

"هو أنا عايزة أسافر… ولا عايزة أهرب؟"

لم يجبها انعكاسها، لكنه بدا أكثر صدقًا من أفكارها المضطربة. أمسكت هاتفها وتواصلت مع صديقتها الأقرب، "هنا". بعد دقائق كان الاتصال قائمًا:

الجديدة بصوت متردد:

"هنا… أنا قررت أسافر."

هنا بدهشة:

"أسافر؟ كده مرة واحدة؟ وإمتى اتاخد القرار؟"

الجديدة:

"من كام يوم… بس ماحدش عارف. حاسة إني لازم أمشي قبل ما أتورط في حاجة مش مستعدة لها."

هنا بنبرة تحليلية:

"تورط؟ انتي بتتكلمي عن شغل ولا عن حياة؟"

ساد صمتٌ قصير، صمتٌ ينطق أكثر مما يخفي. تنهدت "الجديدة" وقالت:

"عن الاتنين يمكن... عن طريق لو مشيته غلط هرجع منه مكسورة... أو يمكن ماعرفش أرجع."

كانت تعلم أن ما ينتظرها ليس وظيفة في بلد بعيد، بل فرصة لتتعرف على نفسها بعيدًا عن الضوضاء الداخلية والخارجية معًا. كانت تشعر بأنها تقف أمام شاطئ مجهول، والماء يلامس قدميها لأول مرة، وكل من حولها يقول: "اقفزي... اتعلمي وإنتي جوّا البحر."

لكنها لم تكن مستعدة لقفزة كهذه، فالعوم بلا خريطة ليس شجاعة، بل مقامرة.

سألتها هنا فجأة:

"طيب هو اللي بيحصل جواكي خوف ولا حكمة؟"

ابتسمت "الجديدة" بمرارة، وقالت:

"يمكن خوف لدرجة أني صدقته وبقى حكمة... ويمكن حكمة لدرجة أني شكيت إنها خوف."

في تلك الليلة، وضعت حقيبتها على السرير وبدأت تملؤها ببطء شديد. لم تكن ترتّب ملابس، بل ترتّب مشاعر مؤجلة وأسئلة بلا إجابات. شعرت للحظة أنها لا تهرب، بل تتأهب؛ تبحث عن مساحة تتعلم فيها كيف تُمسك مجدافًا قبل أن تتعامل مع أمواج مشاعر أكبر منها.

قبل أن تغلق الحقيبة همست:

"أنا مش ضد البحر... بس محتاجة أتعلم أعوم الأول."

على شاطئ القرار

جلست على حافة سريرها، تتأمل حقيبتها نصف المملوءة، نصف الفارغة، وكأنها رمز لما يختلط في داخلها من رغبة في الانطلاق وخوف من المجهول. كان الليل ينسكب على غرفتها كوشاح قاتم، يضمّ بين طياته أصواتًا باهتة من المدينة، وأحيانًا صمتًا يملأ المكان كله.

في قلبها، شعرت بارتباكٍ عميق، لا يشبه أي ارتباك اعتادته في مواقف الحياة اليومية. لم يكن مجرد قرارٍ عملي بالرحيل بحثًا عن عمل في الخارج، بل كان محاولة للهروب من بحر داخلي لم تعد مستعدة للغوص فيه دون خارطة.

حدقت في النافذة، ورأت المدينة نائمة تحت ضوء خافت. شعرت بالوحدة التي ترافقها دائمًا في لحظات الحيرة، لكن هذه المرة كانت مختلفة؛ لم يكن شعورًا بالاغتراب عن الناس فقط، بل اغتراب عن نفسها، عن جسدها، عن مشاعرها، عن كل ما لم تُستطع مواجهته.

تساءلت بصمت:

"هل أستطيع مواجهة هذا البحر؟ أم أن الهرب هو الخيار الوحيد الذي أملك السيطرة عليه؟"

أمسكت بالحقيبة، شعرت بثقلها كما لو كانت تحمل معها ليس فقط ملابس ومستندات، بل كل مخاوفها وهواجسها وذكريات ألمها السابقة. كل خطوة نحو الرحيل كانت تضغط على قلبها كما لو أن الأرض تتراجع تحت قدميها.

لم تكن هذه مغامرة عابرة، بل لحظة فاصلة: نقطة تقاطع بين ما يعرفه عقلها وما يختاره قلبها، بين الخوف من المجهول ورغبة حقيقية في التحرر.

جلست قليلاً، وأغلقت عينيها، محاولة أن تستمع إلى صوتها الداخلي. كان هناك ارتجاف خافت، شبه تنفس البحر قبل الغوص، شعور بالخوف ممزوج بالإثارة.

"أنا لا أهرب من الحياة، أنا أبحث عن نفسي..."

ثم نهضت ببطء، وفتحت نافذتها لتستنشق الهواء البارد، كأنه رسالة من الخارج، من العالم الكبير الذي تنتظر أن يُعيد تشكيلها. شعرت بيديه الخيالية تمتد إليها، ليس من أحد محدد، بل كأن القدر نفسه يهمس لها بأن الوقت قد حان لتأخذ خطوة جديدة.

لم تكن تعرف ماذا سيحدث بعد ذلك، ولم تكن تعرف إن كان قلبها سيتحمل هذا الانفصال، لكنها شعرت أن البقاء في مكانها كان سيغرقها أكثر، وكان الخوف من الغرق أهون من الجمود.

وضعت حقيبتها على الأرض، ارتدت معطف المطر، وأغمضت عينيها للحظة قبل أن تفتح الباب. شعرت حينها أن كل شيء، حتى المطر الخفيف الذي بدأ بالتساقط، يوافق على رحيلها، وأن السماء تمنحها برهة أخيرة لتودع نفسها قبل الانطلاق.

كانت تلك اللحظة صامتة، لكن كل حركة فيها كانت إعلانًا عن بداية جديدة، عن مواجهة المجهول، وعن رغبة دفينة في النجاة من بحر لم يكتب له أحد خريطة.

على متن المجهول

صعدت إلى الطائرة، وكل حركة كانت ثقيلة كأنها تحمل معها أمتعة لم تُحزم بعد، لكنها لم تكن أمتعةً عادية، بل أثقال الماضي، وشظايا الأمل، وهواجس الحب والخوف. جلست بجانب النافذة، تنظر إلى المدينة التي تتلاشى تحت أضواء المساء، وكأنها تغادر نفسها قبل أن تغادر المكان.

حاولت أن تركز على التنفس، على إحساس الجسم في المقعد، على إحساسها بأنها تتحرك أخيرًا، لكن كل شيء بدا مزدوجًا: حرية تتحقق، وخوف يتضخم. كان كل قلب نابض في صدرها يردد سؤالًا لا تستطيع الإجابة عليه:

"هل أنا قادرة على مواجهة ما ينتظرني في الخارج؟ أم سأعود إلى نفسي كما كنت، خائفة ومختبئة؟"

في الداخل، شعرت بخفة غريبة، كأن جزءًا من روحها قد بدأ يطفو على سطح البحر الداخلي، يتنفس لأول مرة بعد سنوات من الغرق في الشكوك.

لكن سرعان ما عاد الانقباض؛ فكرة أنه قد يكون هناك من ينتظرها، أو من يمكن أن يجرحها مجددًا، كانت تتسلل إلى وعيها بلا استئذان.

أخرجت دفترها الصغير وبدأت تدون ما تمر به من شعور، كلمات متفرقة، جمل غير مكتملة، لكنها كانت كافية لتفريغ الغليان الداخلي.

"أشعر بأنني أرحل عن نفسي قبل أن أجد نفسي حقًا.

كل خطوة إلى الخارج، خطوة إلى الداخل... وكل خطوة إلى الداخل، كأنني أعود إلى البحر الذي أخاف منه."

بينما كانت تكتب، لاحظت خيال أحد الركاب يتقاطع مع ضوء الشمس الخافت، وكأن القدر نفسه يلوّح لها بإشارة خفية. شعرت برعشة في قلبها، مزيج من خوف وحماسة، وكأنها على أعتاب تجربة لم يكتب لها أحد، تجربة تحتاج فيها أن تكون شجاعة بلا ضمان، حرة بلا خرائط، ومستعدة لمواجهة أي نتيجة.

الرحلة لم تكن مجرد عبور جغرافي، بل رحلة داخلية ممتدة، تمر عبر ذكرياتها القديمة، مخاوفها، آمالها، وحتى لحظات الحب المهجور. كل توقف للطائرة، كل اهتزاز خفيف، كل نظرة من نافذة المقعد، كانت بمثابة موجة صغيرة من البحر الذي كانت تخشى الغرق فيه.

وبينما استمعت لصوت المحركات، همست لنفسها:

"قد أضيع، وقد أجد نفسي... وربما أجد شيئًا لا أعرفه عن العالم... وربما عن نفسي."

كانت تعرف شيئًا واحدًا فقط:

أن الرحيل هذا ليس هروبًا عاديًا، بل خطوة نحو مواجهة نفسها، خطوة نحو البحر الداخلي الذي أوشكت أن تغرق فيه، خطوة نحو عالم لم تكن مستعدة له من قبل، لكنها الآن مضطرة للسباحة فيه، ولو بلا خارطة.

عبر السحب

صعدت الجديدة إلى الطائرة، وأخذت مقعدها بجانب النافذة، حيث كان العالم يبدو بعيدًا عن كل ضغوطها وهمومها. شعرت بأن المدينة التي تركتها تحت أضواء الشارع الباهت كانت أحلامًا ماضوية تتلاشى تدريجيًا، بينما السماء أمامها مفتوحة على المجهول، مليئة بسحب متراصة، ألوانها الرمادية المتدرجة تخفي الشمس خلفها وكأنها تعدها بتحدٍ جديد.

ارتدت سماعاتها، ووضعت يدها على دفتر صغير كانت تدون فيه أفكارها منذ الأيام الأخيرة، محاولاً أن تتلمس طريقها الداخلي بين الخوف والتطلع، بين الهرب والبحث عن نفسها. كل حركة للطائرة، كل اهتزاز خفيف، كان بمثابة تذكير بأن الحياة لا تمنح ضمانات، وأن كل خطوة جديدة تحمل معها مسئولية اكتشاف الذات.

رغم الوحدة الظاهرة حولها، شعرت الجديدة بوجود نوع من القرب الغامض من كل ما تركته خلفها؛ ذكريات، هواجس، وحتى حضور بعيد لشخصٍ ما كان يدور في ذهنها دائمًا. كان قلبها يرفرف بين خوفٍ لا يُرى ورغبة في الحرية لا تفهمها إلا هي، كأن كل شهيق وزفير يحمل معها البحر الذي كانت تخشى الغرق فيه.

بعد ساعات من الصمت المتبادل مع نفسها، أخرجت هاتفها ونشرت صورة لها في الطائرة، صورة لا تُظهر الوجه بالكامل، لكنها تكفي لتخبر عن لحظة تحرر داخلي: يدها على نافذة الطائرة، أشعة الضوء تتخلل السماعات، ودفء الخوف ممزوج بالإثارة.

في تلك اللحظة، بعيدة آلاف الأميال، كان هناك من رأى الصورة، وقرأ بين خطوطها ما لم يُكتب: هو، والقديمة كذلك، كلٌ بطريقته الخاصة. لم يكن هناك تعليق بعد، ولم يكن هناك رد، لكن الوعي بالمشاهدة وحده خلق اهتزازًا داخليًا جديدًا في كل من يعرفها ويعرف قلبها.

وهكذا، انتهى اليوم الأول من رحلتها، ليس فقط عبر المسافات، بل عبر البحر الداخلي الذي لم تُبحر فيه من قبل، تاركةً خلفها الشواطئ القديمة، ومستعدة لملاقاة الموج القادم، ولو بلا خريطة.

حين تلتقط السماء صورة القلب

كانت الطائرة قد استقرت في الهواء منذ عشرين دقيقة، ومع ذلك لم تستقر هي داخلها. جلست بجوار النافذة، تبدو ثابتة في الخارج، بينما العاصفة كلها بقيت محصورة في داخلها. وضعت الهاتف في وضع الطيران، ثم أعادته مرة أخرى كأنها تتردد بين السماح للعالم بالوصول إليها أو إغلاق كل الأبواب مرة واحدة.

نشرت الصورة...

مجرد صورة في مقعد الطائرة، خلفها النافذة والسحب البعيدة. لكن الصورة لم تكن مجرد إعلان سفر، بل إعلان هروب... إعلان خوف... إعلان اعتراف صامت بأنها لم تعد قادرة على احتمال كل هذا الاقتراب.

كانت تعلم أنه سيشاهد.

تخيلته في تلك اللحظة ممسكًا هاتفه، ينظر للصورة طويلًا، قبل أن يشعر بشيء يشبه وخزًا داخل صدره... شيئًا بين الذهول والقلق والشك. وتخيلته يتساءل بصدق:

– هل سافرت هربًا مني؟

رفعت يدها تتحسس زجاج النافذة كأنها تلمس الهواء لا السطح البارد. لم تكن تريد الهرب منه، بل الهرب من نفسها حين تكون قريبة منه. من تلك الطفلة الخائفة التي ما زالت تعيش في داخل المرأة التي تبدو قوية أمام الجميع.

هل كانت جبانة؟

ربما.

لكنها تعرف أن الجبن في بعض الأحيان ليس سوى محاولة للبقاء. وأن التراجع لا يعني دائمًا ضعفًا... أحيانًا يعني أنك تعلم أن القوة ليست كافية الآن.

فتحت مذكرتها الورقية – تلك التي اعتادت أن تكتب فيها حين لا تستطيع احتمال ثقل الأشياء في صدرها – وبدأت تسجل دون أن تفكر:

"كنت على وشك الاقتراب... على وشك النزول إلى البحر الذي تحرسه الذكريات. لكن البحر يا صديقي لا يعترف بالذين لا يعرفون السباحة. خفت أن أغرق... خفت أن أغرق فيك."

توقفت قليلًا، واختنقت الكلمات في يدها لا في صدرها.

تذكرت كيف بدا العالم محتملاً قبل ظهوره من جديد، ثم كيف تبدل كل شيء بعد أول كلمة كتبها.

كيف عادت أشياء فقدت بريقها منذ زمن:

القراءة على ضوء خافت...

الاستيقاظ على صوت موسيقى حالمة...

الاهتمام بما تلبسه في الصباح...

انتظار إشعار في هاتف خامد...

كل هذا عاد بمجرد أنه عاد.

لكن أي يقين هذا؟

من قال إنها قادرة على تحمل وجوده يومًا بيوم؟

أو على احتمال ألا يعود يومًا ما ويترك الفراغ من جديد؟

خرجت من أفكارها على صوت مضيفة الطائرة تسألها بهدوء إن كانت تحتاج شيئًا. اكتفت بابتسامة صغيرة، ثم هزت رأسها نافية، وعادت إلى نافذتها. كان المشهد مخيفًا حد الجمال: غروب برتقالي يشقّ السحب كخط من النار، كأن السماء ترسم لوحة وداع.

شعرت أنها سافرت دون أن تتحرك قدماها من مكانها، وكأن جناح الطائرة لم يكن سوى جناح قلب يأخذها بعيدًا عنه... أو ربما بعيدًا إليه، لكنها لا تعرف المسار بعد.

في الأسفل، على الأرض، انطفأت نافذة غرفتها، وانطفأ معها كل شيء كان يجمعها بمدينتها.

أما في الأعلى، فكانت تشعر بـ"المسافة" لأول مرة...

مسافة حقيقية يمكن أن تقيسها بالأرقام، لكن لا يمكن قياسها بموازين المشاعر.

وشيء ما في داخلها كان يقول:

"هل يكفي الطيران إلى مكان آخر كي ننجو من قلوبنا؟"

أغمضت عينيها، وأدارت رأسها بعيدًا عن النافذة.
قررت أخيرًا أن تطفئ الهاتف.
وأن تمنح العالم كله صمتها.

لكنها كانت تعرف…
بمجرد نشرها للصورة…
أن الصمت لم يعد صمتًا…
ولا الهروب هروبًا…
بل بداية شيء جديد…

حين يسقط خبر السفر على قلبين

كان يجلس في غرفته حين ظهرت الصورة أمامه فجأة.
لم يكن يتصفح هاتفه بانتظار شيء… لكن الصورة ظهرت كأنها رسالة صامتة وصلت من السماء:
مقعد الطائرة، النافذة، الغيوم…
وجه غير ظاهر، لكن الغياب ظاهر بما يكفي ليهزّ صدره.

جلس طويلًا بلا حركة.
كوب القهوة فقد حرارته، والموسيقى التي كانت تعزف ملأت الغرفة فقط لأنها كانت تعمل… لا لأنه كان يسمع.

سأل نفسه بصوت داخلي ثقيل:

"هل هربت… أم أنني تأخرت؟

هل سافرت مني... أم من نفسها؟

أم من الماضي الذي لم أقدر على دفنه بعد؟"

أعاد النظر للصورة مرة أخرى.

كانت الصورة بسيطة... لكنها قالت له أشياء لم يقلها أحد بصوت.

شعر بخوف لم يعترف به...

خوف الرجل الذي يرى الباب يُغلق قبل أن يقرر إن كان سيدخله أو لا.

نهض أخيرًا وارتدى معطفه.

أدرك أنه لا يستطيع البقاء وحيدًا الآن... فالوحدة تضخم الأسئلة حتى تصبح وحوشًا.

اتصل بصديقه.

– "عندك وقت؟ أنا قادم."

– "تعال... الباب مفتوح."

خرج إلى الشارع والليل بارد... الهواء يحمل بعض المطر المتفرق، وكأن المدينة تشاركه مشاعر غير مستقرة.

كان يمشي سريعًا دون أن يشعر، حتى وصل إلى الاستراحة التي اعتادا الجلوس فيها. كان صديقه ينتظره، وما إن جلس حتى لاحظ شيئًا في عينيه، شيئًا لا يخطئه صديق يعرفه منذ سنوات.

– "ما الذي حدث؟"

لم يجب مباشرة.

أخرج هاتفه ووضعه أمام صديقه وصمت.

نظر صديقه إلى الصورة... ثم رفع عينيه إليه.

ابتسم ابتسامة صغيرة فيها مرارة رجل يفهم:

– “سافرت؟”

هزّ رأسه ببطء:

– “هكذا يبدو.”

شرب رشفة من قهوته قبل أن يقول صديقه بهدوء لكنه بوضوح تام:

– “إذن لماذا الحيرة؟
هي حسمت الأمر.”

لم تعجبه الجملة... لا لأنه يرفض منطقها، بل لأنها جعلته يبدو كمن خسر قبل أن يبدأ.

– “الأمر ليس بهذه البساطة.”

– “بل هو بهذه البساطة يا صديقي... أنت رأيت الباب يغلق، لكنها هي من أغلقته. لم تطلب منك البقاء ولا اللحاق ولا الانتظار... هي اختارت.”

ظل صامتًا.

كان يعرف أن صديقه محق جزئيًا... لكن النار لم تنطفئ بداخله بعد.

– “لو كانت خائفة؟”

– “الخوف لا يُعاقَب يا رجل… لكنك لا تستطيع أن تحمل حربها الداخلية وحدك. إن كانت تريدك… لواجهت خوفها، لا أن تسافر منه.”

أسند رأسه للخلف وهو يفكر…

تعلم خلال حياته أن صديقه لا يقول الكلمات ليواسيه، بل ليجعله يرى الطريق كما هو، بلا رتوش.

في تلك اللحظة، في مكان آخر…

كانت هي تغفو فوق مقعد الطائرة بينما قلبها يقظ لا ينام.

أما القديمة فقد كانت تقرأ الصورة بدقة صقر…

صورة واحدة فقط جعلتها تعرف أن شيئًا كبيرًا يحدث الآن.

جلست على أريكتها، وضعت هاتفها جانبًا ثم ابتسمت ابتسامة امرأة تعرف قواعد اللعبة منذ البداية:

“هو لن يمر على الصورة مرورًا عاديًا…

ولن يتجاهلها بسهولة…”

فكرت:

– “لو تدخلت الآن… سيعاند.

سيدافع عما يشعر به… حتى لو لم يعترف بعد.”

ولذلك قررت الأذكى:

الانتظار.

القديمة لم تكن تخاف الصبر…

بل كانت تؤمن أن الصمت أحيانًا هو السلاح الذي يجعل الآخر يقع في المسافة التي لا يعرف كيف يخرج منها.

قالت في داخلها:

– "دعيها تسافر… المسافة ليست فقط بين مدينتين…
المسافة الأكبر داخل قلبه."

التقطت هاتفها مرة أخرى…

مرّت بإصبعها فوق صورته…

ثم تركت الجهاز مكانه وابتسمت بثقة امرأة لم تخسر بعد:

– "دعوه يفكر… وحين يفعل… سيعود إلى منتصف الطريق… وهناك أعرف كيف أستقبله."

وفي الاستراحة…

كان صديقه ينظر إليه ويقول بوضوح لا يحتمل الالتباس:

– "إن لم تكن مستعدًا لحرب الماضي… فلا تقترب من امرأة تخاف منه."

رفع رأسه ببطء…

ولم يجب.

أما داخله…

فكان يدرك:

هو أيضًا خائف...

وهي خائفة...

والقديمة لا تخاف.

وهنا تبدأ المعركة...

ليس بينهم...

بل داخل كل منهم.

ليلة ثلاث قلوب لا تنام

1️⃣ هو... حين دخل الليل بيت روحه

عاد إلى بيته بعد منتصف الليل.

لم يشأ أن يفتح الأنوار...

ترك الغرفة كما هي، معتمة، إلا ضوء خافت يتسلل من مصباح الشرفة.

جلس على المقعد الجلدي بجوار المكتبة.

فرغ هاتفه أمامه...

ووضع يده فوق صدره كمن يحاول تهدئة شيء عصيّ على الهدوء.

لم يزعجه السفر ذاته...

بل الظلال التي تركها السفر خلفه:

سؤال لا يعرف له إجابة:

"هل هربت لأنها خافت مني؟
أم لأنها ظنت أنني لن أحارب من أجلها؟
أم لأنها لا تريد أن أعيد لها ما فعله رجل غيري؟"

لم يجد جواباً.
لكنه شعر لأول مرة أنه في منتصف الطريق وحده:

لا يستطيع التراجع لأن قلبه تحرك.

ولا يستطيع التقدم لأن الطريق انطفأ فجأة أمامه.

نهض وفتح الشرفة رغم البرد.
صب قهوة سوداء بلا سكر كما كان يفعل دائمًا حين يريد أن "يصحو من قلبه لا من عقله".

وقف أمام الليل وقال لنفسه:

"لو تركت هذه القصة الآن... سأظل أعود إليها كل يوم بطريقة أخرى."

ثم عاد إلى الداخل.
جلس إلى مكتبه.
فتح صفحة جديدة في موقع التواصل...
وبدأ يكتب:

“كأن السفر ليس إلى بلاد جديدة…

بل إلى جرح قديم لم يجد من يداويه…”

توقف.

ثم تابع:

“وحدهم الذين نخاف خسارتهم…

هم الذين لا نعرف كيف نكتب لهم، ولا كيف نصمت أمامهم.”

قرأ الكلمات مرتين.

ثم نشرها.

لم يكن يعرف لمن كتب بالضبط:

لها؟

للقلب؟

أم لنفسه كي لا ينسى ما شعر به؟

لكنه شعر بعد الكتابة بقليل من التنفس…

وكأنه أخرج زفرة ظلّت محتبسة منذ رأى صورتها.

ثم أغلق الضوء…

وبدأ يحاول النوم

والليل لا ينام.

2️⃣ الجديدة… بين غيمتين وقلق لا يهدأ

كانت الطائرة تشق سماء الليل.
الركاب نائمون أو متعبون…
أما هي فكانت تنظر إلى لوحة معلومات الرحلة أمامها:

المتبقي: 4 ساعات و17 دقيقة.

تنهدت…
ثم أسندت جبينها إلى الزجاج.

كانت تسمع داخلها صوتين متناقضين:

صوت يقول:
“أنتِ فعلتِ الصواب… كنتِ ستغرقين إن اقتربتِ أكثر… الهروب نجاة.”

وصوت آخر يرد:
“لكنكِ لم تهربي من الماضي… بل من المستقبل… من الرجل الذي أردتِ أن تثقي به…”

قرأت كتابها قليلاً، ثم أغلقت الصفحة.
فكرت:

“هل كان عليّ أن أبقى؟

وهل كان سيحارب من أجلي لو فعلت؟"

اخرجت هاتفها في وضع الطيران…

فتحت صورته…

ثم أغلقتها بسرعة كما لو كانت تعترف بشيء غير مسموح.

همست لنفسها:

– "لو كان الماضي رجلاً… لقتل النساء بغير سلاح."

وتنهدت…

بعد قليل أغمضت عينيها، لكن النوم لم يأتِ بسهولة.

فإن نام الجسد… فالقلب يبقى يقظًا حين تكون المعركة في الداخل.

3️⃣ القديمة… امرأة تتقن الإصغاء للصمت

في منزل آخر…

كانت القديمة على الأريكة، ساقاها مطويتان، شعرها المنسدل على كتفها، وفنجان صغير بين يديها.

لم تكن غاضبة…

ولا حزينة…

بل في هدوء مقاتل يعرف أنه إن أراد أن يربح… فلابد أن يعرف متى لا يقاتل.

قرأت صورة السفر.
ثم قرأت النص الذي نشره لاحقًا.

ابتسمت.

قالت في داخلها:

"هو يتألم... إذن ما زال في المنتصف."

رفعت فنجان القهوة إلى شفتيها، وواصلت التفكير:

– "لو كانت تحكم قلبه تمامًا... لما كتب، بل ذهب خلفها. لكنه لم يفعل... وهذا يعني شيئًا واحدًا: ما زال مترددًا."

كانت ثقتها لا تأتي من الغرور...
بل من معرفتها الطويلة به:

تعرف متى يندفع.

متى يصمت.

ومتى يكتب بدل أن يفعل.

قالت لنفسها:

– “هذا ليس نص رجل حسم… بل رجل فاته القطار ولم يقرر إن كان سيركض خلفه أم يعود إلى المحطة.”

ثم نهضت…
أطفأت مصباح الغرفة…
ورحلت للنوم وهي تبتسم:

“في الغد… تبدأ الحكاية من جديد.”

ختام الفصل

ليلتها:

هو لم ينم لأن قلبه لم يحسم.

الجديدة لم تنم لأن خوفها لم يهدأ.

القديمة نامت… لأن ثقتها جعلت الليل فراشًا هادئًا.

«مساحة الصمت تتسع»

جلس وحده في المقهى الذي اعتاد أن يطرد حيرته داخله…
كوب القهوة البارد أمامه، والكرسي المقابل ينتظر أحدًا لا يأتي.
فتح هاتفه مرة أخرى، الصورة ما زالت على الشاشة:

هي على مقعد طائرة، تنظر من النافذة، وابتسامة صغيرة تُخفي ما لا تقوله.

لم يفهم...
أحقًا قررت السفر؟
أأخطأت هو في قراءة اللحظة؟
أم هي التي آثرت طريقًا لم يحتمل وجوده؟

كانت أصابعه تتحرك فوق الطاولة بلا وعي، وكأنها تبحث عن جملة تشبه ما يشعر به.
لكن الكلمات خانته لأول مرة منذ شهور.

اقترب منه صديقه وجلس دون مقدمات، ثم نظر إلى عينيه نظرة من يعرف ما لا يُقال.

الصديق:
– لماذا كل هذا الاضطراب؟ أنت لست من يتردد عادة.

لم يجب... ظلّ ينظر إلى الشاشة.
اقترب الصديق أكثر ورأى الصورة.

الصديق:
– إذًا... هي اختارت.
لقد أنهت حيرتك بنفسها، لماذا تُصر على أن تبقى معلقًا؟

رفع رأسه ببطء، كمن يحاول أن يشرح شيئًا لا يملك لغته.

هو:

– الأمر ليس بهذه البساطة…

لا أعرف إن كان هذا القرار هروبًا منها أم واقعًا يخصها.

ولا أريد أن أكون متسرعًا أو أن أُحمِّل الصمت أكثر مما يحتمل.

ابتسم صديقه ابتسامة خفيفة تشبه التهكم ولكنها ليست خالية من التعاطف.

الصديق:

– أنت تخاف يا صديقي…

وتُخفي خوفك وراء التحليل.

لو كانت تريدك بالفعل لكانت بقيت، وإن كانت تريدك أكثر لكانت واجهتك قبل أن ترحل.

قالها ثم سكت، تاركًا المجال لكلمات أخرى لو أرادت الخروج… لكنها لم تفعل.

هو لم يغضب، ولم يجد دفاعًا مقنعًا يقدمه.

في زاوية بعيدة من المدينة…

القديمة تجلس أمام لوحة مفاتيحها، تحدّق في الشاشة أيضًا.

صورة السفر أمامها، كما لو كانت تومض ضوء إنذار.

لم تكتب…

ولم تُعلّق…

ولم تسارع لاقتناص اللحظة كما كانت تفعل دائمًا.

تعرفه جيدًا...

تعرف أن الكلمات الآن لو خرجت بتهور ربما تغلق الباب بدل أن تفتحه.

تعرف أنه الآن في حالة هدوء قد ينقلب عنادًا لو شعرتُه بالضغط.

ضحكت بخفوت وهي تقول في سرّها:

– ليس الوقت مناسبًا... دع الأمور تنضج وحدها.

ثم راحت تقلب صفحات سابقة من حديثهما القديم، بثقة من يعرف أن الماضي – إن عاد – لن يعود إلا إليها.

أما هو... فقد رفع هاتفه مرة أخرى.

ضغط على الصورة... كبرها...

حدق في التفاصيل:

انعكاس ضوء المطار على الزجاج، يدها المستندة إلى المقعد، عينان تحملان شيئًا يشبه القرار... أو يشبه الوداع... أو يشبه الاثنين معًا.

أعاد الهاتف إلى الطاولة، وأسند ظهره إلى الكرسي.

اختلط التعب بالحيرة، واختلط الصمت بصوت داخلي يقول:

– هل عليّ أن أتركها ترحل؟

أم أتحدث قبل أن تصبح المسافة أكبر من الكلام؟

لم يجب عن السؤال...

ولم يحسم المشهد...

تركه كما هو... مفتوحًا.

وفي نفس اللحظة...

كانت القديمة تغلق الحاسوب وتبتسم بثقة من يعرف أن الصراع لم يبدأ بعد، وأن تدخّلها – لو حدث – سيكون في اللحظة التي لا يخسر فيها أحد... سواها لو تأخرت.

وهكذا...

توسّعت مساحة الصمت أكثر،

وصار الجميع ينتظر الحلقة التالية من الصراع دون كلمة واحدة إضافية.

«اليوم الأول في مدينة لا تعرف اسمها بعد»

هبطت الطائرة قبل شروق الشمس بقليل، وكانت المدينة مغطاة بطبقة ضباب خفيف يمنح الأشياء شكلًا غير نهائي... كأن المكان نفسه لا يزال يتشكل، مثله مثل مستقبلها.

لم تنم كثيرًا في الرحلة، كانت الأفكار تتزاحم كركاب الطائرة قبل الهبوط.

لكنها، ولأول مرة منذ زمن، لم تهرب منها... تركتها تعبر.

خرجت من المطار، حقيبتها الصغيرة على كتفها، وخطواتها حذرة لكنها ثابتة.

كان الهواء مختلفًا... باردًا لكنه ليس قاسيًا، غريبًا لكنه ليس مخيفًا.

استقلت سيارة إلى الفندق الذي حجزته مؤقتًا، وجلست بجوار النافذة، تنظر إلى الشوارع التي لا علاقة لها بذكرياتها، ولا تحمل ظلال أحد.

ورغم شعور الوحدة، أحست براحة غريبة:

هنا... ليست مطالَبة بشرح نفسها لأحد.

وصلت إلى الغرفة، فتحت الستائر، ثم أخذت نفسًا عميقًا حاولت أن يحل محل كل التردد الذي غادرها جسدًا ولم يغادرها روحًا بعد.

وضعت حقيبتها...

وقفت أمام المرآة.

حدقت في صورتها طويلًا، كمن يسأل:

– هل ما فعلته شجاعة... أم مجرد هروب من مواجهة أكبر؟

لم يكن لديها جواب واضح.

هي فقط تعرف أنها لم تعد قادرة على الوقوف عند منتصف الطريق... لا معه ولا مع نفسها.

نزلت في الصباح لتجربة يومها الأول.

دخلت مقهًى قريبًا، جلست قرب نافذة كبيرة تطل على شارع مزدحم بالمارة وهدوء داخلي لا يشبه المدن العربية التي تركتها.

طلبت فطورًا خفيفًا، وفتحت جهازها المحمول لتراجع رسائل العمل، وتبحث عن فرص جديدة.

لكن الرسائل الحقيقية لم تكن على الشاشة.

كانت في رأسها...

صورته حين كتب...

صوته الذي لم تسمعه لكنه كان يحاورها من وراء الكلمات…

وجملة واحدة تلاحقها منذ مساء أمس:

– لو عدتِ… هل سأكون هناك منتظرًا، أم ستجدينني غادرت؟

أغمضت عينيها قليلًا، ثم تمتمت في سرها:

– وأنا… لو بقيت، هل كنت سأستطيع الدخول إلى عالمه دون أن أرتجف من الماضي؟

لم تكن تخشى الدخول إلى أعماقه…

بل تخشى الدخول إلى أعماقها معه.

بعد الظهيرة خرجت تمشي وحدها في شارع طويل تصطف على جانبيه مبانٍ قديمة بطراز أوروبي ورائحة خبز طازج من مخبز لا يتوقف زبائنه عن الدخول والخروج.

كانت تشاهد الوجوه، وتحاول أن تستشف من ملامح الناس كيف يعيشون، كيف يبدؤون، وكيف ينهون أيامهم، وكيف يواجهون وحدتهم.

هي في مدينة جديدة، لكن الزمن لا يتوقف ليمنحها فرصة للتأمل طويلًا.

استقبلت رسالة من الإدارة حول موعد مقابلة عمل بعد يومين.

ابتسمت.

هناك خطوة أولى…

ولو صغيرة.

وفي المساء، عادت إلى الفندق وأخذت حمامًا دافئًا، ثم جلست على حافة السرير، تحدق في هاتفها.

على الشاشة... لم تفتح رسائله السابقة.

لم تكتب له شيئًا.

لم تعلن بوضوح أنها رحلت...

ولا أنها تنتظر منه كلمة.

هي فقط نشرت صورتها داخل الطائرة أمس...

ثم تركت الباب مفتوحًا دون موعد للعودة.

وقبل أن تنام، كتبت في دفتر صغير جلبته معها:

"اليوم الأول... ليس سيئًا، لكنه ليس جميلًا أيضًا.

إنه يوم بين عالمين، لا أنتمي تمامًا لأي منهما.

سأرى غدًا... هل يزيد وضوح الطريق أم يزيد عدد الأسئلة."

أغلقت الدفتر...

وأطفأت الضوء...

ومع ذلك، لم تهرب الأفكار هذه المرة.

نامت وهي لا تعرف هل وصلت بالفعل...

أم بدأت الرحلة للتو.

«رحلة ليلية على طريق لا يرى نهايته»

لم يكن يحب الطرق الليلية كثيرًا، لكنه اعتادها مع صديقه القديم.

كلما ضاقت الدنيا، أو امتلأت رأسه بما لا يسع الكلام، كانا يخرجان في سيارة صغيرة لا تميز لونها في ظلمة الطريق، متجهين نحو طريق صحراوي طويل لا نهاية واضحة له.

جلس في المقعد الأمامي، يده على الزجاج، ينظر إلى الأضواء التي تمر وتختفي كذكريات لا تريد أن تقف.

وصديقه يقود بهدوء يعرفه جيدًا...

هدوء رجل يعرف متى يصمت، ومتى يبدأ الكلام.

مرت دقائق صامتة، لا يسمع فيها إلا صوت المحرك، وصفير الهواء حول السيارة.

ثم قال صديقه فجأة دون أن ينظر إليه:

– إذن... سافرت؟

لم يجب مباشرة.

تحرك حاجباه فقط، وكأنه يعترف بالخبر دون الكلام.

ابتسم صديقه نصف ابتسامة وقال:

– كنت أعرف. شيء في وجهك كان يقول إنك تنتظر صفعة كهذه.

ظل ينظر إلى الطريق ثم قال بهدوء متماسك:

– لا أظنها صفعة... ربما هي خطوة كانت لابد أن تتخذها.

رد صديقه:

– جميل… ولكن السؤال الحقيقي: خطوة منك إلى أين؟ أم خطوة منها بعيدًا عنك؟

توقفا في أول استراحة.

جلسا أمام أكواب قهوة بلا لمعة، وطاولة من المعدن الخفيف تهتز مع أي حركة.

تنهد صديقه وقال:

– اسمع… أنت الآن في منتصف المعركة. وهي حسمتها بخطوة واحدة. قالت لك دون أن تقول: «لن أنتظرك وأنت واقف بيني وبين غيري.»

صمت…

لكنه لم ينكر صحة الكلام.

استند صديقه بظهره للخلف وأردف:

– أنت كنت تحارب الماضي… وهي خافت أن تُجرّ إليه. كل شخص له طاقته في الاحتمال. ربما هي لم تعد تملك قدرة الوقوف تحت ظل قديم لا يموت.

أدار هو كوب القهوة بين أصابعه وقال بصوت منخفض:

– أعلم… لكنني أيضًا كنت أحارب. كنت أحاول الخروج من الماضي دون أن أجرح أو أظلم أحدًا.

نظر إليه صديقه وقال بصراحة لا تعرف المجاملة:

– وأنت تعرف أن هذا مستحيل. الماضي لا يخرج دون أن يأخذ شيئًا منك… أو يعطي شيئًا من الحريق.

عادت السيارة إلى الطريق من جديد.

المصابيح تشق العتمة، والصمت عاد بينهما، لكنه هذه المرة كان ثقيلًا… كأنه جزء من المحادثة.

فجأة سأله صديقه:

– ماذا عن الأخرى؟

لم يلتفت.

ابتسم ابتسامة متماسكة وقال:

– تراقب… لكنها تنتظر أن أخطئ. إنها تعرف قواعد اللعبة أكثر مني. لو تحركت الآن… سينتهي كل شيء. وإن سكت، ربما تستمر اللعبة من جديد.

ضحك صديقه:

– لعبة؟ أنت تتحدث وكأنك على رقعة شطرنج.

التفت إليه أخيرًا وقال:

– هي كذلك. القديمة لا تخاف الهزيمة... وهذا أخطر ما فيها. لا تخشى الخسارة... لأن أسوأ ما يمكن أن يحدث حدث بالفعل وانتهى. لذلك تقاتل بلا خوف.

توقفا عند استراحة ثانية.

مطبخ صغير، روائح طعام مقلي، وشاشة تلفاز تعرض نشرة أخبار لا علاقة لها بأي شيء.

جلسا على الطاولة وحدهما.

المكان شبه فارغ.

قال صديقه:

– أخبرني شيئًا... لو أنك سبقت في قرارك، لو كتبت لها بوضوح قبل سفرها... هل كانت ستبقى؟

أطال النظر في طبقه قليلًا، ثم قال:

– ربما... وربما لا. هي ليست مجرد فتاة تنتظر كلمة مني. هي تخاف من الحياة نفسها. ربما السفر كان نجاتها من نفسها قبل أن يكون نجاتها مني.

هز صديقه رأسه موافقًا:

– أحيانًا نغادر مكانًا لا لأننا لا نحب من فيه... بل لأننا نخشى أنفسنا إن بقينا.

عادت السيارة إلى الطريق للمرة الأخيرة.

الليل يقترب من نهايته...

وفوقهما نجوم كثيرة لا تهتم بما يجري على الأرض.

قال صديقه فجأة:

– لكن دعني أقول لك شيئًا… هي أنهت حيرتك بقرار واحد. وبقي أن تنهي أنت حيرتك بقرارك.

ابتسم بمرارة:

– أتمنى لو كان الأمر بهذه البساطة.

رد صديقه:

– هو بسيط… لكنه ليس سهلًا.

واصل الطريق النظر أمامه.
لكنه كان يعرف…

أنه لم يكن يهرب من الليل،

ولا من السفر،

ولا من القديمة…

ولا من الجديدة…

بل من نفسه في المنتصف.

والطريق الطويل…

كان مجرد مرآة بلا زجاج،
تعكس ذلك كله دون أن تنطق.

.

«اللبوءة التي لا تنام»

كانت القديمة تجلس أمام شاشة هاتف لا يهدأ،
أصابعها تتحرك بين التمرير والتوقف،
وعقلها يعمل كغرفة عمليات مفتوحة لا تنطفئ أنوارها.

منذ شاهدت صورة الجديدة في الطائرة،
ومنذ قرأت الصمت الذي هبط بعد مغادرتها...
فهمت ما لا يحتاج إلى تفسير:

اللحظة التي انتظرتها اقتربت.
هو الآن في المنتصف...
ومن يقف في المنتصف يتعب، ومن يتعب يحتاج كتفًا يعرفه جيدًا.

لم تنم تلك الليلة.
استلقت على فراشها،
لكن عينيها كانتا مشرعتين كنافذتين في عاصفة.
تتفحص كلماته القديمة،
والجديدة،
وصمته بينهما.

كانت أشبه بلبوءة تقف على مرتفع صخري،

ترى فريستها تترنح قليلًا...

فتدرك أن الوقت ليس للافتراس،

بل للانتظار.

إن انقضت مبكرًا،

انتبهت الفريسة وهربت.

وإن تأخرت...

ربما جاءت لبؤة أخرى أو نمرة غيرها وخطفت اللحظة.

لذلك ظلت مستيقظة،

تنتظر الإشارة التي تخبرها أن الوقت حان.

ذهبت إلى عملها دون نوم تقريبًا.

كانت تجلس على مكتبها بعينين مثقلتين،

تستمع لزملائها دون أن تلتقط الكلمات.

أحيانًا تسهو...

تغفو لدقيقة أو اثنتين،

ثم تستيقظ بارتباك خفيف.

رغم ذلك...

لم تبدُ مهزومة أو مشتتة.

بل كانت في حالة تركيز حاد تشبه التركيز الذي يسبق الهجمة.

في منتصف النهار،

أدركت أن البقاء في المكتب مضيعة للطاقة.

حملت حقيبتها،

واعتذرت بكلمات مختصرة عن صداع مفاجئ،

وغادرت.

وصلت منزلها.

خلعت معطفها ورمته على الأريكة،

ثم وقفت أمام المرآة تنظر إلى ملامحها بإصرار امرأة تعرف أنها لا تزال قادرة على المنافسة.

بدون مكياج ثقيل...

رسمت فقط ما يكفي ليوقظ الأسئلة داخله.

اختارت الصورة بعناية...

زاوية تعرف أنها نقطته الضعيفة:

ثقتها،

أنوثتها التي لا تتصنع،

والنظرة التي تقول:

«لم أنسَ...

ولا تركتُ المكان خاليًا.»

ثم جلست على مكتبها،

فتحت الهاتف،

وقبل أن تضغط «نشر»

توقفت لحظة…

كتبت تعليقًا قصيرًا،

جملتين فقط،

حادتين مثل سهمين خرجا من وتر مشدود:

إن ضاعت خطواتك في زحام الطريق، وتعثر صوتك بين ما تريد قوله وما تخشى البوح به، فاعلم أن مقامك هنا… وأن روحك لم تُخلق لتبحث عن ملجأ غير صدري.

وإن خُيِّل إليك يومًا أن بابي أوصدته في وجهك، فذلك ظلال خوفٍ مرَّ بك، لا حقيقة جمّدتها يداي… فأنا لم أفعل، ولن أفعل، ما دام في القلب نبضٌ يعرفك.

جلست بعدها في صمت.

تعرف جيدًا أنّ الرسالة ستصل إليه،

وتعرف أيضًا أن الجديدة ستراها…

لكنها لم تهتم كثيرًا.

فاللبوءة لا تفكر في انطباع الغابة…

هي تفكر فقط في الفريسة التي تتنفس بين مخالبها دون أن تهرب.

«ثلاثة يشاهدون نفس اللحظة من ثلاث نوافذ مختلفة»

1️⃣ القديمة – بعد النشر مباشرة

ما إن ضغطت «نشر»،

حتى أسندت ظهرها إلى مقعدها،

وشعرت بثقل يسقط عن كتفيها.

لم تكن الصورة مجرد مظهر،

ولا الكلمات مجرد جُملة…

كانت خطوة محسوبة في رقعة شطرنج عاطفية تعرف قواعدها جيدًا.

في داخلها كانت تهمس:

«ها قد وضعتُ قدمي من جديد في مركز الدائرة…

الآن لن يمر الأمر عليه مرورًا عابرًا.»

وضعت الهاتف أمامها،

لم تفعل شيئًا سوى الانتظار…

كصيّادة تعرف أن السهم أصاب،

والوقت وحده سيفصح عن مقدار الإصابة.

2️⃣ هو – حين ظهرت الصورة على شاشته

في تلك اللحظة،

كان جالسًا في سيارته بجوار صديقه في الطريق الليلي المعتاد.

الراديو يعمل بصوت منخفض،

والطريق منبسط أمامه ومتعرج بداخله.

اهتز هاتفه…

فتح الشاشة،

فانزلقت الصورة أمام عينيه:

هي.

نظرتها.

تعليقها القصير.

قرأ السطور ببطء:

«تاهت خطواتك وتلعثمت كلماتك…
تعرف أن سكنك هنا…»

شعر وكأن الكلمات لم تُكتب علنًا،
بل همست في أذنه مباشرة.
ابتسم صديقه وهو يراقب ملامحه:
– رسالة جديدة؟
لم يعلّق…
بل عاد يقرأ مرة ثانية،
وكأنه يحاول اكتشاف ما بين الحروف:
هل هي تنازل؟

استسلام؟

عودة لفتح باب أغلقته أمامه طويلاً؟

أم أنها محاولة أخيرة

قبل أن تخرج الأمور من يدها؟

ورغم أنه لم يكتب ردًا

إلا أن قلبه لم يستطع منع نفسه من أن يتساءل:

«هل ما زال بمقدورها أن تعيدني إلى المنتصف؟

أم أن قلبي بدأ أخيرًا يعرف طريقًا آخر؟»

3️⃣ الجديدة – التي شاهدت الصورة عن طريق الصدفة

كانت تجلس في غرفتها في البلد الجديد،

تحاول مقاومة شعور ثقيل يتسلل إليها منذ هبطت من الطائرة.

فتحت هاتفها تبحث عن شيء يشغلها...

فجاءها الإشعار:

إعلان نشرته القديمة.

ضغطت على الصورة...

قرأت الجُملة...

فهمت بدون شرح.

لم يكن الأمر مجرد تعليق...

بل كانت محاولة انقضاض واضحة:

ليست رسالة حب…

بل خطوة في لعبة نفوذ داخل قلب رجلٍ في المنتصف.

وضعت الهاتف على الفراش،
وأغلقت عينيها للحظة.
كانت تعرف:

كل خطوة تتأخر في الرد عليها…
تُفسَّر في عالمهم كتراجع.

لكنها أيضًا تعرف
أن الدخول في معركة لم تتعافَ من وجعها بعد
قد يُعيدها هي الأخرى إلى نفس الجرح القديم.
همست لنفسها:

«هي تتقن اللعبة…
أنا ما زلت أتعلم الوقوف بدون خوف.»

ورغم ذلك…

لم تحزن.

بل ابتسمت ابتسامة صغيرة،

لم تكن فيها هزيمة...

بل اعترافًا بحقيقة واحدة:

أن القديمة ما زالت تخافها...

ولولا ذلك ما هاجمت.

ثلاثتهم لحظة واحدة... بثلاث مشاعر مختلفة

القديمة:

ترى أنها اقتربت خطوة من استعادة مكانها.

هو:

لم يحسم، لكنه شعر أن الماضي عاد يطرق الباب بإصرار.

الجديدة:

تسمع وقع الأقدام خلفها،

لكنها لا تركض...

بل تلتقط أنفاسها قبل أن تقرر:

هل تدخل المعركة؟

أم تعود لتحمي نفسها؟

كل هذا...

وهو لا يزال في سيارته يراقب الطريق،

غير مدرك أن حياتين كاملتين

تنتظران قراره في تلك اللحظة.

"حديث المقعد الأمامي... حديث القلب وحده"

أدار المحرك من جديد،

وعادت السيارة تشق الطريق الليلي الطويل

وكأنها تسير داخله أكثر مما تسير فوق الأسفلت.

صديقه كان بجانبه،

لكن الوقت لم يعد بحاجة لكلمات.

كان يدرك أن ما يمر به صاحبه

لا يحتاج إلى نصائح بقدر ما يحتاج إلى رحلة صامتة

يواجه فيها نفسه دون عيون ترصده.

أمسك المقود بقوة...

وعيناه معلّقتان أمامه،

لكن عقله عاد إلى الخلف... إلى هناك...

إلى الماضي الذي يرفض أن يموت.

الماضي... الذي ما زال يعرف الطريق إلى قلبه

تذكّر كيف كان...
شابًا يكتب بثقة ويمضي بعاطفته بلا حساب،
قبل أن يتعلم أن القلب إذا كُسر مرة
لا يعود كما كان...
بل يعود ومعه باب لا يُغلق بسهولة
ولا يُفتح بسهولة.

تذكّر القديمَة:
ضحكتها...
دهاءها...
قدرتها على دخول أعقد معاركه النفسية
وهي لا ترتبك لحظة.

تذكّر كيف كانت تعرف مفاتيحه كلها:
كيف يهدأ،
متى يتراجع،
ومتى يستسلم دون قتال.

هو يعرف هذا...
ويعرف أنها في كل مرة تعود إليه

لا تعود فقط بدافع الحنين،
بل بثقة من يعرف أن قلبه
يعود إليها إن تُرك وحده لوقت كافٍ.

ثم ظهرت صورتها… في هذا التوقيت تمامًا

الصورة التي نشرتها الآن…
الكلمات التي أرفقتها…

«تاهت خطواتك وتلعثمت كلماتك…
تعرف أنّ سكنك هنا…»

قرأ الجملة للمرة الثالثة،
ثم أغلق الشاشة ببطء.

سأل نفسه:

لماذا تستخدم هذا القدر من الثقة؟
وكأنها تقول له أمام الجميع:

"أنت مهما ذهبت… ستعود إليّ."

سؤال أشد مرارةً تسلل إلى داخله:

هل هي تقول هذا لأنها تعرفني...
أم لأنها جربتني بما يكفي؟

ثم سؤال أعمق:

هل هي على حق؟

وإن كان قلبي معها...

توقف عند هذه النقطة طويلاً.

إن كان قلبه حقًا ما زال معها،
فماذا يعني كل الذي شعر به مع الجديدة؟

لماذا تضرب صورتها روحه بهذه القوة؟
لماذا شعر بالفراغ حين غابت؟
وبالحيرة حين سافرت؟
وبالألم لأنه لم يُقنعها؟

سأل نفسه بصراحة:

هل أحببتها؟
أم أن جرحي القديم رأى فيها فرصة للشفاء؟
أم أن غروري لم يحتمل أن تخاف مني وتهرب؟

هل كان يريدها حقًا...
أم كان يريد أن يثبت لنفسه
أن الماضي لم يُنهِ قدرته على الحب؟

وإن كانت القديمة تعرفني أكثر مني...

عاد بذاكرته إلى مرات كثيرة
خاف فيها أن يعود إليها...
ومرات رفض فيها أن يراها حتى
رغم أنها لم تكن تشكل خطرًا
إلا على قلبه فقط.

سأل نفسه:

إن كانت تعرفني أكثر مما أعرف نفسي...
فلماذا لم أعد إليها؟

إن كان ما بينهما حبًا لا يموت،
فلماذا في كل مرة يقترب...
يشعر أن العودة ليست خلاصًا
بل هزيمة صغيرة لا يريد الاعتراف بها؟

هل لأنه لم يعد نفس الرجل؟

أم لأن المكان الذي جمعهما
لم يعد قادرًا على احتواء الاثنين معًا؟

وإن لم تكن القديمة... ولا الجديدة...

ازدادت سرعة السيارة قليلًا،
وكأن الطريق يحاول مواكبة أفكاره.

هل هو في الأصل
لم يحسم الماضي
فلا يستطيع الذهاب للمستقبل؟

هل هو في المنتصف
ليس لأنهما تتجاذبانه...
بل لأنه يقف في المنتصف من نفسه؟

نظر إلى كتف صديقه بجانبه،
ثم عاد ينظر للطريق.

فكر في سؤال واحد:

هل أحتاج حبًا الآن...
أم أحتاج أن أعرف نفسي أولًا؟

وللمرة الأولى منذ سنوات

شعر أن مشكلته ليست امرأة...

ولا صورتين...

ولا تعليقين...

بل قلبٌ لم يجد بعد

الساحل الذي يرسو عليه

دون خوف...

ودون أن يخشى الغرق.

وجهان للمشهد

(القديمة)

تجلس أمام الشاشة، الضوء الأزرق يلمع في عينيها، والقلب الذي حفظ طريقه إليه منذ زمن، يعود لينبض على وقع حروف لم تُكتب بعد.

تحدّق في الصورة التي نشرتها... الصورة التي خبأت فيها ابتسامتها المدروسة، تلك التي تشبه "الانتصار الهادئ"...

ثم تعود لقراءة الرسالة التي كتبتها تحتها:

"من يعرف أين يعود قلبه... لا يخشى التيه."

تضغط "نشر"، ثم تسند ظهرها إلى المقعد.

لم تكن تريد استفزازه... أو ربما كانت تريد.

لم تكن تريد أن تظهر أنها ما زالت تعرف نقاطه الخفية... أو ربما كانت واثقة أنها لا تزال الأكثر معرفة به.

هي تعرف:

أنه حين يختلط صوته بالليل... وحين يشرد على الطريق... فإن أول ما يزوره هو ظلالها.

تعرف أنه لا يزال يقيس الآخرين بها، وإن أنكر.

تعرف أنه يحب الطرق الطويلة... تلك التي تمنحه مساحة الهروب من نفسه، والمساحة ذاتها التي تعيده إليها.

وفي داخلها صوتان يتصارعان:

الأول يقول:

"هو لي... وإن ابتعد. هو يعرف ذلك."

والثاني يهمس:

"لكن إن كان ما يزال لي... لماذا لم يعد؟"

تبتسم بمرارة صغيرة.

كم مرة لعبت دور "الواثقة" حتى أصبحت خائفة من انهيار الدور نفسه؟

وكم مرة كتبت له رسائل غير موقعة... وهي تحلم بأن يفهمها دون حاجة إلى اسم؟

تنظر إلى الصورة مجددًا...

وتسأل نفسها:

هل نشرتها لأنها واثقة؟

أم لأنها خائفة من أن تفقد آخر ما تُقنع نفسها أنه ملكها؟

(الجديدة)

وفي مدينة أخرى...

وفي غرفة ليست لها بعد...

تجلس "الجديدة" متعبة من يوم السفر، لكنها لا تستطيع النوم.

ترى منشورها... صورة امرأة أخرى تحمل ثقة وكلمات تبدو كأنها كُتبت على يقين.

تبتسم... لكن تلك الابتسامة ليست سخرية، وليست انكسارًا.

إنها ابتسامة من يعرف أن الحب ليس حلبة مصارعة، وأنه مهما بدا الطرف الآخر مستقرًا... فالعاصفة لا تزال في داخله.

تقرأ الكلمات مرة ثانية...

ثم تفهم شيئًا مهمًا:

القديمة لا تكتب له...

هي تكتب خوفها منه.

وكم يوجعها ذلك...

ليس لأنها تريد انتزاعه منها.

ولا لأنها تبحث عن دعوة لإثبات نفسها في معركة...

لكن لأنها تتساءل فجأة:

“إن كان الماضي بهذه القوة…

فهل أنا في المكان الصحيح؟

هل أنا مجرد صدفة جميلة جاءت متأخرة؟

أم أنني بداية لم تُمنَح الفرصة الكاملة ليثبتها الزمن؟”

تغمض عينيها.

وتتصارع بداخلها مشاعر متناقضة:

جزء منها يقول:

"هو اختار الاقتراب مني… ليس ذنبي أن الماضي لم يغلق بابه."

وجزء آخر يهمس:

"لكنه لم يفتح بابه لي بالكامل بعد… فهل أخطو أم أنتظر؟"

هي لا تخاف من القديمة…

بل تخاف أن يبقى هو واقفًا بين الطريقين.

فهي لا تريد حُبًا تحتاج فيه أن تثبت كل يوم أنها ليست “مجرد مرحلة”.

ليست هنا لتخوض معركة.

هي هنا فقط لتُحب… وإن لم يجد مكانه، فهي تعرف أن الرحيل هذه المرة لن يكون هروبًا… بل حماية لروحها.

(القديمة – مرة أخرى)

تطفئ الهاتف.

تسند رأسها إلى الكرسي.

تقول لنفسها بصوت خافت:

“هو يعرف الطريق إليّ… فلماذا لا يمشيه؟”

ثم يتردد في داخلها صوت آخر:

“وربما… لم يعد يريد هذا الطريق أصلاً.”

(الجديدة – مرة أخرى)

تفتح ستارة الغرفة الجديدة…

تنظر إلى مدينة لا تعرفها بعد، لكنها تشبه الفرص التي لم تُختبر.

تتنفس…

وتفكر:

“ربما لست مطالبة بإثبات أنني الأفضل…

ربما يكفي أن أكون نفسي.”

الخاتمة المؤقتة

امرأتان لا تتواجهان...

ولا تتصارعان...

ولكن كل واحدة تخوض معركتها مع نفسها:

القديمة تخاف أن تفقد ما اعتقدت أنه ثابت.

والجديدة تخاف أن تبقى معلقة في هواء لم يصبح أرضًا بعد.

أما هو...

فلا يزال على الطريق، بين مرايا الماضي وضباب المستقبل...

ولم يكتشف بعد أن القرار الحقيقي لا يتعلق بأي منهن...

بل بقدرته على مواجهة صوته الداخلي قبل كل شيء.

طريقٌ طويل نحو الداخل

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، والسيارة تشقُّ طريقًا صحراويًا ممتدًا تحت سماء صامتة لا يسمع فيها سوى صوت المحرك ونغمة أغنية قديمة تخرج من المذياع بنبرة تشبه الليل أكثر مما تشبه الطريق.

جلس هو بجانبه، لا ينظر إلى الطريق بقدر ما ينظر إلى الداخل.

رسالة واحدة وصورة واحدة كانت كفيلة بإعادة بعثرة هدوئه، وكأن العالم عاد فجأة إلى نقطة كان يظن أنه غادرها إلى غير رجعة.

"من يعرف أين يعود قلبه... لا يخشى التيه."

ترددت الجملة في رأسه بوضوح يُرهقه.

مد يده إلى الهاتف، نظر سريعًا إلى الصورة والعبارات الموجّهة نحوه، ثم أغلقه كأنما تراجع عن لمس جمر لا يُحتمل.

ألقى صديقه نظرة سريعة نحوه، وكان يقود بهدوء، ثم سأله بصوت منخفض:

– لقد تغيّر وجهك منذ لحظات. ما الأمر؟

سكت قليلاً، ثم قال بنبرة تحمل ما بين الاعتراف والارتباك:

– هي... نشرت صورة ورسالة تبدو كما لو كانت موجَّهة إليّ وحدي. كتبت بثقة كأنها ما تزال تعرف كل شيء في داخلي.

تنفّس صديقه بعمق:

– وهل ترى أنها مخطئة؟

ابتسم ابتسامة قصيرة خالية من البهجة:

– لا أعلم... وهذا تحديدًا ما يخيفني.

بين الطريق والأسئلة

تطلّع عبر النافذة.

كانت العتمة تمرّ بجانب السيارة مثل شريط سينمائي، والطريق بدا أحيانًا كأنه لا يقود إلى مدينة، بل يعود به خطوة بعد خطوة إلى أعماق نفسه.

وترددت الأسئلة:

"لماذا تتحدث بثقة؟
لماذا كأنها تدرك أنني، مهما ابتعدت، سأعود إليها؟
ولماذا يخيفني احتمال أن تكون محقّة؟"

ثم جاء السؤال الأصعب:

"وإن كان قلبي ما يزال يميل إليها...
فلماذا شعرت بالخواء حين رحلت الجديدة؟
هل كنت حزينًا لأنها غادرت دون أن تمنحني فرصة كاملة؟
أم كنت حزينًا لأنني لم أستطع إقناعها بي؟
هل ما أشعر به حب حقًا؟
أم أن غروري هو الحاكم في الساحة؟"

أما صديقه، الذي رافقه في الحياة منذ طفولته، فقد صمت، وترك له مساحة التفكير دون ضغط أو نصائح متسرعة.

كان يعرف أن أكثر لحظات الرجال صدقًا لا تحتاج إلى الكلام، بل إلى طريق طويل، وكوب قهوة في استراحة هادئة، وصمت يسمح للحقيقة أن تتضح وحدها.

استراحة الطريق

لمّا مرَّ ما يقارب الساعة، توقفت السيارة أمام محطة هادئة.

جلسا إلى طاولة خارجية من الحديد، بينما ارتفع بخار القهوة في الهواء البارد، وكأن كل شيء في تلك اللحظة مهيأ لاعترافٍ لا بد أن يخرج.

سأله صديقه مباشرة:

– أخبرني... أيّ المرأتين تحب؟

طأطأ رأسه قليلاً، ثم قال:

– قبل أن أجيب عن ذلك... عليّ أن أصالح نفسي أولًا.

رفع صديقه حاجبه:

– بمعنى أنك لا تعرف؟

نظر إليه للحظة ثم قال:

– القديمة تعرفني جيدًا... تعرف زوايا شخصيتي، ضعفي وانكساري، وتفهم لغتي حتى إن لم أنطق بها.
لكن إن كانت تعرفني إلى هذا الحد، فلماذا لا أعود إليها؟
لماذا كلما اقتربت... أتراجع؟

ثم أضاف بصوت خافت:

– الجديدة تشعر بي دون أن أشرح لها الكثير، لكنني لا أملك الجرأة بعد لأطمئنها إلى أنها ليست محطة مؤقتة.

أمسك بكوب القهوة، ثم قال ببطء:

– ربما أنا لست حائرًا بين امرأتين... بل بين رجل كنتُه ورجل أريد أن أكونه.

الحقيقة من خارج القلب

استند صديقه إلى الكرسي، وقال بثبات:

– المرأة التي تعرف تفاصيلك ليست بالضرورة المرأة التي تصلح لإكمال الطريق معك.
والمرأة التي تشعر بك ليست ملزمة بأن تنتظر تحررك من ماضيك كي تبدأ حياتها.

وتابع:

– قرارك ليس بينهما... بل بينك وبين نفسك.
إن لم تحسم طريقك ستظلمهما معًا دون أن تقصد.

كانت الكلمات كقطرة ثقيلة سقطت في سطح ماء ساكن، فأيقظت اضطرابًا لم يعد قابلاً للتجاهل.

لأول مرة قال لنفسه بوضوح:

ليس عليه أن يختار بين قلبين...
بل بين حقيقتين:

أيّ رجل كان؟

وأيّ رجل يريد أن يكون؟

العودة إلى الطريق

عادا إلى السيارة.
أسند رأسه إلى الزجاج، تاركًا الليل يصطدم بملامحه دون مقاومة.

أعاد فتح الهاتف.
تطلع إلى منشور القديمة...
ثم انتقل بعينيه إلى آخر حديث مع الجديدة.

صمت طويل تلاه.

ثم قال في نفسه:

"المسألة ليست في أن إحداهما على صواب والأخرى على خطأ...
المسألة أن شيئًا لم يُحسَم داخلي بعد."

نهاية الفصل

استمر الليل،
وامتد الطريق،

وبقيت السيارة تمضي إلى الأمام...

أما الرحلة الحقيقية التي ينبغي عليه قطعها

فكانت لا تزال داخل صدره،

بين عقل يخشى اتخاذ قرار لا رجعة فيه...

وقلب يعرف، ربما أكثر مما يعترف، أين ينتمي.

مرآتان في ليل واحد

المشهد الأول – الجديدة

عند منتصف المساء، كانت الغرفة الجديدة في البلد البعيد نصف مضاءة بنور خافت صادر عن مصباح في زاوية المكتب.

جلست أمام النافذة تطل على مدينة لا تعرف نبضها بعد، مدينة تشبه دفترًا ما تزال صفحاته بيضاء، تنتظر من يكتب فيها شيئًا يستحق البقاء.

كانت تحاول أن تهدئ عقلها، لكنها لم تستطع.

أمسكت بهاتفها، وعادت تقرأ ما كتبه قبل ليلة من سفرها.

كلماته – التي حملت الكثير ولم تقل كل شيء – أعادت إليها اضطرابًا ظنّت أنها تركته خلفها مع حقائب السفر.

قالت في نفسها:

"لو كنتِ أقوى... لذهبتِ إليه.

لو كنتِ أكثر خبرة بالعلاقة... لأغلقتِ كل الأبواب التي يدخل منها الخوف.

لكنه الماضي... الماضي الذي كنتِ فيه وحدك."

كانت تحاول أن تقنع نفسها أن السفر اختيار عقلاني، خطوة نحو مستقبل مهني أفضل، لكن الحقيقة كانت أكثر هشاشة مما تبدو.

لقد خافت.

خافت من التورط في علاقة لا تعرف حدودها، ولا تعرف مدى قدرة صاحبها على الانغلاق على جراحه السابقة.

ورغم ذلك...

كل شيء فيه يربكها بطريقة لم يربكها فيها أحد من قبل.

وضعت الهاتف من يدها، ثم استلقت على السرير ليلاً، تحاول فهم أمر واحد:

"هل رحلت لأنني لا أثق بقيامه من تحت ركامه؟

أم لأنني لا أثق بأنني أستطيع أن أسانده دون أن أنهار معه؟"

ورغم أنها لم ترَه منذ أيام...

إلا أن صورته – بنظرته التي يخفي فيها أكثر مما يظهر – كانت لا تزال معها، كأنها تمشي معها في الطرقات والمكاتب والمطارات.

شيءٌ فيها يريد الاقتراب...

وشيء آخر يمد يده نحو بابٍ مغلق خشية السقوط.

المشهد الثاني – القديمة

في الوقت نفسه تقريبًا، كانت هي في بيتها القديم، جالسة أمام المرآة، وصورة جديدة لها تضيء شاشة هاتفها بعدما نشرتها منذ دقائق.

نظرت إلى الصورة بحدة أنثى تعرف سلاحها جيدًا.

كانت الصورة مدروسة؛ ليست مجرد لحظة عابرة، بل رسالة مطوّلة بلا كلمات.

ثم أعادت قراءة التعليق الذي كتبته:

“إن تاهت خطواتك وتلعثمت كلماتك،

تعرف أن سكنك هنا…

وأن روحك لن تجد ملاذًا غيري.”

كانت تعلم أنه سيراها.

وتعلم أن الصورة والعبارات ستسقط في مكان حساس، تمامًا كما أرادت.

فالقديمة لم تكن تخشى الهزيمة…

لأنها تعرفه.

تعرف نقاط ضعفه.

وتعرف أنه، مهما قاوم، يحمل شيئًا منها لا يستطيع التخلص منه بسهولة.

قالت لنفسها:

“ربما ظن أنه يستطيع النهوض دوني،

وربما ظهرت أخرى تمنحه ما كنت أمنحه…

لكن قلبه لا يخون تاريخه.”

لم تكن غيورة بالمعنى الساذج للكلمة…

بل كانت مقاتلة.

تعرف أن مواسم استرداد القلوب لا تتم بالصراخ، بل بالصبر وحسن توقيت الطعنة.

وبينما كانت الجديدة في فراشها تحاول التخلص من ثقل السؤال، كانت هي تبتسم بثقة:

“سيقرأ…

وسوف يتذكر.”

ثم أغلقت هاتفها ببطء، وألقت بجسدها على الأريكة، وهي تشعر أنها تقدّمت خطوة صغيرة… لكنها صحيحة.

المشهد الثالث – الجديدة من جديد

رن هاتفها بإشعار.

كانت ما تزال مستيقظة رغم التعب.

فتحته بلا اهتمام…

ثم جمدت للحظة.

لقد رأت منشور القديمة.

لم يكن موجّهًا لها…

لكنها شعرت بأنه موجّه إليها تمامًا.

قرأت الكلمات، وفهمت الرسالة.

لم تكن ساذجة…

ولا ضعيفة.

عرفت أن الصورة لم تكن مجرد صورة…

وأن العبارة لم تكن مجرد كلمات.

الحب القديم عاد ليمد أصابعه بذكاء خبيث…

وضعت الهاتف على صدرها، وكأنها تستجمع أنفاسها، ثم قالت لنفسها:

"هي لا تخيفني…

لكن الماضي هو الذي يخيفني."

ثم أضافت بصوت داخلي منخفض:

"وهل أستطيع أن أقاتل من أجل رجل يقاتل نفسه قبل أن يقاتل العالم؟"

كانت تعرف أن آخر شيء تحتاجه هو أن تكون مجرد جولة جديدة في حرب ليست حربها.

لكنها أيضًا…

لا تستطيع تجاهل إحساس آخر:

"لو لم يكن مهمًا… لما أصابتني رسالتها بهذا القدر من الألم."

المشهد الرابع – القديمة من جديد

فتحت القديمة هاتفها مرة أخرى بعد دقائق.

لم تنم.

كانت تنتظر.

لم ترَ منه أي تفاعل بعد...

لكنها لم تنزعج.

فحين يعرف صيادو الغابات أن الطريدة أصيبت...

لا يركضون خلفها، بل ينتظرون سقوطها.

قالت في نفسها:

"لقد هاجمته أصعب نقطة فيه... فكرة أنه ما يزال لي.

وهذه وحدها كافية لإعادته إلى منتصف الدائرة."

خرجت إلى الشرفة...

نظرت إلى المدينة...

وابتسمت في الظلام.

هي لا تتقن الفوضى...

هي تتقن الحساب.

المشهد الخامس – بينهما

في مكان بعيد، كانت الأولى تستند إلى النافذة وتحاول أن تنام.

وفي مكان آخر، كانت الثانية تجلس أمام المرآة بثقة ليلية متماسكة.

كلتاهما في حالة صراع...

لكن الفرق كان واضحًا:

الجديدة تقاتل خوفها من المستقبل.

القديمة تقاتل لاستعادة الماضي.

أما هو...

فكان في مكان ثالث تمامًا...

لم يسمع هذا الصراع...

لم يرَ هذه المعارك...

لكنه كان في تلك اللحظة

النقطة التي تتقاطع عندها كل الطرق.

ليلٌ يلتفت إليه من ثلاث جهات

المشهد الأول – هو: الطريق الذي لا ينتهي

كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل عندما خرج من بيته، وكأن الهواء البارد هو الشيء الوحيد القادر على ترتيب فوضاه الداخلية.

لم يخبر صديقه بشيء... اكتفى برسالة قصيرة:
"هل أنت مستيقظ؟ الطريق يحتاج رفيقًا."

وبعد دقائق كانا يجلسان في السيارة، محركها يعمل بهدوء، والمدينة خلف زجاجها تبدو كأنها تنام بلا أحلام.

انطلقا في الطريق السريع، الأضواء البيضاء تعبر فوقهما كأنها شرائط ضوء تقيس مدى اضطرابه.
لم يتحدث في البداية، وصديقه – الذي يعرفه منذ سنوات – لم يضغط عليه بالكلام.
فالصمت أحيانًا هو اللغة الوحيدة التي تكشف ما لم تكشفه الكلمات.

وبعد مسافة طويلة قال أخيرًا:

"سافرت."

لم يحتج صديقه أن يسأل من هي.
الاسم كان حاضرًا في كل ليلة أخيرة، وفي كل صمت طويل.

ردّ بهدوء:

"أظن أنك علمت أنها سترحل قبل أن تخبرك هي."

لم يجب.
نظر إلى الطريق الممتد أمامهما، ثم قال بصوت منخفض:

"كنت أعرف... لكنني لم أتوقع أن يكون الرحيل بهذا الألم."

توقف للحظة، ثم أضاف:

"أم أن هذا الألم ليس عنها... بل عني أنا؟ عن عجز قديم يعود؟"

صديقه اكتفى بأن زاد من فتح النافذة، ليدخل هواء الليل وكأنه يريد تهدئة احتراق داخلي لا يُطفأ بسهولة.

ثم سأله بصراحة:

"وهل غيابها كشف لك حبًا... أم كشف غرورًا مجروحًا؟"

لم يجب سريعًا.
كان السؤال كحجر وقع في بحيرة راكدة، أخرج قاعًا لم يتوقع ظهوره.

المشهد الثاني – القديمة: صيدٌ في الظلام

في اللحظة نفسها تقريبًا، كانت القديمة مستيقظة، تتظاهر بالانشغال، لكنها في الحقيقة تنتظر ما سيأتي من جهته.

وضعت هاتفها أمامها على الطاولة، تنظر إليه كما ينظر صياد محترف إلى فخّ وضعه بعناية.

كانت متيقّنة أنه رأى الصورة.
وربما قرأ الكلمات مرة، ومرتين، وثلاثًا.

وقفت أمام المرآة ومررت يدها على شعرها، كما لو أنها تتهيأ لاستقبال انتصار داخلي.

قالت في نفسها:

"لن يرد. أعرفه.
سيصمت... وهذا هو الصوت الحقيقي الذي أحتاجه الآن."

ثم ابتسمت ابتسامة دقيقة، تحمل مزيجًا من الثقة والخبرة والدهاء.

"الصمت علامة ارتباك... والارتباك هو أول الطريق إليّ."

لكن رغم ذلك، كانت عيناها تحملان قلقًا خفيًا، ذلك القلق الذي لا يعترف به الصياد بصوت مرتفع.
كانت تعرف أن هناك أخرى...
وأن الغياب كان خطوة جريئة منها.

لكنها أقنعت نفسها:

"السفر ليس هروبًا منّي، بل هروب منه.
ومن يهرب من نفسه... يعود إليها في النهاية."

ثم أمسكت هاتفها واستعادت النظر إلى صورتها المنشورة، كأنها تستمد منها قوة إضافية.

المشهد الثالث – الجديدة: مدينة غريبة وقلب مألوف

أما الجديدة فكانت مستيقظة هي الأخرى، في غرفة الفندق الصغيرة التي كانت تحاول أن تمنح روحها لحظة استقرار.

كانت نافذة الغرفة تطل على شارع مضاء، والبرد يطرق الزجاج وكأنه يريد الدخول.

جلست على أرض الغرفة قرب السرير، ووضعت رأسها على ركبتيها.
كانت تحاول أن تفهم مشاعرها، لكن المشاعر كانت تتزاحم بلا نظام:

الاشتياق

الخوف

صدى الكلمات التي كتبها

وطعنة الصورة التي نشرتها القديمة

رأت كيف ظهرت الصورة على صفحته...
وكيف صمت هو،
وكيف انقسم قلبها بين سؤالين:

"هل صمته انكسار... أم تردد؟
وهل أنا مستعدة للدخول في حرب لم أخترها؟"

مرّت يدها على وجهها كما لو أنها تمسح أثر يوم طويل، ثم اقتربت من النافذة، وأسندت كفّها إلى الزجاج البارد.

قالت لذاتها بصوت داخلي خافت:

"أنا لا أريد أن أكون بطلة معركة بين اثنين،
ولا أن أُقاس بأحد،
ولا أن أورّث خوفًا جديدًا لرجلٍ لم يخرج بعد من خوفه القديم."

لكنّ القلب...
القلب كان يملك رأيًا آخر.

كان هناك شيء فيها يضيء كلما تذكرت صوته وهو يكتب، ودهشته في أول مرة أدرك أنها تراه بطريقة لم يرَ نفسه بها من قبل.

قالت:

"ما زلتُ أسمع ارتباكه...
وأشعر أنني تركته في منتصف الطريق."

لكنها تذكرت أيضًا أنها كانت تخشى أن تسقط في بئر لا قاع له.
خافت أن تستيقظ يومًا وتجد نفسها امتدادًا لامرأة أخرى، لا بداية جديدة.

لأول مرة منذ وصولها...
اغرورقت عيناها قليلاً، ليس حزنًا خالصًا، بل اختلاطًا بين كل ما هو متناقض.

المشهد الرابع – هو: حين يختلط الطريق بالذاكرة

عاد الحديث بينهما في السيارة بعد صمت طويل.

قال لصديقه:

"رأيت الصورة."

هزّ صديقه رأسه وهو يقود:

"وكيف شعرت؟"

أجابه:

"كأنها تقول إنها تعرفني… أكثر من أن أعرف نفسي."

ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة:

"والأغرب أن جزءًا مني صدّقها."

صديقه لم يبتسم.
قال بوضوح:

"هذا لأنها تعرف صورتك…
أما الجديدة فتعرفك."

توقف الكلام.

كأن هذه العبارة قطعت الطريق إلى نصفين.

ورغم أنه لم يقلها بصوت مرتفع...

إلا أن فكرة واحدة اشتعلت في داخله:

"وهل أنا مستعد لأن أكون معروفًا... لا محفوظًا؟

أن أبدأ... لا أن أعود؟"

المشهد الخامس – الظلال تتلامس

في لحظة واحدة، في مدن بعيدة ومتباعدة،

كانت كل واحدة من المرأتين ترى الصورة نفسها من زاوية مختلفة،

وكان هو يقود في ليل طويل لا يعرف نهايته.

الجديدة ترى الماضي كوحش يتربص،

وتخاف من مستقبل لم تتعلم لغته بعد.

القديمة ترى غياب الجديدة فرصة،

وصمته بوابة،

وتاريخه معها هو الحبل الذي ستشده حين يحين الوقت.

وهو يرى نفسه واقفًا على حدود طريقين:

واحد يعرفه حتى الهلاك،

وآخر يخيفه حتى الأمل.

مرآتان تتقابلان ولا تلتقيان

(الجديدة)

لم تكن تتوقع أن يبدأ يومها الأول بمزيج غريب من الخفة والثقل؛ خفة المكان الجديد الذي يَعِد بما لا تعرفه، وثقل الوعي بأنها تركت خلفها شيئًا لم تكتمل ملامحه.

جلست قرب النافذة في الغرفة الصغيرة التي ستسكنها مؤقتًا، تراقب حركة النهار وهي تتداخل مع ضجيج مدينة لا تعرف اسم شوارعها بعد، وتشعر رغم ذلك بشيء يشبه الانتماء المؤجل.

لكن الهدوء لم يَدُم طويلًا.

بينما كانت تعيد قراءة رسائلها القديمة، ظهر إشعار جديد. صورة... ثم كلمات. كلمات تعرف صاحبَتها جيدًا.

لم تحتج إلى تفكير طويل لتدرك أن الرسالة ليست مجرّد بوح، بل سهم موجّه بعناية قاتلة.

ابتسمت ابتسامة لا تشبه الفرح، وقالت في سرّها:

"إذن... تبدأ المعركة الآن."

عرفت أن القديمة لا تتحرك اعتباطًا، وأن ظهورها في هذه اللحظة تحديدًا لا يمكن أن يكون مصادفة. كانت تعرف كيف تختار الوقت الذي يترنّح فيه توازنه، وكيف تُلقي كلمة قادرة على إشعال تردده أو إطفائه.

لكن الجديدة لم تخف.

قالت لنفسها:

"إن كان سيختارها فلن تمنعه رسالة، ولن تمنعه صورة. وإن كان سينسحب مني لأنها اقتربت، فليكن... على الأقل سأعرف أنني لم أخسر إلا وهماً."

ومع ذلك... لم تستطع إنكار الوخزة الخفيفة التي تسربت إلى قلبها.

الوخزة التي تقول إن أحدًا ما هناك، في مدينة أخرى، يحاول انتزاع ما لم تُمنح هي فرصةً لتأكيده أو نفيه.

ورغم ذلك، رفعت رأسها نحو السماء الرمادية وقالت:

"لن أعود الآن. لن أهرب. سأختبر نفسي قبل أن أختبره."

(القديمة)

كانت جالسة أمام المرآة، كأنها تستعيد ملامحها لا لتتجمّل، بل لتتذكّر ما فقدته يومًا وما قد تستعيده الآن.

لم تنم ليلتها، ولم تذق راحة العمل، ولم تكن متأكدة تمامًا إن كانت مدفوعة بالحنين أم بالغيرة أم بالخوف من أن يُغلق الباب هذه المرة من جهته هو.

وحين نشرت الصورة، لم تكن تطلب عودته صراحة.

كانت تختبر نبضه...

هل لا يزال يرى فيها ملاذًا؟

هل يخاف فقدانها كما تخاف هي أن ينسلّ من بين أصابعها؟

كانت تعرف أنّه رجل يتوق إلى الطمأنينة ويهرب منها في اللحظة ذاتها، وأن اقتراب غيرها منه قد يُسقط ما بنته معه من لغة صامتة لم يفضحها الزمن.

وحين رأت تفاعلَه الصامت... ذاك التوقف الطويل عند الصورة... تلك القراءة المتكررة للكلمات...

أدركت أنها أصابت شيئًا فيه.

فهمت من ارتباكه أنّها لم تُخطئ التوقيت.

وقالت لنفسها بثقة لاذعة:

"إن كان لا يزال يبحث عن نفسه، فأنا آخر مكان عرف فيه ملامحه. سيعود."

لكنّ شيئًا آخر تسلل إلى داخلها...

خوفٌ خافت أن تكون ثقتها مجرد قناع، وأن يكون ما تراه انتفاضة من الماضي لا أكثر.

ثم همست لنفسها:

"إن لم يعد الآن، فلن يعود أبدًا."

لكنها لم تستطع الاعتراف بذلك جهارًا.

(الجديدة)

حين قرأت كلمات القديمة، لم تغضب.
بل شعرت كأنها تنظر من أعلى جبل إلى مشهد تعرف تفاصيله مسبقًا.
قالت:
"هذا ليس نصيبًا يُنافس عليه، بل روحٌ تتأرجح. وإن كان قلبه محتجزًا بين ماضيه ومستقبله، فلن أمدّ يدي إليه لأضاعفه."

ومع ذلك...
كانت تختبر نفسها كما لم تفعل من قبل.
هل رغبتُها فيه رغبة قلب؟ أم رغبة انتصار على شيء يهددها؟
هل حزنت لأنها سافرت من أجله؟ أم لأنها سافرت دون أن تسمع منه جملة واحدة تُبقيها أو تدفعها؟
كل سؤال كان يفتح سؤالًا آخر، حتى بدا لها أنها لا تهرب من بلد، بل من طبقات داخلها لم تكتشفها بعد.

(القديمة)

وفي تلك اللحظة، بينما كانت تراقب أثر رسالتها، خطر لها سؤالٌ لم تكن مستعدة لمواجهته:
"إذا عاد... هل أريده حقًا؟ أم أنني فقط لا أريد أن تملك غيري ما تركته أنا؟"
وشعرت بوخزة تشبه الجرح القديم، فوضعت يدها على صدرها وقالت:
"لا، لستُ أنانية... أنا فقط لا أحب أن يُغلق الباب دوني."

لكنها تعرف في الأعماق أن جزءًا منها يقاتل فقط ليبقى حاضرًا في مشهده، لا ليشاركه حياته.
وجزءًا آخر... لا يزال يحبّه بطريقة لا تشبه الحب، بل تشبه الاعتياد الذي يصعب التخلص منه.

(الجديدة)

في الليل، وعند نافذة الغرفة نفسها، قالت بهدوء:

"لن أقاتل. لن ألهث. إن كان لي فسألتقيه، وإن لم يكن... فلن يمرّ قلبي خرابًا على بابه."

(القديمة)

وفي الليل ذاته، في غرفة أخرى، قالت:

"لن أنتظر طويلًا... لكنني لن أتراجع الآن."

مرايا لا تعكس الصورة ذاتها

أولًا: القديمة ـــ امرأة تفتح بابًا لا تُغلقه الريح

لم تكن القديمة تنظر إلى صورتها التي نشرتها كمن يُعجب بنفسه، بل كمن يُجرّب وزن حضوره في العالم، وقدرته على تحريك قلبٍ ظنّت أنه صار عصيًّا على النداء.

جلست في غرفتها كما لو كانت في مسرح صامت، الضوء يهبط على وجهها بطريقة تمنحه صلابة لا يعرفها إلا من خبر الألم الطويل، والانتظار الذي يتجاوز الرغبة ليصل إلى ما يشبه الإيمان المؤذِي.

في داخلها كان ينهض اعتقاد قديم—اعتقاد بأن الرجل الذي أحبته لا ينفلت من يدها تمامًا، وأنه، مهما حاول الهرب، يحمل شيئًا من صوتها في داخله، شيئًا صغيرًا لا هو حب ولا هو ذكرى، بل خيط غير مرئي يشده نحوها حين تتكلم بثقة، أو حين تترك صمتها يطول.

ولذلك، حين كتبت رسالتها، لم تكتبها لتستدر عطفًا، ولا لتستجلب حنينًا، بل كتبتها لأنها تريد اختبار مدى حضورها في روحه الآن.

كانت تتخيّل ارتباكه عند قراءة الكلمات، وتخاف في الوقت نفسه من احتمالية أن تمر الجملة أمامه مرور الغبار على زجاجٍ مغلق.

كانت تثق بأنها تعرفه: يعرف نقاط ضعفه، مواطن تردده، طريقتَه في الاستجابة للجروح القديمة، وقلقه من الدخول في مستقبل قد لا يحتمله.

ومع ذلك، كانت تشعر بأن هناك قلقًا جديدًا لم تعهده...

قلقًا جعل صورتها هذه المرة رهانًا لا مجرد محاولة.

ثانيًا: الجديدة — امرأة تشعر بالعالم وكأنه يراقب نبضها

في المدينة الأخرى، كانت الجديدة تعيش يومها الأول كما لو أنها تقف على أرضٍ لا تعرف ميلانها.

الضوء هنا مختلف، الهواء أكثر قسوة، والوجوه تمرّ أمامها بلا ملامح، كأنها أطياف تعبر مشهدًا لا يخصّها.

لكن ما أثقل يومها لم يكن المكان الجديد، بل الفكرة التي لحقت بها على متن الطائرة:

هل كانت تهرب منه... أم تهرب من نفسها التي بدأت تتغير بسرعة لم تفهمها؟

كانت تتحرك ببطء، تتناول قهوتها ببطء، تقرأ ببطء، وتتوقف عند كل فكرة كما لو كانت تحمل إشعارًا خفيًا من قلبها.

لم تكن متأكدة هل ما يفعله—ما يكتبه، ما يلمّح به—هو إعلان رغبة أم مجرد حنين عابر يضعها في طريقه ثم يتجاوزها.

وفي الوقت نفسه، كانت تدرك أنها الوحيدة التي فزِعت من اقترابه، وأن سفرها لم يكن طموحًا بقدر ما كان حمايةً لنفسٍ تخاف أن تُكسَر من جهة تعرف أنها ما زالت طرية ككائن يخرج من شرنقة.

ولذلك، حين وقعت عيناها على صورة القديمة ورسالتها، شعرت بتقلّصٍ داخلي يشبه صفعة غير مباشرة.

لم يغضبها الأمر، بل أصابها بشيء أعمق من الغضب: الوعي بأن معركتها ليست معه فقط، بل مع امرأة تعرفه أكثر مما تعرفه هي الآن.

لكنها، للمرة الأولى، أدركت أنها لا تريد الهروب...
إنما تريد فقط الوقت الذي تحتاجه لتقف بثبات حين تلتقي العاصفة.

ثالثًا: هو — رجل يحاول فهم صدى قلبه قبل أن يفسّر الصوت

كان يقود السيارة مع صديقه، لكن الطريق بدا أطول مما هو عليه دائمًا.
هواء الليل يضرب زجاج النافذة، والموسيقى تتبدّل دون أن يستمع إليها فعليًّا.
وفي داخله كانت تتصارع صورتان: الجديدة في رحلتها، والقديمة في رسالتها.

كان يشعر أنه يقف في منتصف جسر، وتحت الجسر نهران يجريان في اتجاهين متعاكسين.
كل منهما يغريه بالهبوط، وكل منهما يهدده بالغرق.

لم يسأله صديقه كثيرًا؛ اكتفى بأن قال له جملة واحدة:
"من يختار الرحيل لا يترك وراءه بابًا مفتوحًا... إلا إذا كان خائفًا من العودة، لا منك، بل من نفسه."

هذه الجملة مزّقت شيئًا في داخله.
هل رحيل الجديدة كان خوفًا من نفسه أم منه؟
وهل تشبث القديمة ليس شوقًا له، بل شوقًا للنسخة التي تعرفها عنه؟

وعندما شاهد صورة القديمة ورسالتها، شعر بشيء غامض...
ليست رغبة في العودة، وليست رفضًا صريحًا.
بل دهشة من ثقتها، من طريقة حديثها كأنها لا تزال تحمل مفاتيح قلبه.
أزعجه هذا الشعور لأنه رأى فيه احتمالًا لم يفكر به:

ربما كانت القديمة تعرف عنه شيئًا أخفاه عن نفسه.

لكن السؤال الذي ظلّ يضرب صدره بقوة كان واحدًا:

إذا كانت تعرفني أكثر مما أعرفني... فلماذا، رغم كل ذلك، لم أعد إليها؟
ولماذا ارتجف شيء في داخلي حين سافرت الجديدة؟

خاتمة الفصل

امرأتان لا تعرفان بعضهما، ورجل لا يعرف أيّ جزء من قلبه يصدّق.
امرأة تبني ثقتها على تاريخ مشترك، وأخرى تبني خوفها على جرح قديم.
وهو...
يقف بينهما، لا كمن يختار، بل كمن يحاول أن يفهم أي الطرق يؤدي إليه قبل أن يؤدي إلى أيٍّ منهما.

حين يكتب البحر بلغته

أولًا: هو — كتابة تشبه العاصفة

في تلك الليلة، بعدما هدأت الطرق ونام صديقه في المقعد المجاور، كان هو يجلس أمام نافذة غرفته كمن يجلس أمام تاريخ طويل لا يعرف من أين يبدأ في تفكيكه.
فتح الصفحة البيضاء، لكنه لم يكتب ليُفهم، بل كتب كمن يفرغ طبقة سرّية من روحه لم يعرف أحد أنها موجودة.

كتب جُملًا لا تنتظم في مجاز مألوف، ولا تتعاون مع المعنى بسهولة:
جُمل تتوازى وتتصادم، كأنها أمواج لا تبحث عن شاطئ، بل تبحث عن نفسها.

لم يُشر لأحد، لم يسمّ أحدًا، لم يلمّح إلى الحاضر، ولم يرجع إلى الماضي.

بل كتب عن رجلٍ يشبه البحر:

عن عمق لا يُقاس،

وعن مياه تتلوّن بالشمس لا بالعين،

وعن أسرار لا تُكشف لمن يسبح فوق السطح، مهما طال مكوثه.

كان يريد أن يقول شيئًا واحدًا، لكنه لم يستطع أن يقولها مباشرة:

إنه ليس الجائزة التي تتصارع عليها امرأتان.

هو سؤال، وليس جائزة.

وعلى من تقترب منه أن تجيد الغوص، لا التوقع.

وعندما نشر النص، شعر بشيء يشبه الخفة... وبشيء يشبه الخوف أيضًا.

لأول مرة كتب بحرية كاملة، دون أن يحسب ردود فعل أحد.

ثانيًا: القديمة — امرأة تواجه نصًا لا تعرف طريقه

حين قرأت القديمة النص، توقفت عنده طويلًا.

للمرة الأولى منذ عرفته، شعرت بأن لغته تبتعد عنها، لا لأنها غامضة، بل لأنها ليست موجهة لأحد.

كان النص أقرب إلى اعتراف داخلي، إلى شيء لا يُستخدم كسلاح أو رسالة، بل كقلب جرى وضعه على طاولة دون قصد.

حاولت أن تبحث في الجمل عن ظلّها، عن أثرها، عن أي كلمة تعيد إليها يقينها القديم بأنها تفهمه أكثر مما يفهم نفسه.

لكنها لم تجد شيئًا.

لا نبرة حنين، ولا شوق، ولا رفض، ولا مقاومة.

كل ما وجدته نصًّا...
نقيًّا من تاريخها معه.

وهذا ما أقلقها.

لأنها لطالما اعتقدت أنها تعرف مفاتيحه، ولكن النص بدا كمن يغيّر الأقفال جميعًا.
كانت الكلمات تشبه بابًا جديدًا فتحه لنفسه، بابًا لا تشبه مفاتيحه أي مفتاح حملته له في الماضي.

قالت في داخلها:
"لم أقرأه هكذا من قبل... لم أقرأه خارج نطاقي."

وشعرت للحظة أن اللعبة لم تعد كما كانت، وأن قوتها الحقيقية لم تعد نافعة أمام رجل يكتب كي يكتشف نفسه لا كي يعود إليها.

ثالثًا: الجديدة — امرأة ترى في النص لغزًا لا تجرؤ على حله

في المدينة البعيدة، كانت الجديدة تقرأ النص وهي تجلس في مقهى مضاء بنور أصفر خافت.
لم تكُن تبحث فيه عن صورة القديمة، ولا عن ذكرى، ولا عن دعوة لها.
كانت تقرأه كما يقرأ طفلٌ صفحة من كتاب لا يفهم لغته لكنه يشعر بثقلها.

الكلمات أصابتها بارتباكٍ شديد:
هل هو يخاطبها؟
هل يقول لها شيئًا لا يريد أن يصرّح به؟
أم أنه يحاول أن يبعد نفسه عنها بطريقة نبيلة؟

أم أنه يكتب للقديمة بلغته الخاصة؟

لكن شيئًا آخر كان ينهض داخلها:
الوعي بأنه يملك عوالم لا تعرفها بعد.

وهذا الشعور أخافها وأغراها في الوقت نفسه.
أخافها لأنها اعتادت العلاقات التي تُفهم من السطر الأول،
وأغراها لأنه جعلها تدرك أنها أمام رجل لا تكشفه الكلمات، بل يكشف نفسه حين يريد فقط.

كانت تضع يدها على فنجان القهوة، وتهمس لنفسها:
"إن كان هذا جزءًا منه... فكم يحتاج من الشجاعة المرء ليقترب أكثر؟"
ثم خطر لها سؤال آخر:
"وهل أنا مستعدة للاقتراب من بحرٍ لا يقدّم خرائطه لأحد؟"

رابعًا: هو — الرسالة المخفية التي لم يقلها أحد

بين قراءته لتعليقات الآخرين، وردود الأفعال المتباينة، كان يشعر بشيء يزداد وضوحًا:
لقد أراد أن يضع الجميع في المسافة نفسها.

لا القديمة فوق،
ولا الجديدة تحت،
بل الجميع خارج حدوده الداخلية التي لم يسمح لأحد بدخولها بعد.

كان يكتب ليقول:

"أنا لا أُختصر.
لا يُعاد تشكيل ملامحي حسب رغبات أحد.
ولا تُقرأ روحي كما تُقرأ صفحة من رواية."

أراد أن يقول للجديدة:
"إن كنتِ تخافين الغرق، فاعرفي أولًا عمق الماء."

وأراد أن يقول للقديمة:
"ما عرفتِه عني كان فصلًا… وليس الكتاب كله."

لكن ما لم يقله ولم ينتبه إليه أحد هو الشيء الأكثر أهمية:
أنه كان يكتب عن نفسه، لنفسه.
وكان يطلب ـــدون أن يقول ذلكـــ أن يُرى كما هو، لا كما يريده الماضي أو ينتظره المستقبل.

خاتمة الفصل

نصّه لم يكن رسالة إلى امرأة.
كان إعلان هوية.
رسالة إلى العالم مفادها:

"أنا البحر…
لا السطح الهادئ، ولا الشاطئ السهل.
ومن أراد الاقتراب، فليجيد الغوص…
وليعرف أن في أعماقي ما لن يقرأه أحد."

ولذلك ارتبكت القديمة.

وخافت الجديدة.

وبقي هو للمرة الأولى...

في مكان لا يعرفه أحد إلا هو.

حين بدأ البحر يتكلّم بلا شاطئ

كان الليل يهبط ببطء، كمن يبحث عن مكان يضع فيه رأسه.

جلس هو أمام نافذته، وفتح صفحة جديدة، ثم أخذ يكتب جملاً كأنها تُنتزع من طبقاتٍ بعيدة في روحه؛ جملًا لا تشبه ما اعتاد أن يخطّه، ولا تحمل أيّ نبرة تعرفها إحداهما.

كانت الكلمات تتدفّق بلا عنوان، بلا مخاطَب محدد، بلا مرفأ يقود إلى المعنى:

«لا يطلب البحر من العابرين أن يفهموه، يكفيه أن يبقى هو... وأن يبقوا هم مؤقتين.»

«من لا يعرف العمق، سيظنّ الظلّ قاعاً.»

«وللبحر ذاكرة... لكنها لا تشبه ذواكر البشر، فهو لا ينسى لكنه أيضاً لا يحتجز.»

كتب ذلك وكأنه يترك إشارات لا يريد لأحد أن يلتقطها كاملة.

كان غامضاً عن عمد، ممعناً في الاحتفاظ بجزء من نفسه داخل طبقة لا تخترقها العيون.

القديمة تقرأ... ولا تُصاب بالدهشة. بل بالفقد.

كانت تمتلك سابقاً يقيناً بأنها الأدرى بلغة صدره، وبأنها الوحيدة القادرة على التقاط اهتزازات نبرة لا يسمعها الآخرون.

لكنها الآن تُحدّق في كلماته الجديدة وكأنها تواجه نصّاً بلغاتٍ متعددة، بلا نحوٍ مألوف، بلا إيقاع يمكنها استعادته.

لأوّل مرّة، شعرت بأن هناك باباً انغلق دون أن تسمع صريره، وأنّ شيئاً غامضاً تحرّك داخله ولم تعد تمتلك حقّ الدخول إلى تلك المساحة.

قالت لنفسها، محاوِلةً استعادة ثقتها القديمة:

«هذه مجرد مرحلة... سينطق يوماً بما أعرف... سينكشف المعنى كما اعتاد.»

لكن المعنى لم ينكشف.

بل ازداد ابتعاداً.

وهي، للمرة الأولى، تدرك أن المسافة ليست بينها وبينه؛ بل بينها وبين نفسها التي كانت تتوهّم المعرفة.

الجديدة... بين الدهشة والريبة

كانت الأخرى تميل إلى قراءة كل تفاصيله كأنها إشارات موجهة لها.

تتمرّس في تفسير الصمت وتفكيك الكلمات، وتظن أنها الأقرب إلى لغته في هذه المرحلة.

لكنها، أمام هذه العبارات، توقّفت.

«هل يخاطبني؟»

«أم يكتب للقديمة؟»

«أم أنه يكتب لنفسه بلغة لم يشاركنا فيها من قبل؟»

هذه الأسئلة هزّتها أكثر مما أرادت الاعتراف به.

فهو لم يلوّح لها بأيّ مفتاح، ولم يسمح لها بفهم ما وراء الجمل، وكأنّه يضع لها حدوداً صامتة:

اقتربي... لكن لا تتصوري أنك اكتشفتِ البحر.

وبين الفضول والخوف، شعرت بشيء لم تختبره معه:
عدم اليقين.

وحده هو... يعرف لماذا يكتب هكذا

كان مدركاً تمام الإدراك أنّ الكلمات لم تُكتب لتُفهم، بل لتقول شيئاً آخر:
أنّ البحر، مهما حاولت ضفتان تفسيره، لا يتسع في أيّ قوارب يقدّمونها له.

كان يريد أن يقول لهما دون تسمية:
أنّ من يظن نفسه فاهماً لكل موجة، ينسى أنّ في الأعماق تيارات لا تُرى.
وأنّ من يظن نفسه قريباً من السرّ، ينسى أن الأسرار لا تُفتح إلا حين تريد هي.

هو لم يكتب ليثير غموضاً؛ بل كتب ليُذكّر ذاته قبل الجميع:
أنّ البحر إذا شرح نفسه، فقد شيئاً من مهابته.

تصاعدٌ داخلي في كلتاهما

في القديمة:
تتوالدُ الأسئلة كدوامات صغيرة، تكشف هشاشة ظنّت أنه تمّ ترميمه منذ زمن.

وفي الجديدة:

قلقٌ يختلط بإعجاب، ورغبة في الاقتراب تؤنبها لأنها لا تجد طريقاً واضحاً.

وفي كلتيهما:

إحساسٌ غير مُعلن بأن ما كان مُتاحاً بالأمس... لم يعد كذلك اليوم.

وأما هو...

فكان يكتب ويترك الجمل تتناثر كأصدافٍ لا يعرف أحد كيف تجمّعت على الشاطئ.

كان يواصل الكتابة، لا ليحسم صراعهما، بل ليؤكّد حقيقة واحدة:

أنه البحر...

وأنّ البحر لا يتسع في خيال أيٍّ منهما،

ولا يُختصر في نظرة،

ولا تُفكّ شفرته كاملة.

الرسالة التي لم تُكتب لأحد

في مساءٍ ثقيلٍ كأن الهواء نفسه يراقب ما سيحدث، فتح هو هاتفه ونشر شيئاً لم يسبق أن فعله من قبل.

لم تكن منشوراً، ولا خاطرة، ولا حتى سطراً من لغته الغامضة التي اعتاد أن يكتبها مؤخّراً.

بل كانت صورة.

صورة لصفحة ورقية كُتبت بخطّ يده، لكنها لم تحمل كلاماً واضحاً.

كانت الصفحة مليئة بسطور مشطوبة، كلمات مقطوعة، حروف بلا نهاية، وأسطر تنتهي فجأة كما لو أنّ شيئاً ما كان يُمسك بالقلم ثم يتركه، ثم يعاود الإمساك به بلا قرار.

وفي منتصف الصفحة، سطر واحد لم يُمسّ:

«ستدركان يوماً أن الوصول ليس غاية، وأن المسافة هي المكان الوحيد الذي جمعنا حقاً.»

لم يُرفق الصورة بأي تعليق.

لم يكتب رمزاً ولا وجهاً تعبيريّاً.

تركها هكذا، عارية، تُطلّ على العالم وتُربك قارئيها.

رد فعل القديمة: الخوف حين يصبح صامتاً

حين رأت الصورة، لم تصبها الدهشة... بل الرعب.

لم يكن رعباً من الشكل، بل من الإحساس العميق بأن شيئاً ما ينفلت من يده ومن يديها معاً.

ذلك السطر الوحيد في منتصف الصفحة بدا لها كأنه فصل بين زمنين:

زمن كانت فيه الأقرب، وزمن يُعاد تشكيله الآن دون أن يكون لها فيه موضع ثابت.

قالت في داخلها:

«هل يعني أنّ كل الطريق الذي عرفته لم يكن سوى مسافة؟

وأنّ الوصول الذي حلمت به لم يعد موجوداً؟»

وللمرة الأولى، شعرت أنّ ما يكتبه ليس غموضاً؛ بل إعادة توزيع للأدوار، وقد تفقد فيه دورها القديم بأكمله.

رد فعل الجديدة: حمى التأويل

أما الجديدة، فرأت في الصورة شيئاً آخر:
ساحة مفتوحة للتأويل.

فكّرت بسرعة:
«هل هذا يعني أننا جميعاً عابرون؟
أم أنه يلمّح لشيء سيحدث؟
أم أنّ السطر كتبه لها هي؟ أم للقديمة؟ أم أنه لا يكتب لأيّ امرأة أصلاً؟»

المسافة التي تحدّث عنها أصبحت عاصفة في رأسها؛
مسافة بينه وبينها؟
أم مسافة بين القديم والجديد؟
أم مسافة بينه وبين نفسه التي لا يفصح عنها؟

كانت تُقلّب الاحتمالات كمن يحاول قراءة نجوم الشتاء، كلّها تُشبه بعضها لكنّها لا تقول شيئاً.

وأمّا هو... فكان يعرف جيداً ما يفعل

لم ينشر الصورة اعتباطاً.
كان يدرك أنّ تلك الورقة لم تكن سوى مرآة لشيء يتحرك داخله منذ فترة:
شعور بأن الجميع يقتربون منه بقدر ما يظنّون أنهم فهموا، ويبتعد هو بقدر ما يكتشف أنه غير قابل للاختصار.

كان يريد أن يقول – دون أن يصرّح –
أنّ المسافة ليست فجوة... بل مساحة للتنفّس،
وأنّ الوصول الكامل لأيّ أحد لا يكون إلا فقداناً لجزء منه.

ولذلك ترك السطر الوحيد،
كإعلان هادئ أنّ ما يجمعه بالاثنتين ليس امتلاكاً،
ولا معرفة كاملة،
ولا يقيناً...
بل تلك المسافة التي تحيط بالموج حين ينسحب وتحيط بالرمال حين تنتظره.

تداعيات الحدث

بعد نشر الصورة بثلاث دقائق فقط:

القديمة كتبت له رسالة طويلة، ثم مسحتها.

الجديدة كتبت له «هل أنت بخير؟»، ثم لم ترسلها.

وهو، أغلق الهاتف، كأنّ ما نشره لا يعنيه، وكأنّ الضجّة التي سيثيرها ليست جزءاً من حساباته.

ذلك الليل كان إعلاناً غير رسمي بأنّ الفصل التالي لن يشبه ما قبله.
فما فعله لم يكن مجرد غموض...
بل هزّة في البنية العاطفية التي تشدّ كل طرف نحو الآخر.

صمتٌ يتقدّم... وخطوة تتراجع

لم يكن الليل تلك المرة مظلماً بقدر ما كان مزدحماً بالنيات، كأنّ كل واحدة منهما حملت في صدرها قراراً مؤجّلًا آن أوانه، ثم خانتها الخطوة الأخيرة عند حافة البوح.

القديمة: خطوةٌ تُعاد صياغتها داخل الخوف

كانت القديمة أول من اندفع نحو كسر الصمت.

أمسكت هاتفها برغبة ثابتة للمرة الأولى منذ زمن.

كتبت رسالة قصيرة، جملة واحدة، تليق بما بينهما:

«أخبرني فقط: هل أنت بخير؟»

لم تكن تريد أكثر من ذلك.

كانت تعرف أنّ السؤال البسيط يكفي ليعيد فتح باب أغلقته الأحداث، باباً لم يُغلق يوماً في قلبها، بل في الوقت الخاطئ فقط.

لكنها، وفي اللحظة الأخيرة، شعرت أن السؤال ليس مجرد سؤال، بل انكشاف كامل.

كأنها ستطلّ من نافذة بلا ستائر على رجلٍ فضّل الظلام.

فحذفت كل شيء، وتركت الشاشة فارغة كما كانت، وعادت إلى صمتها، بينما يداها ترتجفان كمن أفلت حبلاً كان يساعده على الثبات.

الجديدة: اقترابٌ يضيع بين الاحتمالات

أما الجديدة، فكانت على الجانب الآخر من العالم، في غرفة فندق غريب، ضوءه باهت ورائحته تشبه حقائب السفر.

قضت ساعة كاملة تفكّر في البادرة الأولى:

هل تكتب شيئاً مباشراً؟

هل تنتظر أن يبادر هو؟

هل تتجاهل الارتباك وتتصرف وكأنها فوق الجرح؟

كتبت رسالة طويلة... ثم مسحت نصفها... ثم كتبت أخرى... ثم تركت الهاتف واستسلمت للدهشة.

كانت تشعر أنها إن تكلّمت الآن ستقول أكثر مما يجب، وإن صمتت ستبدو كأنها تهرب، وهي لم تعد تريد الهرب، وإن كانت قد سافرت ابتداءً لتتجنب الغرق.

وفي اللحظة التي قررت فيها أن تضغط «إرسال»، انتبهت أنها لا تعرف ماذا تريد أن يسمع منها بالفعل، فتراجعت، وتركت الرسالة في مسودة لا يقرؤها أحد.

وهو... غيابٌ يعلّق الهواء

بينما كانت كل منهما تتأرجح بين الاقتراب والتراجع، كان هو ينسحب من المشهد كلياً، ببطء حازم، دون إعلان.

اختفى.

لا منشور.

لا تعليق.

لا كلمات غامضة هذه المرة.

لا أثر يدلّ على أنه يراقب أو يكتب أو ينوي العودة.

اختفاؤه لم يكن هروباً؛ كان صمتاً يتعمّد إعادة ترتيب الفوضى في داخله... أو ربما اختباراً لمعرفة من ستخطو نحوه رغم الغموض.

لكن النتيجة كانت واحدة:

القلق تمدّد في صدريهما كظلّ طويل لا ينتهي.

المتابعون يدخلون الحكاية

لم تكن القصة محصورة في حدود القلوب الثلاثة بعد الآن.

المتابعون—أولئك الذين تابعوا كلماته، وصوره المشطوبة، وإشاراته غير المفهومة—أصبحوا جزءاً من الدراما.

صار كل منشور من القديمة يقرأ كأنه ردّ عليه.

وكل إشارة من الجديدة تُفهم كأنها محاولة للاقتراب.

وحين اختفى هو، بدأ الجميع يتساءلون:

«أين ذهب؟

ولمن كتب؟

ومن ستكون الأقرب حين يعود؟»

تحولت قصته إلى مسلسل غير معلن، episodic، ينتظر المتابعون حلقة جديدة كل مساء، دون أن يعرف أحد موعد عرضها أو نهايتها.

وفي تلك الليلة…

لم تكتب القديمة شيئاً.

لم ترسل الجديدة شيئاً.

ولم يظهر هو.

كانت تلك هي الحلقة التي لا يحدث فيها شيء…

لكنها الحلقة التي تغيّر كل شيء.

دخول ظلّ جديد

لم يكن الليل قد اكتمل حين ظهر الحدث الذي لم تتوقعه أي منهما، ولا حتى هو، رغم قدرته على التنبؤ بما قد يحدث في ساحات القلوب.

أول العلامات: شخصٌ يكتب عنه... دون إذنه

في هدوء منتصف الليل، نشر أحد المتابعين—شاب معروف بقدرته على تحليل النصوص والقراءات العاطفية—مقالاً صغيراً على صفحته، يفسّر فيه ما سماه:

«قصة الرجل الذي انشطر بين امرأتين»

لم يذكر أسماء، ولم يشر لأي منهما مباشرة، لكنه اقتبس جملاً من كتاباته، وصوّر أجزاء من محادثات متوقعة، وأضاف تحليلات جعلت القصة تبدو مكشوفة أمام الجميع... وكأنها لم تعد ملكاً لأصحابها.

انتشر المنشور كالنار في هشيم العالم الرقمي.

الناس تعلّق، وتعيد نشره، وتبحث عن «القديمة» و«الجديدة» بين السطور؛

وبعضهم يظن أن القديمة هي امرأة من الماضي ظهرت فعلاً، وأن الجديدة هي من غادرت البلاد.

في تلك اللحظة فقط، اكتمل الحدث الثالث.

القديمة: خوفٌ من انكشافٍ لم تتوقعه

حين وصلها المنشور، شعرت القديمة بأن أحدهم اقتحم غرفتها الخاصة.

كأن يداً غريبة فتحت صندوقاً مهترئاً يخصها، وأخرجت منه رسائل لم يقرأها أحد.

لم تفزع من الفضيحة، بل من انهيار الخطة التي كانت تبنيها بصبر اللبؤة التي تنتظر اللحظة المناسبة.

قالت في سرّها:

«هذا ليس وقت العلن...
أنا لم آخذ موقفي بعد.
كيف أقاتل الآن والضوء مسلّط على كل حركة؟»

للمرة الأولى، تشعر القديمة أن الاقتراب أصبح خطراً، وأن خطوة واحدة غير محسوبة قد تظهر كأنها تنازع في معركة يُشاهدها الجميع.

فتراجعت.
وصمتت.
وبدأت تُعيد ترتيب استراتيجيتها من جديد.

الجديدة: ذعرٌ ناعم... وقرار مفاجئ

أما الجديدة، فكانت في غرفتها البعيدة حين رأت المنشور.
شعرت بأن العالم ألقى عليها ضوءاً بارداً، يكشفها دون أن يعرف أحد اسمها.
كانت تخاف من الماضي أصلاً، فكيف وقد صار الماضي والمستقبل مادة للتكهنات العامة؟

سألت نفسها:

«هل أصبحت جزءاً من قصة لا أتحكم فيها؟
هل كنت محقة في السفر؟

أم أن السفر تركني مكشوفة أكثر؟»

وفجأة...

وللمرة الأولى منذ بدأت الحكاية...

فكّرت الجديدة في قطع كل شيء:

إغلاق حساب، تغيير رقم هاتف، الانسحاب من الساحة.

لا لأنها ضعفت، بل لأنها شعرت أن القصة لم تعد بين قلبين، بل أمام جمهور، وهي لا تريد أن تكون إحدى الشخصيات في رواية تُكتب على الملأ.

وهو... صمت يتحوّل إلى غضب

حين وصلته صورة المنشور، شعر بشيء لم يشعر به منذ بدء عاصفة القصة:

الغضب.

لم يغضب لأنه انكشف، ولا لأن أحداً اقترب من حياته، بل لأن قصته—التي لم يستوعبها هو بعد—أصبحت مادة لقراءة عامة، وتحليل سطحي، وتأويل لا يشبه الحقيقة.

قال في نفسه:

«لم أكتب لأحد...

كتبتُ لنفسي.

كيف صار هذا مكاناً للتأويل والمسرح؟»

وللمرة الأولى...

فكّر أن يكتب شيئاً صريحاً يكسر المسار كله.

شيئاً قد يعيد القصة إليه وحده، أو يعصف بها تماماً.

لكنّه لم يفعل.

بل اختفى أكثر.

الحدث الثالث... لم يخلق فوضى فقط

بل فتح باباً جديداً:

باب الوعي بأن القصة لم تعد ملكاً لأبطالها.

وأن الجمهور دخل اللعبة، وصار جزءاً من المسار، يفرض ضغطاً خفياً على كل خطوة.

ومن هنا...

لن تكون القرارات القادمة بسيطة.

ولا النوايا واضحة.

ولا الاقتراب سهلاً.

تماماً كما يحدث عندما تُضاء المسرحيات قبل موعد العرض.

صورة على شاطئ... وضربة مزدوجة

في صباح اليوم التالي، بعد ليلة طويلة من صمت عميق وقلق كامن، نشر صورة جديدة على حسابه.

صورة بدت بسيطة للوهلة الأولى: شاطئ هادئ، رمال ناعمة، أمواج تتلاطم برفق، لكنه لم يكن وحده فيها.

إلى جانبه، فتاة جميلة لم يعرفها أحد بدقة، تقف مبتسمة، لا يظهر منها سوى نصف الوجه، والظل يلعب على ملامحها بشكل يجعل كل شيء غامضاً.

لا تعليق، لا رمز، لا إشارات... فقط الصورة.

رد فعل القديمة: ارتباك وإحباط

عندما رأت القديمة الصورة، شعرت وكأن شيئاً صادماً قد اخترق قلبها فجأة.
لم يكن مجرد الغيرة، بل ارتباك عميق:

هل هي مجرد صديقة؟

هل هي معجبة جديدة بكتاباته؟

أم أنّ قلبه قد اتجه نحو حب آخر، بعد كل ما عرفته من حركاته الأخيرة؟

تذكّرت كل رسالة، كل سطر مشطوب، كل لحظة شعرت فيها بأنها تقترب منه.
والآن، ومع هذه الصورة الصامتة، بدا كل شيء غير مضمون، وكأنها لم تعد تملك حتى جزءاً صغيراً من حيزه العاطفي.

قالت في سرّها:

«كل ما خططت له، كل خطوة دقيقة... أصبح الآن عبثاً.
كيف يمكن لصورة واحدة أن تهزّ كلّ ما بنيته؟»

ارتفع ضغطها النفسي، لكنها لم تُرسل أي شيء.
عرفت أنّ أي رد فعل متسرّع قد يفضحها أكثر أمام نفسها وأمام الآخرين.

رد فعل الجديدة: دهشة وتوتر

أما الجديدة، فكانت الصورة بالنسبة لها لغزاً مزدوجاً:

من هذه الفتاة؟

لماذا ظهر معها؟

هل هي رسالة خفية لها؟ أم لعامة المتابعين؟

كل الاحتمالات تراوحت في ذهنها كأمواج البحر الذي كان يحلم بالاقتراب منه، لكنها لم تتعلم بعد السباحة فيه بلا خارطة.

شعرت بتوتر غريب: هل ما شعرت به تجاهه حقيقي أم مجرد وهم؟

هل يجب أن تتقدّم الآن أم تبتعد مجدداً؟

المسافة التي رسمها بينه وبين نفسها بدت فجأة وكأنها تتقلص، لكنها لم تكن متأكدة من سلامتها.

ظلّت تتأمل الصورة، كل تفاصيلها، وتحلل الظلال والابتسامة، وكأنها محاولة لقراءة لغز لم تُكتب فيه الكلمات بعد.

هو... ضربة مزدوجة

أما هو، فكان يعرف تماماً قوة الصورة.

نشرها بلا تعليق، مدركاً أنها ستصدم كلا المرأتين، وتخلق مسافة من التساؤل والتأويل لدى المتابعين.

لم يكن هدفه التلاعب بهما فقط، بل أيضاً اختبار الحدود، رؤية من يتراجع، ومن يجرؤ على الاقتراب، ومن يلتفت إليه بصمت.

الصورة لم تكن مجرد صورة.

كانت رسالة مزدوجة:

للقديمة: لم تعد الأمور كما كانت، كل شيء قابل لإعادة القراءة، حتى من بدا وكأنه يعرفك.

للجديدة: البحر أوسع من قلبك، والعالم أكبر من رغبتك في فهمه بسرعة، وكل خطوة تقررينها يمكن أن تغير قواعد اللعبة.

كما وجه ضربة لآخر: المتسلل الذي حاول اقتحام عالمه.

الصورة أثبتت للجميع، بلا كلمات، أن خصوصيته محفوظة، وأن أي محاولة للتدخل ستصطدم بصمت أقوى من أي اعتراض.

المتابعون: دهشة وترقب

المتابعون لاحظوا فوراً أن شيئاً ما تغيّر:

البعض قالوا: «قد يكون هذا حباً جديداً...»

آخرون: «لا، هذا مجرد صديقة، يريد أن يربك القديم والجديد»

آخرون بدأوا في تحليل الظلال، مواقع اليد، الزوايا، وكأنهم محللون في لعبة كبيرة.

تحوّلت القصة، في ساعات قليلة، إلى عرض يومي حيّ، كل منشور وكل صورة تصبح مادة تحليلية للجمهور، بينما أبطال القصة الثلاثة يتصارعون مع مشاعرهم داخل صمتهم الخاص.

ارتجاجٌ في القلوب

1 ــــ القديمة: ارتباك بين ثقة مألوفة وصدع جديد

حين انطفأت شاشة هاتفها بعد أن رأت الصورة، شعرت القديمة بأن خيطًا دقيقًا انقطع داخل صدرها.

لم تكن الضربة في ظهور فتاة جديدة ــــ فقد اعتادت أن تراقب محاولات عابرة من نساء عشن على أطراف عالمه ــــ بل في التوقيت وفي الصمت وفي تلك الجرأة المبهمة التي بدت كأنها إعلان خفي لا يفهم كلماته إلا من يعرفه جيدًا.

جلست على طرف السرير، كأن الأرض فقدت خط استقامتها.

أخذت تحدّق في الصورة مرة أخرى، تحاول جمع التفاصيل الدقيقة:

ابتسامته الهادئة كمن يتقن لعبة كشف الأوراق دون أن يعلن شيئًا.

ظل الفتاة الذي يخفي أكثر مما يُظهر.

البحر الذي بدا كأنه يبتلع المعنى دون تفسير.

قالت في سرّها بصوت مهزوم لا تعترف به:

«إن كان هذا إعلانًا... ما الذي يعنيه؟

أنا التي كنت أعرف مفاتيحه، هل تغيّر؟

أم أنني ببساطة لم أعد أملك القدرة على قراءة الصمت؟»

ورغم الاضطراب الذي اجتاحها، استدعَت جزءًا من ثقتها القديمة، تلك التي لطالما جعلتها تُحسن إدارة المعارك القلبية:

«لا يجرؤ على إغلاق الباب دون كلمة... وإن فعل، فلن يكون بهذا الشكل.

هو يكتب حين يريد إنهاء شيء.

هذه الصورة ليست نهاية... إنها حركة شطرنج.»

لكن رغم محاولات القوة، شعرت بأنها تتزلزل.

ليس خوفًا من الفتاة في الصورة، بل من احتمال أن يكون هو قد تغيّر بالفعل... وأن أسراره لم تعد تمرّ عبرها كما كانت.

2 — الجديدة: خوف من فقدان شيء لم يمتلكته بعد

كانت الجديدة في غرفتها الصغيرة في البلد التي هربت إليها، تجلس أمام نافذة تطل على شارع لا تعرفه.

فتحت هاتفها بلا توقعات، فظهرت الصورة.

تجمدت.

مرّت لحظات طويلة قبل أن تستوعب أن أنفاسها ترتفع ببطء، وأن قلبها يدق كأنه يحاول اختراق جدارًا زجاجيًا حول صدرها.

حدّقت في الصورة، في ابتسامته، في ظل الفتاة التي تقف بجانبه، شعرت بشيء يشبه طعنة غير معلنة.

بدأت تسأل نفسها:

هل كان كل ما شعرت به مبالغًا فيه؟

هل كانت تقرأ إشارات لم يقصدها؟

هل كان سفرها خطوة صحيحة… أم هروبًا جعلها تبدو كأنها لا تستحق الانتظار؟

قالت في داخلها بمرارة لم تعترف بها من قبل:

«كيف يمكن لصورة أن تربكني هكذا؟

لم نكن معًا… لم نعد بعضنا بشيء…

لكن لماذا أشعر أن أحدهم سحب كرسيًّا من تحتي فجأة؟»

كان جزء منها يحاول إقناع ذاتها بأن الصورة لا تعني شيئًا، وأنه قد يكون نشرها بدافع عابر أو كجزء من حياته اليومية…

لكن الجزء الآخر — الأكثر صدقًا — كان يقول:

«لو لم يكن في قلبي شيء له… لما ارتجفت هكذا.»

وللمرة الأولى منذ سفرها، شعرت بأنها ليست بعيدة بما يكفي، وأن البحر الذي هربت منه قد تناولها حتى هنا، بطريقة لا يمكن تفسيرها.

3 — التقاء غير مرئي بينهما

في اللحظة نفسها، كانت القديمة تتأمل ثقتها المرتعشة، بينما الجديدة تتأمل خوفها الخافت…

كلتاهما تجاهلت حقيقة واحدة:

الصورة لم تكن إعلان حب... بل كانت اختبارًا.

اختبار صمت، واختبار صبر، واختبار شجاعة.

كلتاهما شعرت بأن شيئًا ينتظر منهما رد فعل، لكنهما لم تُقدما على خطوة:

القديمة لأنها تخشى أن يبدو تدخلها اعترافًا بالهزيمة.

الجديدة لأنها لا تملك حقًّا تعتقد أنها تستند إليه.

ولم تعرف أي منهما أن الصورة لم تكن موجهة لأي منهما بشكل فردي...

كانت موجهة للجميع.